

① التفسير

المجموعة الكاملة لمؤلفات  
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي  
رَحِمَهُ اللهُ

تيسير الكريم الرحمن  
في  
تفسير كلام المنان

الجزء الثالث

من تفسير سورة الأعراف والأنفال والتوبة ويونس وهود

مركز صالح بن صالح الثقافي

بعنيزة

المملكة العربية السعودية

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م



تفسير

## سُورَةُ الْأَعْرَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصَّ ١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ  
حَرَجٌ مِّنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ أَتَبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ

---

يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، مبينا له عظمة القرآن :  
[ كتاب أنزل إليك ] أى : كتاب جليل ، حوى كل ما يحتاج إليه  
العباد ، وجميع المطالب الإلهية ، والمقاصد الشرعية ، محكما مفصلا .

[ فلا يكن في صدرك حرج منه ] أى : ضيق وشك واشتباه .  
بل لنعلم أنه تنزيل من حكيم حميد ، وأنه أصدق الكلام ، لا يأتيه  
الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فلينشرح له صدرك ، ولتطمئن به نفسك ، ولتصدع بأوامره ونواهيه ،  
ولا تخش لائما ومعارضاً .

[ لتنذر به ] الخلق ، وتعظمهم ، وتذكركم ، فتقوم الحجة على المعاندين .  
[ و ] ليكن [ ذكرى للمؤمنين ] كما قال تعالى [ وذكروا فإن الذكرى

مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾  
وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾

---

تنفع المؤمنين [ يتذكرون به الصراط المستقيم ، وأعماله الظاهرة والباطنة ، وما يحول بين العبد ، وبين سلوكه .

ثم خاطب الله العباد ، ولفتهم إلى الكتاب فقال :

[ واتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ] أي : الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم ، وهو :

[ من ربكم ] الذي يريد أن يتم تربيته لكم ، فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي إن اتبعتموه ، كملت تربيتكم ، وتمت عليكم النعمة ، وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق ، ومعاليها .

[ ولا تتبعوا من دونه أولياء ] أي : تتولونهم ، وتتبعون أهواءهم ، وتتركون لأجلها الحق .

[ قليلا ما تذكرون ] فلو تذكركم وعرفتم المصلحة ، لما آثرتم الضار على النافع ، والعدو على الولي .

ثم حذرهم عقوباته للأمم الذين كذبوا ما جاءتهم به رسلهم ، فلا يشابهونهم فقال :

[ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا ] أي : عذابنا الشديد [ بيانا أو هم قائلون ] أي : في حين غفلتهم ، وعلى غرتهم غافلون ، لم يخطر الهلاك على قلوبهم .

فحين جاءهم العذاب ، لم يدفعوه عن أنفسهم ، ولا أغنت عنهم آلهتهم ،

فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا  
ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلِينَ ﴿٦﴾

---

التي كانوا يرجونهم<sup>(١)</sup>، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصي .  
[ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ]  
قال تعالى :

[ وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين . فلما  
أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه  
ومساكنكم لعلكم تسألون \* قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين \* فما زالت تلك  
دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ] .

وقوله [ فلنسالن الذين أرسل إليهم ] أى : لنسالن الأمم ، الذين أرسل  
الله إليهم المرسلين ، عما أجابوا رسلهم ، ( ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم  
المرسلين ) الآيات .

[ ولنسالن المرسلين ] عن تبليغهم ، لرسالات ربهم ، وعما أجابتهم به أممهم .

---

( ١ ) قوله ( يرجونهم الخ ) من باب تغليب العقلاء على غيرهم ، لأن  
المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويرجونها وليست من العقلاء كما كانوا  
أيضاً يعوذون رجال من الجن والإنس كما اتخذوا فرعون والنمرود إلها  
فتعبير المؤلف بـ « يرجونهم » إنما يتمشى على إرادة العقلاء ، لأن « هم »  
لا تكون إلا للعقلاء فلذلك قلنا : « من باب تغليب العقلاء » ولو كان المعنى  
مقتصرأ على الأصنام ، لما صح التعبير بـ « يرجونهم » بل لتعين أن يقال  
« يرجونهن » لأن ضمير « هن » صالحة للعاقلات ولغير العقلاء مؤنثا ومذكرا .

فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾  
 وَأَلْوَزُنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ  
 هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا  
 أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

[فلنقصن عليهم] أى : على الخلق كلهم ما عملوا [بعلم] منه تعالى لأعمالهم .  
 [وما كنا غائبين] فى وقت من الأوقات ، كما قال تعالى :  
 [أحصاه الله ونسوه] .

وقال تعالى [ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين] .  
 \* ثم ذكر الجزاء على الأعمال فقال : [والوزن يومئذ الحق] إلى قوله :  
 [بما كانوا بآياتنا يظلمون] .

أى : والوزن يوم القيامة يكون بالعدل ، والقسط ، الذى لا جور فيه  
 ولا ظلم بوجه .

[فمن ثقلت موازينه] بأن رجعت كفة حسناته على سيئاته .  
 [فأولئك هم المفلحون] أى : الناجون من المكروه ، المدركون للمحبوب  
 الذين حصل لهم الربح العظيم ، والسعادة الدائمة .

[ومن خفت موازينه] بأن رجعت سيئاته ، وصار الحكم لها .  
 [فأولئك الذين خسروا أنفسهم] إذ فاتهم النعيم المقيم ، وحصل لهم  
 العذاب الأليم .

[بما كانوا بآياتنا يظلمون] فلم ينقادوا لها ، كما يجب عليهم ذلك .

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ  
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾  
وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا  
لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنْ

\* يقول تعالى — ممتنا على عباده بذكر المسكن والمعيشة [ ولقد مكناكم  
في الأرض ] أى : هيأناها لكم ، بحيث تتمكنون من البناء عليها وحرثها ،  
ووجوه الانتفاع بها .

[ وجعلنا لكم فيها معاش ] مما يخرج من الأشجار والنبات ، ومعادن  
الأرض ، وأنواع الصنائع والتجارات ، فإنه هو الذى هيأها ، وسخر  
أسبابها .

[ قليلا ما تشكرون ] الله ، الذى أنعم عليكم بأصناف النعم ، وصرف  
عنكم النعم .

\* يقول تعالى ، مخاطباً لبني آدم : [ ولقد خلقناكم ] بخلق أصلكم ومادتكم  
التي منها خرجتم ، من أبيكم آدم عليه السلام [ ثم صورناكم ] فى أحسن  
صورة ، وأحسن تقويم .

وعلمه تعالى ما به تكمل صورته الباطنة ، أسماء كل شئ .

ثم أمر الملائكة الكرام ، أن يسجدوا لآدم ، إكراماً واحتراماً ،  
وإظهاراً لفضله ، فامثلوا أمر ربهم .

[ فسجدوا ] كلهم أجمعون ، [ إلا إبليس ] أبى أن يسجد له ، تكبرا  
عليه ، وإعجاباً بنفسه .

السُّجْدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ  
مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا

فوجئه الله على ذلك وقال : [ ما منعك ألا تسجد ] لما خلقت بيدي ،  
أى : شرفته ، وفضلته بهذه الفضيلة ، التى لم تكن لغيره ، فعصيت أمرى ،  
وتهاونت بى ؟

[ قال ] إبليس معارضاً لربه : ( أنا خير منه ) .  
ثم برهن على هذه الدعوى الباطلة بقوله له : [ خلقتنى من نار وخلقته  
من طين ] .

وموجب هذا ، أن المخلوق من نار ، أفضل من المخلوق من طين لعلو  
النار على الطين ، وصعودها .

وهذا القياس من أفسد الأقيسة ، فإنه باطل من عدة أوجه .  
منها : أنه فى مقابلة أمر الله له بالسجود ، والقياس إذا عارض النص ،  
فإنه قياس باطل ، لأن المقصود بالقياس ، أن يكون الحكم الذى لم يأت فيه  
نص ، يقارب الأمور المنصوص عليها ، ويكون تابعا لها .  
فأما قياس يعارضها ، ويلزم من اعتباره إلغاء النصوص ، فهذا القياس  
من أشنع الأقيسة .

ومنها : أن قوله [ أنا خير منه ] بمجرد ما كافية لنقص إبليس الخبيث .  
فإنه برهن على نقصه بإعجابه بنفسه ، وتكبره ، والقول على الله بلا علم .  
وأى نقص أعظم من هذا ؟ ! !

ومنها : أنه كذب فى تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب .

يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ  
أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴿١٦﴾

---

فإن مادة الطين ، فيها الخشوع ، والسكون ، والرزانة ، ومنها تظهر  
بركات الأرض ، من الأشجار ، وأنواع النبات ، على اختلاف أجناسه  
 وأنواعه .

وأما النار ، ففيها الخفة ، والطيش ، والإحراق .

ولهذا لما جرى من إبليس ما جرى ، انحط من مرتبته العالية إلى أسفل  
 السافلين .

فقال الله له : [ فاهبط منها ] أى من الجنة [ فما يكون لك أن تتكبر  
 فيها ] لأنها دار الطيبين الطاهرين ، فلا تليق بأخبث خلق الله وأشرهم .

[ فاخرج إنك من الصاغرين ] أى : المهانين الأذلين ، جزاء على كبره  
 وعجبه ، بالإهانة والذل .

فلما أعلن عدو الله بـداوة الله ، وعداوة آدم وذريته ، سأل الله النظرة  
 والإمهال إلى يوم البعث ، ليتمكن من إغواء ما يقدر عليه من بنى آدم .

ولما كانت حكمة الله مقتضية لابتناء العباد واختبارهم ، ليتبين الصادق  
 من الكاذب ، ومن يطيعه ، ومن يطيع عدوه ، أجابه لما سأل فقال :  
 [ إنك من المنظرين ] .

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾

\* أى : قال إبليس - لما أبلس ، وأيس من رحمة الله - [ فبما أغويتنى لأقعدن لهم ] أى : للخلق [ صراطك المستقيم ] أى : لألزم الصراط ولأسمى غاية جهدى ، على صد الناس عنه ، وعدم سلوكهم إياه .  
[ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ]  
أى : من جميع الجهات والجوانب ، ومن كل طريق يتمكن فيه ، من إدراك بعض مقصوده فيهم .

ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم ، وكان جازما ببذل مجهوده على إغوائهم ، ظن وصدق ظنه فقال :  
[ ولا تجد أكثرهم شاكرين ] فإن القيام بالشكر ، من سلوك الصراط المستقيم ، وهو يريد صدهم عنه ، وعدم قيامهم به ، قال تعالى :  
[ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ] .

وإنما نبهنا الله على ما قال وعزم على فعله ، لنأخذ حذرنا ونستعد لعدونا ، ونحترز منه بعلنا ، بالطريق التى يأتى منها ، ومداخله التى ينفذ منها ، فله تعالى علينا بذلك ، أكل نعمة .

﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴿﴾

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ

حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٩﴾

\* أى : قال الله لإبليس لما قال ما قال : [ اخرج منها ] خروج صغار واحتقار ، لا خروج إكرام بل [ مذموما ] أى : مذموما [ مدحورا ] مبعداً عن الله ، وعن رحمته ، وعن كل خير .

[ لأملأن جهنم منكم ] أى : منك ومن تبعك منهم [ أجمعين ] وهذا قسم من الله تعالى ، أن النار دار العصاة ، لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس .

ثم حذر آدم شره وفتنته فقال :

\* [ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ] إلى قوله : [ من الخاسرين ] .

أى أمر الله تعالى ، آدم وزوجته حواء ، التى أنعم الله بهما عليه ، ليسكن إليهما ، أن يأكلا من الجنة حيث شاءا ويتمتعاً فيها بما أرادا ، إلا أنه عين لهما شجرة ، ونهاهما عن أكلها .

والله أعلم ، ما هى ، وليس فى تعيينها فائدة لنا .

وحرم عليهما أكلها ، بدليل قوله :

[ فتكونا من الظالمين ] فلم يزالا ممثلين لأمر الله ، حتى تغفل إليهما ،

عدوها إبليس بمكره ، فوسوس لهما وسوسة ، خدعهما بهما ، وموه

عليهما وقال :

فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِئِهِمَا  
وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا  
مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنَاصِحٌ  
الْنَّصِيحِينَ ﴿٢١﴾ فَقَدَّ لَهُمَا بَغْرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا  
وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ

[ مانها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ] أى : من  
جنس الملائكة [ أو تكونا من الخالدين ] كما قال فى الآية الأخرى :  
[ هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ] .

ومع قوله هذا أقسم لها بالله [ إني لكما لمن الناصحين ] أى : من جملة  
الناصحين ، حيث قلت لكما ، ما قلت .

فاغتر بذلك ، وغلبت الشهوة فى تلك الحال على العقل .  
[ فذلاهما ] أى : أنزلهما عن رتبتهم العالمة ، التى هى البعد عن الذنوب  
والمعاصى إلى التلوث بأوضارها ، فأقدا على أكلها .  
[ فلما ذاقا الشجرة ، بدت لهما سواتهما ] أى : ظهرت عورة كل منهما  
بعد ما كانت مستورة .

فصار للعرى الباطن من التقوى فى هذه الحال ، أثر فى اللباس الظاهر ،  
حتى انخام ، فظهرت عوراتهما .

ولما ظهرت عوراتهما ، خجلا ، وجعلا يخصفان على عوراتهما ، من  
أوراق شجر الجنة ، ليستترا بذلك .

أَنَّهُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقْلَ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ  
مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا  
لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾

[وناداهما ربهما] وهما بتلك الحال موبخا ومعاتبا .

[ألم أنهما عن تلك الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين]  
فلم اقرقما النهى ، وأطعما عدوكما ؟

فحينئذ ، من الله عليهما بالتوبة وقبولها ، فاعترفا بالذنب ، وسألا من الله  
مغفرته فقالا :

[ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين].

أى : قد فعلنا الذنب ، الذى نهيتنا عنه ، وأضررنا بأنفسنا ، باقرار  
الذنب ، وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا ، بمحو أثر الذنب وعقوبته ،  
وترحمنا بقبول التوبة والمعافة من أمثال هذه الخطايا .

فغفر الله لهما ذلك [وعصى آدم ربه فغوى \* ثم اجتباه ربه فتاب  
عليه وهدى \*] .

هذا ، وإبليس مستمر على طغيانه ، غير مقلع عن عصيانه .

فمن أشبه آدم بالاعتراف ، وسؤال المغفرة والندم ، والإقلاع — إذا  
صدرت منه الذنوب — اجتباه ربه وهداه .

ومن أشبه إبليس — إذا صدر منه الذنب ، لا يزال يزداد من المعاصي —  
فإنه لا يزداد من الله إلا بعدا .

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ مَتَّعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٢٤)

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (٢٥)  
يَبْنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا

\* [ قال اهبطوا ] أى : قال الله ، مخاطبا لآدم وحواء بلفظ الجمع ، لأن إبليس هبط من قبل إلى السماء ، ثم هبطوا جميعاً إلى الأرض .

وكرر الأمر لإبليس ، تبعاً لهما ، ليعلم أنهم قرناء أبداً ، لأن إبليس ، لا يفارق الإنسان ، بل يلزمه كل الملائمة ، ويبدل كل جهده ، فى إضلال بنى آدم .

وجملة [ بعضكم لبعض عدو ] فى موضع نصب على الحال ، من الضمير الذى هو الواو ، فى [ اهبطوا ] .

وخلاصة المعنى أن الله قال لهما وللشيطان : اهبطوا جميعاً من الجنة إلى الأرض متعادين ، ولكم فى الأرض ، استقرار ، وموضع استقرار ، تتمتعون وتنتفعون ، إلى حين انقضاء آجالكم .

\* أى : لما أهبط الله آدم وزوجته وذريتهما إلى الأرض ، أخبرها بحال إقامتهم فيها ، وأنه جعل لهم فيها حياة ، يتلوها الموت ، مشحونة بالامتحان والابتلاء ، وأهم لا يزالون فيها ، يرسل إليهم رسله ، وينزل عليهم كتبه ، حتى يأتهم الموت ، فيدفنون فيها .

ثم إذا استكملوا ، بعثهم الله ، وأخرجهم منها إلى الدار التى هى الدار حقيقة ، التى هى دار المقامة .

وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَةِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ  
يَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

ثم امتن عليهم بما يسر لهم ، من اللباس الضروري ، واللباس الذى المقصود منه ، الجلال .

وهكذا سائر الأشياء ، كالطعام ، وللشراب ، والمراكب ، والمناكب ونحوها .

قد يسر الله للعباد ضروريها ، ومكمل ذلك ، وبين لهم أن هذا ، ليس مقصوداً بالذات ، وإنما أنزله الله ، ليكون معونة لهم على عبادته وطاعته ، ولهذا قال :

[ ولباس التقوى ذلك خير ] من اللباس الحسى ، فإن لباس التقوى ، يستمر مع العبد ، ولا يبلى ولا يبيد ، وهو جمال القلب والروح .

وأما اللباس الظاهري ، فغايبته أن يستر العورة الظاهرة ، فى وقت من الأوقات .

أو يكون جمالا للإنسان ، وليس وراء ذلك منه نفع .  
وأيضاً ، فبتقدير عدم هذا اللباس ، تنكشف عورته الظاهرة ، التى لا يضره كشفها ، مع الضرورة .

وأما بتقدير عدم لباس التقوى ، فإنها تنكشف عورته الباطنة ، وينال الخزى والفضيحة .

وقوله : [ ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ] أى : ذلك المذكور لكم من اللباس ، مما تذكرون به ، ما ينفعكم ويضركم ، وتستعينون باللباس الظاهر على الباطن .

يَسْنِيَّ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ  
أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ  
يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ  
لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾

\* يقول تعالى ، محذراً لبني آدم ، أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم :  
[ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان ] بأن يزين لكم العصيان ، ويدعوكم  
إليه ، ويرغبكم فيه ، فتقادون له [ كما أخرج أبويكم من الجنة ] وأنزلها من  
الجل العالي ، إلى أنزل منه .

فإياكم<sup>(١)</sup> يريد أن يفعل بكم كذلك ، ولا يألو جهده عنكم ، حتى  
يفتنكم ، إن استطاع .

فعليكم أن تجعلوا الحذر منه في بالكم ، وأن تلبسوا لأمة الحرب بينكم  
وبينه ، وأن لا تغفلوا عن المواضع التي يدخل منها إليكم .

[ إنه ] يراقبكم على الدوام ، و [ يراكم هو وقبيله ] من شياطين الجن  
[ من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ] .

فعدم الإيمان ، هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان .  
( إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون \* إنما سلطانه  
على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون ) .

(١) في الأصل المطبوع ( فأنتم ) وهو خطأ نحوي لأن ( أنتم ) من  
الضمائر المختصة بالرفع فلذلك أبدلناه بـ « إياكم » المختص بالنصب .

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ  
أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ  
مَالًا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ

\* يقول تعالى ، مبيناً لتبجح حال المشركين ، الذين يفعلون الذنوب ،  
وينسبون لله أنه أمرهم بها .

[ وإذا فعلوا فاحشة ] وهى : كل ما يستفحش ويستقبح ، ومن ذلك :  
طوافهم بالبيت ، عراة .

[ قالوا : وجدنا عليها آباءنا ] وصدقوا فى هذا .

[ والله أمرنا بها ] وكذبوا فى هذا ، ولهذا رد الله عليهم هذه  
النسبة فقال :

[ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ] أى : لا يليق بكلامه وحكمته ، أن يأمر  
عباده بتعاطى الفواحش ، لا هذا الذى يفعله المشركون ولا غيره .

[ أتقولون على الله مالا تعلمون ] وأى افتراء أعظم من هذا !!!

ثم ذكر ما يأمر به فقال : [ قل أمر ربي بالقسط ] أى : بالعدل فى العبادات  
والمعاملات ، لا بالظلم والجور .

[ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ] أى : توجهوا إلى الله ، واجتهدوا  
فى تكميل العبادات ، خصوصاً « الصلاة » أقيموها ، ظاهراً وباطناً ، ونقوها  
من كل نقص ومفسد .

كُلِّ مَسْجِدٍ وَأَدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾  
فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ

---

[وادعوه مخلصين له الدين] أى : قاصدين بذلك وجهه وحده  
لا شريك له .

والدعاء يشمل دعاء المسألة ، ودعاء العبادة أى : لا تريدوا ولا تقصدوا  
من الأغراض فى دعائكم ، سوى عبودية الله ورضاه .

[ كما بدأكم ] أول مرة [ تعودون ] للبعث .

فالقادر على بدء خلقكم ، قادر على إعادته ، بل الإعادة ، أهون  
من البدء .

[ فريقاً ] منكم [ هدى ] الله ، أى : وفقهم للهداية ، ويسر لهم أسبابها ،  
وصرف عنهم موانعها .

[ وفريقاً حق عليهم الضلالة ] أى : وجبت عليهم الضلالة ، بما تسببوا  
لأنفسهم ، وعملوا بأسباب الغواية .

[ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ] ومن يتخذ الشيطان  
ولياً من دون الله ، فقد خسر خسرانا مبيناً .

فحين انسلخوا من ولاية الرحمن ، واستعجبوا ولاية الشيطان ، حصل  
لهم النصيب الوافر ، من الخذلان ، ووكلوا إلى أنفسهم فحسروا أشد الخسران .

أَوَّلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾  
يَدْنِي ۖ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا

[وهم يحسبون أنهم مهتدون] لأنهم انقلبت عليهم الحقائق ، فظنوا  
الباطل حقاً ، والحق باطلا .

وفي هذه الآيات ، دليل على أن الأوامر والنواهي ، تابعة للحكمة  
والمصلحة .

حيث ذكر تعالى ، أنه لا يتصور أن يأمر بما تستفحشه وتذكره العقول .  
وأنه لا يأمر إلا بالعدل والإخلاص .

وفيه دليل على أن الهداية ، بفضل الله ومنه ، وأن الضلالة بخذلانه  
للعبد ، إذ تولى — بجهله وظلمه — الشيطان ، وتسبب لنفسه بالضلال .  
وأن من حسب أنه مهتد ، وهو ضال ، فإنه لا عذر له ، لأنه متمكن  
من الهدى .

وإنما أتاه حسبانته ، من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى .

\* يقول تعالى - بعد ما أنزل على بنى آدم لباساً يوارى سوءاتهم وريشاً - :  
[ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ] أى : استروا عوراتكم  
عند الصلاة كلها ، فرضها ونقلها ، فإن سترها زينة للبدن ، كما أن كشفها ،  
يدع البدن قبيحاً مشوهاً .

ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ، ما فوق ذلك ، من اللباس النظيف الحسن ..

ففي هذا ، الأمر بستر العورة في الصلاة ، وباستعمال التجميل فيها ، ونظافة  
الستر من الأدناس والأنجاس .

وَأَشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

ثم قال [وكلوا واشربوا] أى : مما رزقكم الله من الطيبات [ولا تسرفوا] فى ذلك .

والإسراف ، إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافى ، ولشره فى المأكولات التى تضر بالجسم .

وإما أن يكون بزيادة الترفه والتنوق<sup>(١)</sup> فى المآكل ، والمشارب ، واللباس وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام .

[إنه لا يحب المسرفين] فإن السرف يبغضه الله ، ويضر بدن الإنسان ومعيشتة ، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات .

فى هذه الآية الكريمة ، الأمر بتناول الأكل والشرب ، والنهى عن تركهما ، وعن الإسراف فيهما .

(١) تنوق : لغة فى تأنق . قال فى المختار من الصحاح : شئ أنيق . أى : حسن معجب ، وتأنق فى الأمر ، أى : عمله بنية مثل تنوق ، والاسم منه : النيقة وبعضهم لا يقول : تنوق .

وفى المصباح : أنق الشئ من باب « تعب » راع حسنه وأعجب ، وأنت به : أعجبت ، ويتمدى بالهمزة فيقال : آتقتى وشئ أنيق ، مثل : « عجيب » وزناً ومعنى ، وتأنق فى عمله : أحكمه . اهـ

والمراد هنا : التفتن وبذل الجهد فى صنع الأطعمة بصفة جذابة رائة تأخذ بالآلباب وتبهر الأنظار .

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ تُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ

\* يقول تعالى - منكرأ على من تعنت، وحرم ما أحل الله من الطيبات: -  
[ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ] من أنواع اللباس ، على اختلاف أصنافه ، والطيبات من الرزق ، من مأكل ، ومشرب ، بجميع أنواعه .

أى : من هذا الذى يقدم على تحريم ما أنعم الله على العباد ، ومن ذا الذى يضيق عليهم ، ما وسعه الله !! .

وهذا التوسيع من الله لعباده ، بالطيبات ، جعله لهم ليستعينوا به على عبادته ، فلم يبيحه إلا لعباده المؤمنين ، ولهذا قال :

[ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ] أى لا تبعة عليهم فيها .

ومفهوم الآية ، أن من لم يؤمن بالله ، بل استعان بها على معاصيه ، فإنها غير خالصة له ولا مباحة ، بل يعاقب عليها ، وعلى التمتع بها ، ويسأل عن النعيم يوم القيامة .

[ كذلك تفصل الآيات ] أى : نوضحها ونبينها [ لقوم يعلمون ] لأنهم الذين ينتفعون بما فصله الله من الآيات ، ويعلمون أنها من عند الله ، فيعقلونها ويفهمونها .

\* ثم ذكر المحرمات ، التى حرمها الله فى كل شريعة من الشرائع فقال :

رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ  
وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ  
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

[ قل إنما حرم ربى الفواحش ] أى : الذنوب الكبار ، التى تستفحش  
وتستقبح ، لشناعتها وقبحها ، وذلك ، كالزنا ، واللواط ، ونحوها .  
وقوله [ ما ظهر منها وما بطن ] أى : الفواحش التى تتعلق بحركات  
البدن ، والتى تتعلق بحركات القلوب ، كالسكر ، والعجب والرياء ، والنفاق ،  
ونحو ذلك .

[ والإثم والبغى بغير الحق ] أى : الذنوب التى تؤثم ، وتوجب العقوبة  
فى حقوق الله .

والبغى على الناس ، فى دمائهم ، وأموالهم ، وأعراضهم .  
فدخل فى هذا ، الذنوب المتعلقة بحق الله ، والمتعلقة بحق العباد .  
[ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ] أى : حجة ، بل أنزل الحجة  
والبرهان على التوحيد .

والشرك ، هو : أن يشرك مع الله فى عبادته ، أحد من الخلق .  
وربما دخل فى هذا ، الشرك الأصغر ، كالرياء ، والخلف بغير الله ،  
ونحو ذلك .

[ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ] فى أسمائه وصفاته وأفعاله ، وشرعه .  
فكل هذه قد حرمها الله ، ونهى العباد عن تعاطيها ، لما فيها  
من المفاسد الخاصة والعامة ، ولما فيها من الظلم والتجروء على الله ،  
والاستطالة على عباد الله . وتغيير دين الله وشرعه .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٣٤)

﴿ يَذُنِّيْ اٰدَمَ اِمَّا يَنْتَنِيْكُمْ رُّسُلٌ مِّنْكُمْ يَقْصُوْنَ عَلَيْكُمْ اٰيٰتِيْ فَمَنْ اَتٰتٰى وَاَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ ﴾ (٣٥) وَالَّذِيْنَ كَذَّبُوْا بِآيٰتِنَا وَاسْتَكْبَرُوْا عَنْهَا اُولٰٓئِكَ اَصْحٰبُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خٰلِدُوْنَ ﴿٣٦﴾

\* أى : وقد أخرج الله بنى آدم إلى الأرض ، وأسكنهم فيها ، وجعل لهم أجلا مسمى ، لا تتقدم أمة من الأمم على وقتها المسمى ، ولا تتأخر ، لا الأمم المجتمعة ، ولا أفرادها .

\* لما أخرج الله بنى آدم من الجنة ، ابتلاهم بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب عليهم ، بقصون عليهم آيات الله ، ويبينون لهم أحكامه .

ثم ذكر فضل من استجاب لهم ، وخسار من لم يستجب لهم فقال :

[ فمن اتقى ] ما حرم الله ، من الشرك ، والكبائر ، والصغائر .

[ وأصلح ] أعماله الظاهرة والباطنة [ فلا خوف عليهم ] من الشر

الذى قد يخافه غيرهم [ ولا هم يحزنون ] على ما مضى .

وإذا اتقى الخوف والحزن ، حصل الأمن التام ، والسعادة ،

والفلاح الأبدى .

[ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ] أى : لا آمنت بها

قلوبهم ، ولا اعتادت لها جوارحهم .

[ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ] كما استهانوا بآياته ، ولازموا

التكذيب بها ، أهينوا بالعذاب الدائم الملازم .

﴿٣٧﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ  
بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ  
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا  
صَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنفُسِهِم أَنَّهُمْ كَاٰفِرِيْنَ ﴿٣٧﴾

\* أى : لا أحد أظلم [ ممن افترى على الله كذباً ] بنسبة الشريك له ،  
والنقص له ، والتقول عليه ما لم يقل .

[ أو كذب بآياته ] الواضحة اللينة للحق المبين ، الهادية إلى  
الصراط المستقيم .

فهؤلاء ، وإن تمتعوا بالدنيا ، ونالهم نصيبهم مما كان مكتوباً لهم  
في اللوح المحفوظ — فليس ذلك بمنع عنهم شيئاً ، يتمتعون قليلاً ، ثم  
يعذبون طويلاً .

[ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ] أى : الملائكة الوكلون بقبض  
أرواحهم ، واستيفاء آجالهم .

[ قالوا ] لهم في تلك الحالة — توبيخاً وعتاباً — [ أين ما كنتم تدعون  
من دون الله ] من الأصنام والأوثان ، فقد جاء وقت الحاجة ، إن كان  
فيها منفعة لكم ، أو دفع مضرة .

[ قالوا صلوا عنا ] أى : اضحلوا وبطلوا ، وليسوا بمنع عنا من عذاب  
الله من شيء .

[ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ] مستحقين للعذاب  
المهين الدائم .

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ  
كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ  
أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنْ

فَقَات لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ [ ادخلوا في أمم ] أى : فى جملة أمم .

[ قد خلت من قبلكم من الجن والإنس ] أى : مضوا على ما مضيت  
عليه ، من الكفر والاستكبار ، فاستعق الجميع الخزى والبوار ، والخلود  
[ فى النار ] .

كلما دخلت أمة من الأمم العاتية النار [ لعنت أختها ] كما قال تعالى  
[ ويوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً ] .

[ حتى إذا ادَّارَكوا فيها جميعاً ] أى : اجتمع فى النار ، جميع أهلها ،  
من الأولين والآخرين ، والقادة ، والرؤساء ، والمقلدين الأتباع .

[ قالت أخراهم ] أى متأخروهم ، المتبعون الرؤساء [ لأولاهم ]  
أى : لرؤسائهم ، شاكين إلى الله إضلالهم بإيادهم :

ربنا هؤلاء أضلونا فآتتهم عذاباً ضعفاً من النار [ أى : عذبهم عذاباً  
مضاعفاً لأنهم أضلونا ، وزينوا لنا الأعمال الخبيثة .

[ وقالت أولاهم لأخراهم ] أى : الرؤساء ، قالوا لأتباعهم : [ فما كان  
لكم علينا من فضل ] أى : قد اشتركنا جميعاً فى الفى والضلال ، وفى فعل  
أسباب العذاب ، فأى فضل لكم علينا ؟ .

النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ  
لِاخْرَجَهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ  
تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

[ قال ] الله [ لكل ] منكم [ ضعف ] ونصيب من العذاب [ فذوقوا ]  
العذاب بما كنتم تكسبون ] .

ولكنه من العلوم ، أن عذاب الرؤساء ، وأئمة الضلال ، أبلغ وأشنع ،  
من عذاب الأتباع .

كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع .

قال تعالى [ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق  
العذاب بما كانوا يكسبون ] .

فهذه الآيات ونحوها ، دلت على أن سائر أنواع المكذبين بآيات الله ،  
مخلدون في العذاب ، مشتركون فيه وفي أصله ، وإن كانوا متفاوتين  
في مقداره ، بحسب أعمالهم ، وعنادهم ، وظلمهم ، وافترائهم ، وأن مودتهم  
التي كانت بينهم في الدنيا ، تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعة .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ

• يخبر تعالى ، عن عقاب من كذب بآياته ، فلم يؤمن بها ، مع أنها آيات بينات ، واستكبر عنها ، فلم ينقد لأحكامها ، بل كذب وتولى — أنهم آيسون من كل خير ، فلا تفتح أبواب السماء لأرواحهم ، إذا ماتوا ، وصعدت تريد العروج إلى الله ، فتستأذن ، فلا يؤذن لها .

كالم تصعد في الدنيا إلى الإيمان بالله ، ومعرفته ، ومحبته ، كذلك لا تصعد بعد الموت ، فإن الجزاء من جنس العمل .

ومفهوم الآية ، أن أرواح المؤمنين المتقادين لأمر الله ، المصدقين بآياته ، تفتح لها أبواب السماء ، حتى تعرج إلى الله ، وتصل إلى حيث أراد الله ، في العالم العلوى ، وتبهج بالقرب من ربها ، والحظوة برضوانه .

وقوله عن أهل النار [ ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل ] وهو البعير المعروف [ في سم الحياط ] أى : حتى يدخل البعير الذى هو من أكبر الحيوانات جسما ، في خرق الإبرة ، الذى هو من أضيق الأشياء .

وهذا من باب تعليق الشيء بالحال .

أى : فكما أنه محال دخول الجمل في سم الحياط ، فكذلك الكاذبون بآيات الله ، محال دخولهم الجنة . قال تعالى [ إنه من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة ومأواه النار ] .

وقال هنا [ وكذلك نجزي المجرمين ] أى : الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم .

الْحِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ  
فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا  
إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا

\* [لهم من جهنم مهاد] أى : فراش من تحتهم [ومن فوقهم غواش] أى : ظلل من العذاب ، تغشاهم .

[وكذلك نجزي الظالمين] لأنفسهم ، جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد .

\* لما ذكر تعالى عتاب العاصين الظالمين ، ذكر ثواب المطيعين فقال : [والذين آمنوا] بقلوبهم [وعملوا الصالحات] يجوارحهم ، فجمعوا بين الإيمان والعمل ، بين الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة ، بين فعل الواجبات وترك المحرمات .

ولما كان قوله (وعملوا الصالحات) لفظا عاما يشمل جميع الصالحات ، الواجبة والمستحبة ، وقد يكون بعضها غير مقدور للعبد ، قال تعالى : [لا نكلف نفسا إلا وسعها] أى : بتقدير ما تسعه طاقتها ، ولا يعسر على قدرتها ، فعليها في هذه الحال ، أن تتق الله ، بحسب استطاعتها .

وإذا عجزت عن بعض الواجبات ، التي يقدر عليها غيرها ، سقطت عنها ، كما قال تعالى :

[لا يكلف الله نفسا إلا وسعها] \* لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها \*

مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ  
الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ

ما جعل عليكم في الدين من حرج \* فاتقوا الله ما استطعتم [ .

فلا واجب مع العجز ، ولا محرم مع الضرورة .

[ أولئك ] أى : المتصفون بالإيمان والعمل الصالح [ أصحاب الجنة  
هم فيها خالدون ] أى : لا يحولون عنها ، ولا يبعثون بها بدلا ، لأنهم يرون  
فيها من أنواع اللذات ، وأصناف المشبهات ، ما تقف عنده الغايات ،  
ولا يطلب أعلى منه .

[ ونزعنا ما في صدورهم من غل ] وهذا من كرمه وإحسانه ، على أهل  
الجنة ، أن الغل الذى كان موجوداً في قلوبهم ، والتنافس الذى كان بينهم ،  
أن الله يقلعه ويزيله ، حتى يكونوا إخواناً متحابين ، وأخلاء متصافين .  
قال تعالى : [ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين ]  
ويخلق الله لهم من السكرام ، ما به يحصل لكل واحد منهم ، الفبطة  
والسرور ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم ، نعيم .  
فبهذا يأمنون من التحاسد والتباغض ، لأنه قد فقدت أسبابه .

قوله [ تجرى من تحتهم الأنهار ] أى ينفجرونها تنفجيراً ، حيث  
شاءوا ، وأين أرادوا .

إن شاءوا في خلال القصور ، أو في تلك الغرف العاليات ، أو في رياض  
الجنات ، من تحت تلك الحدائق الزاهرات .

أنهار تجرى في غير أخذود ، وخيرات ، ليس لها حد محدود .

جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا  
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

[ و ] لهذا لما رأوا ما أنعم الله عليهم وأكرمهم به [ قالوا الحمد لله  
الذى هدانا لهذا ] بأن من علينا ، وأوحى إلى قلوبنا ، فأمنت به ، وانقادت  
للأعمال الموصلة إلى هذه الدار ، وحفظ الله علينا إيماننا وأعمالنا ، حتى  
أوصلنا بها إلى هذه الدار .

فنعم الرب الكريم ، الذى ابتدأنا بالنعيم ، وأسدى من النعم الظاهرة  
والباطنة ، مالا يحصيه الحصون ، ولا يعده العادون .

[ وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ] أى : ليس فى نفوسنا قابلية  
للهدى ، لولا أنه تعالى منَّ علينا بهدايته واتباع رسله .

[ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ] أى : حين كانوا يتمتعون بالنعيم ،  
الذى أخبرت به الرسل ، وصار حق يقين لهم ، بعد أن كان علم يقين لهم —  
قالوا لقد تحققنا ، ورأينا ما وعدتنا به الرسل ، وأن جميع ما جاءوا به حق  
اليقين ، لا مصرية فيه ولا إشكال .

[ ونودوا ] تهنئة لهم ، وإكراما ، وتحية ، واحتراما .

[ أن تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا ] أى كنتم الوارثين لها ، وصارت إقطاعا  
لكم ، إذ كان إقطاع الكفار النار .

أورثتموها [ بما كنتم تعملون ] .

قال بعض السلف : أهل الجنة نجوا من النار بعفو الله ، وأدخلوا الجنة  
برحمة الله ، واقتسموا المنازل ، وورثوها ، بالأعمال الصالحة ، وهى من رحمته ،  
بل من أعلى أنواع رحمته .

﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٦﴾

\* يقول تعالى — بعد ما ذكر استقرار كل من الفريقين في الدارين، ووجدنا ما أخبرت به الرسل، ونطقت به الكتب، من الثواب والعقاب، أن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا :

[ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ] حين وعدنا على الإيمان والعمل الصالح، الجنة، فأدخلناها، ورأينا ما وصفه لنا .

[ فهل وجدتم ما وعدكم ربكم ] على الكفر والمعاصي [ حقاً ] .

[ قالوا : نعم ] قد وجدناه حقاً ، فبين للخلق كلهم ، بياناً لاشك فيه ، صدق وعد الله ، ومن أصدق من الله قيلاً ، وذهبت عنهم الشكوك والشبه ، وصار الأمر حق اليقين .

وفرح المؤمنون بوعد الله ، واعتبطوا ، وأيس الكفار من الخير ، وأقروا على أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب .

[ فأذن مؤذن بينهم ] أى : بين أهل النار وأهل الجنة ، بأن قال [ أن لعنة الله ] أى : بعده وإقصاؤه ، عن كل خير [ على الظالمين ] إذ فتح الله لهم أبواب رحمته ، فصدفوا أنفسهم عنها ، ظالماً ، وصدوا عن سبيل الله بأنفسهم ، وصدوا غيرهم ، فضلوا وأضلوا .

وَيَذَنَّهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسَيِّئِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ

والله تعالى يريد أن تكون مستقيمة ، ويعتدل سير السالكين إليه .  
[و] هؤلاء [ يبعثونها عوجاً ] أى : منحرفة صادة عن سواء السبيل .  
[ وهم بالآخرة كافرون ] .

وهذا الذى أوجب لهم الانحراف عن الصراط ، والإقبال على شهوات  
النفوس المحرمة ، عدم إيمانهم بالبعث ، وعدم خوفهم من العقاب ،  
ورجائهم للثواب .

ومفهوم هذا ، أن رحمة الله على المؤمنين ، وبره شامل لهم ، وإحسانه ،  
متواتر عليهم .

\* أى : وبين أصحاب الجنة ، وأصحاب النار ، حجاب يقال له « الأعراف »  
لا من الجنة ، ولا من النار ، يشرف على الدارين ، وينظر من عليه ،  
حال الفريقين .

وعلى هذا الحجاب ، رجال يعرفون كلا من أهل الجنة والنار ، بسيماهم ،  
أى : علاماتهم ، التى بها يعرفون ويميزون .

فإذا نظروا إلى أهل الجنة ، نادوهم [ أن سلام عليكم ] أى : يحيونهم ،  
ويسألون عليهم .

وهم — إلى الآن — لم يدخلوا الجنة ، ولكنهم يطعمون فى دخولها  
ولم يجعل الله الطمع فى قلوبهم ، إلا لما يريد بهم من كرامته .

[ وإذا صرفت أبصارهم ، تلقاء أصحاب النار ] ورأوا منظرًا شديماً ،  
وهولا فظيماً [ قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ] .

يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ

فأهل الجنة — إذا رآهم أهل الأعراف — يطمعون أن يكونوا معهم في الجنة ، ويحيونهم ، ويسلمون عليهم .

وعند انصراف أبصارهم ، بغير اختيارهم ، لأهل النار ، يستجيرون من حالهم هذا ، على وجه العموم .

ثم ذكر الخصوص بعد العموم فقال :

[ ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ] وهم من أهل النار ، وقد كانوا في الدنيا لهم أبهة وشرف ، وأموال ، وأولاد .

فقال لهم أصحاب الأعراف — حين رأوهم منفردين في العذاب ، بلا ناصر ولا مغيث :

[ ما أغنى عنكم جمعكم ] في الدنيا ، الذي كنتم تستدفعون به المكاره ، وتوسلون به إلى مطالبكم في الدنيا ، فاليوم اضمحل ، ولم يغن عنكم شيئا .

وكذلك ، أى شيء نفعكم استكباركم على الحق ، وعلى ما جاء به ، وعلى من اتبعه .

ثم أشاروا لهم ، إلى أناس من أهل الجنة ، كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار ، فقالوا لأهل النار :

تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ  
أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴿٤٨﴾

[ أهؤلاء ] الذين أدخلهم الله الجنة [ الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ]  
احتقاراً لهم ، وازدراء ، وإعجاباً بأنفسكم ، قد حننتم في أيمانكم ، وبدا لكم  
من الله ، ما لم يكن لكم في حساب .

[ ادخلوا الجنة ] بما كنتم تعملون ، أى : قيل لهؤلاء الضعفاء ، إكراماً  
واحتراماً : ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة .

[ لاخوف عليكم ] فيما يستقبل من المكافأة [ ولا أنتم تحزنون ] على  
ما مضى ، بل آمنون مطمئنون ، فرحون بكل خير .

وهذا كقوله تعالى [ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا  
يضحكون \* وإذا مروا بهم يتغامزون ] إلى أن قال [ فاليوم الذين آمنوا من  
الكفار يضحكون \* على الأرائك ينظرون ] .

واختلف أهل العلم والمفسرون ، من هم أصحاب الأعراف ،  
وما أعمالهم ؟ .

والصحيح من ذلك ، أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ،  
فلا رجعت سيئاتهم ، فدخلوا النار ، ولا رجعت حسناتهم ، فدخلوا الجنة  
فصاروا في الأعراف ما شاء الله .

ثم إن الله تعالى يدخلهم — برحمته — الجنة ، فإن رحمته تسبق وتغلب  
غضبه ، ورحمته وسعت كل شيء .

﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنَسُّهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا

\* أي : ينادى أصحاب النار أصحاب الجنة ، حين يبلغ منهم العذاب كل مبلغ ، وحين يسهم الجوع المفرط ، والظما الموجع ، يستغيثون بهم ، فيقولون :

[ أفوضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ] من الطعام .  
فأجابهم أهل الجنة بقولهم : [ إن الله حرمهما ] أي : ماء الجنة وطعامها [ على الكافرين ] .

وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله ، واتخاذهم دينهم الذي أمروا أن يستقيموا عليه ، ووعدوا بالجزاء الجزيل عليه .

[ لهواً ولعباً ] أي : لهت قلوبهم ، وأعرضت عنه ، ولعبوا ، واتخذوه سخرياً .

أو أنهم جعلوا بدل دينهم ، اللهو واللعب ، واستعاضوا بذلك عن الدين القيم .

[ وغرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ] بزينة وزخرفها ، وكثرة دعاتها ، فاطمأنوا إليها ، ورضوا بها ، وفرحوا ، وأعرضوا عن الآخرة ونسوها .

[ فاليوم ننسهم ] أي : نتركهم في العذاب [ كما نسوا لقاء يومهم هذا ] فكانهم لم يخلقوا إلا للدنيا ، وليس أمامهم عرض ولا جزاء .

يُحَدِّثُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْتَهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى  
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ  
يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا

[وما كانوا بآياتنا يحجدون] والحال أن جحودهم هذا ، لاعتقاصهم قصور  
في آيات الله وبيناته ، بل قد [جئناهم بكتاب فصلناه] أى بينا فيه جميع  
المطالب ، التى يحتاج إليها الخلق [على علم] من الله بأحوال العباد فى كل زمان  
ومكان ، وما يصلح لهم وما لا يصلح .

ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور ، فيجهل بعض الأحوال ، فيحكم  
حكماً غير مناسب .

بل تفصيل من أحاط علمه بكل شئ ، ووسعت رحمته كل شئ .  
[هدى ورحمة لقوم يؤمنون] أى : تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب ،  
الهداية من الضلال ، وبيان الحق والباطل ، والحق والرشد .  
ويحصل أيضاً لهم به الرحمة ، وهى : الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة  
فينتفى عنهم بذلك ، الضلال والشقاء .

وهؤلاء الذين حق عليهم العذاب ، لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم ،  
ولا انقادوا لأوامره ونواهيه ، فلم يبق فيهم حيلة ، إلا استحقاقهم أن يعزل  
عنهم ، ما أخبر به القرآن .

ولهذا قال : [هل ينظرون إلا تأويله] أى : وقوع ما أخبر به ، كما  
قال يوسف عليه السلام حين وقعت رؤياه : [هذا تأويل رؤياى من قبل] .  
[يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل] متقدمين متأسئين على

بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ  
الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا  
يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

ما مضى ، متشفعين فى مغفرة ذنوبهم . مقررین بما أخبرت به الرسل :  
[ قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد ]  
إلى الدنيا ( فنعمل غير الذى كننا نعمل ) وقد فات الوقت عن الرجوع إلى  
الدنيا .

( فما تنفعهم شفاعة الشافعين ) .

وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا ، ليعملوا غير عملهم ، كذب منهم ،  
مقصودهم به ، دفع ما حل بهم ، قال تعالى : [ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه .  
وإنهم لكاذبون ] .

[ قد خسروا أنفسهم ] حين فوتوها الأرباح ، وسلکوا بها  
سبيل الهلاك .

وليس ذلك كخسران الأموال والأثاث ، أو الأولاد ، إنما هذا  
خسران ، لا جبران لمصابه .

[ وضل عنهم ما كانوا يفترون ] فى الدنيا ، مما تمنىهم أنفسهم به ،  
ويعمد به الشيطان .

قدموا على ما لم يكن لهم فى حساب ، وتبين لهم باطلهم وضلالهم ،  
وصدق ما جاءتهم به الرسل .

﴿إِنْ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ

\* يقول تعالى ، مبيناً أنه الرب المعبود وحده لا شريك له [ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض ] وما فيهما ، على عظمهما وسعتهما ، وإحكامهما ، وإتقانها ، وبديع خلقهما .

[ فى ستة أيام ] أولها : يوم الأحد ، وآخرها ، يوم الجمعة .

فلما قضاها ، وأودع فيهما من أمره ما أودع [ استوى ] تبارك وتعالى [ على العرش ] العظيم ، الذى يسع السموات والأرض ، وما فيهما ، وما بينهما .

استوى ، استواء يليق بجلاله ، وعظمته ، وسلطانه .

فاستوى على العرش ، واحتوى على الممالك ، وأجرى عليهم أحكامه الكونية ، وأحكامه الدينية ، ولهذا قال :

[ يغشى الليل ] المظلم [ النهار ] المضيء ، فيظلم ما على وجه الأرض ، ويسكن الآدميون ، وتأنى المخلوقات إلى مساكنها ، ويستريحون من التعب ، والذهاب والإياب ، الذى حصل لهم فى النهار .

[ يطلبه حثيثاً ] كلما جاء الليل ، ذهب النهار ؛ وكلما جاء النهار ، ذهب الليل ، وهكذا أبداً ، على الدوام ، حتى يطوى الله هذا العالم ، وينقل العباد إلى دار غير هذه الدار .

[ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ] أى بتسخيره وتديبره ، الدال على ماله من أوصاف السكال .

## وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾

نخلقها وعظمها ، دال على كمال قدرته .  
وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان ، دال على كمال حكمته .  
وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية ومادونها ، دال على سعة رحمته  
وعلمه ، وأنه الإله الحق ، الذى لا تنبغى العبادة إلا له .  
[ ألا له الخلق والأمر ] أى : له الخلق الذى صدرت عنه جميع المخلوقات  
علوياً ، وسفلياً ، أعيانها ، وأوصافها ، وأفعالها ، والأمر المتضمن  
للشرائع والنبوات .

فأخلق : يتضمن أحكامه الكونية القدرية .  
والأمر : يتضمن أحكامه الدينية الشرعية .  
وثم أحكام الجزاء ، وذلك يكون فى دار البقاء .  
[ تبارك الله ] أى : عظم وتعالى ، وكثر خيره وإحسانه .  
فتبارك فى نفسه ، لعظمة أوصافه وكملها .  
وبارك فى غيره بإحلال الخير الجزيل ، والبر الكثير .  
فكل بركة فى الكون ، فمن آثار رحمته ، ولهذا قال : [ تبارك الله  
رب العالمين ] .

ولما ذكر من عظمت وجلاله ، ما يدل ذوى الأبواب على أنه وحده ،  
للعبود القصود فى الموائج كلها ، أمر بما يترتب على ذلك فقال : ادعوا  
ربكم تضرعاً ( إلى ) من المحسنين .

﴿٥٥﴾ اَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ  
الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ  
خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

\* الدعاء : يدخل فيه ، دعاء المسألة ، ودعاء العبادة .

فأمر بدعائه [ تضرعاً ] أى : إلحاحاً فى المسألة ، ودعواً بآ فى العبادة .

[ وخفية ] أى : لاجهر أو علانية ، يخاف منه الرياء ، بل خفية ،  
وإخلاصاً لله تعالى .

[ إنه لا يحب المعتدين ] أى : المتجاوزين للحد فى كل الأمور .

ومن الاعتداء : كون العبد يسأل الله مسائل ، لاتصلح له ، أو ينقطع  
فى السؤال ، أو يبالغ فى رفع صوته بالدعاء ، فكل هذا داخل فى الاعتداء  
المبهى عنه .

[ ولا تفسدوا فى الأرض ] بعمل المعاصى [ بعد إصلاحها ] بالطاعات ،  
فإن المعاصى ، تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق ، كما قال تعالى : ( ظهر  
الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ) كما أن الطاعات ، تصلح بها ،  
الأخلاق ، والأعمال ، والأرزاق ، وأموال الدنيا والآخرة .

[ وادعوه خوفاً وطمعاً ] أى : خوفاً من عقابه ، وطمعاً فى ثوابه .

طمعاً فى قبولها ، وخوفاً من ردها ، لا دعاء عبد مدلل على ربه ، قد  
أعجبتة نفسه ، ونزل نفسه فوق منزلته ، أو دعاء من هو غافل لاه .

وحاصل ما ذكر الله من آداب الدعاء : الإخلاص فيه لله وحده ، لأن  
ذلك يتضمنه الخفية .

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ  
إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا

وإخفاؤه وإسراؤه ، أن يكون القلب خائفاً طامعاً ، لا غافلاً ، ولا آمناً  
ولا غير مبال بالإجابة ، وهذا من إحسان الدعاء فإن الإحسان في كل  
عبادة ، بذل الجهد فيها ، وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه ،  
ولهذا قال :

[ إن رحمة الله قريب من المحسنين ] في عبادة الله ، المحسنين إلى  
عباد الله .

فكلما كان العبد أكثر إحساناً ، كان أقرب إلى رحمة ربه ، وكان  
ربه قريباً منه برحمته .

وفي هذا من الحث على الإحسان ، ما لا يخفى .

\* بين تعالى ، أثراً من آثار قدرته ، ونفحة من نفحات رحمته فقال :

[ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ] أى : الرياح المبشرات  
بالغيث ، التي تثيره بإذن الله ، من الأرض ، فيستبشر الخلق برحمة الله ،  
وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله .

[ حتى إذا أقلت ] الرياح [ سحباً ثقالاً ] قد أثاره بعضها ، وألقته  
ريح أخرى ، وألقته ريح أخرى [ سقناه لبلد ميت ] قد كادت تهلك  
حيواناته ، وكاد أهله أن يئسوا من رحمة الله .

[ فأنزلنا به ] أى : بذلك البلد الميت [ الماء ] الغزير من ذلك السحاب  
وسخر الله له ريحاً تدره ، وريحاً تفرقه بإذن الله .

بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾  
وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا  
نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

[فأخرجنا به من كل الثمرات] فأصبحوا مستبشرين برحمة الله ، راتعين  
بمخير الله .

وقوله [كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون] أى : كما أحيينا الأرض  
بعد موتها بالنبات ، كذلك نخرج الموتى من قبورهم ، بعد ما كانوا أرفاتا  
متمزقين .

وهذا استدلال واضح ، فإنه لا فرق بين الأمرين .  
فنكر البعث ، استبعاداً له — مع أنه يرى ما هو نظيره — من باب  
العناد ، وإنكار المحسوسات .

وفي هذا ، الحث على التذكر والتفكير في آلاء الله ، والنظر إليها بعين  
الاعتبار والاستدلال ، لا بعين الغفلة والإهمال .

ثم ذكر تفاوت الأراضى ، التى ينزل عليها المطر فقال :  
[والبلد الطيب] أى : طيب التربة والمادة ، إذا نزل عليه مطر  
[يخرج نباته] الذى هو مستعد له [بإذن ربه] أى : بإرادة الله ومشيئته ،  
فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء ، حتى يأذن الله بذلك .  
[والذى خبث] من الأراضى [لا يخرج إلا نكداً] أى : إلا نباتا  
خاساً لا تنفع فيه ولا بركة .

[كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون] أى : ننوعها ونبينها ونضرب  
فيها الأمثال ونسوقها لقوم يشكرون الله بالاعتراف بنعمه ، والإقرار بها ،  
وصرفها في مرضاة الله .

فهم الذين ينتفعون بما فصل الله في كتابه ، من الأحكام ، والمطالب الإلهية لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم .

فيتلقونها مفتقرين إليها فرحين بها ، فيقدرونها ، ويتأملونها ، فيبين لهم من معانيها ، بحسب استعدادهم .

وهذا مثال للقلوب ، حين ينزل عليها الوحي الذي هو مادة الحياة ، كما أن الغيث ، مادة الحيا<sup>(١)</sup> .

فإن القلوب الطيبة ، حين يجيئها الوحي ، تقبله وتعلمه ، وتنبت بحسب ، طيب أصلها ، وحسن عنصرها .

وأما القلوب الخبيثة ، التي لا خير فيها ، فإذا جاءها الوحي ، لم يجد محلاً قابلاً ، بل يجدها غافلة معرضة ، أو معارضة ، فيكون كالمنطر الذي يمر على السباخ والرمال والصخور ، فلا يؤثر فيها شيئاً ، وهذا كقوله تعالى [ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ] الآيات .

---

(١) الحيا . أى : المطر .

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٥٩)  
 قَالَ أُمَلَأْ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ

\* لما ذكر تعالى ، من أدلة توحيده ، جملة صالحة ، أيد ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى توحيده ، مع أهمهم المنكرين لذلك . وكيف أيد الله أهل التوحيد ، وأهلك من عاندوا ولم ينقد لهم . وكيف اتفقت دعوة المرسلين على دين واحد ، ومعتقد واحد . فقال عن نوح — أول المرسلين — : [ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ] يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، حين كانوا يعبدون الأوثان . [ فقال ] لهم : [ يا قوم اعبدوا الله ] أى : وحده [ مالكم من إله غيره ] لأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور ، وما سواه مخلوق مدبر ، ليس له من الأمر شيء . ثم خوفهم إن لم يطيعوه عذاب الله فقال : [ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ] .

وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام ، وشفقته عليهم ، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي ، والشقاء السرمدي ، كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم . فلما قال لهم هذه المقالة ، ردوا عليه أقبح رد . [ قال الملأ من قومه ] أى : الرؤساء الأغنياء المتبوعون الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحق ، وعدم انقيادهم للرسول .

لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبَلْغُكُمْ  
رِسَالَتِي رَّبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾  
أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ

[ إنا لنراك في ضلال مبين ] فلم يكفهم — قبهم الله — أنهم لم ينقادوا  
له ، بل استكبروا عن الانقياد له ، وقدحوا فيه أعظم قدح ، ونسبوه  
إلى الضلال .

ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ، ضلالا مبيناً ، واضحا  
لكل أحد .

وهذا من أعظم أنواع الكابرة ، التي لا تروج على أضعف الناس عقلا .  
وإنما هذا الوصف ، منطبق على قوم نوح ، الذين جاءوا إلى أصنام ،  
قد صوروها ونحتوها بأيديهم ، من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر ،  
ولا تغني عنهم شيئا .

فنزلوها منزلة فاطر السموات ، وصرفوا لها ما أمكنهم ، من أنواع  
القربات .

فلولا أن لهم أذهانا تقوم بها حجة الله عليهم لحكم عليهم بأن المجانين  
أهدى منهم ، بل هم أهدى منهم وأعتل .

فرد نوح عليهم ردا لطيفا ، وترقق لهم ، لعلمهم ينقادون له فقال :

[ يا قوم ليس بي ضلالة ] أى : لست ضالا في مسألة من المسائل ،  
بوجه من الوجوه ، وإنما أنا هاد مهتد .

وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ

بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه ، أولى العزم من المرسلين ، أعلى أنواع الهدايات وأكملها ، وأتمها وهي هداية الرسالة التامة الكاملة ، ولهذا قال :

[ولكني رسول من رب العالمين] أى : ربى وربكم ورب جميع الخلق ، بأنواع التربية ، الذى من أعظم تربيته ، أن أرسل إلى عباده رسلاً ، تأمرهم بالأعمال الصالحة ، والأخلاق الفاضلة ، والعقائد الحسنة وتنهاهم عن أضدادها ولهذا قال :

[أبلفكم رسالات ربى وأنصح لكم] أى : وظيفتى تبليغكم ، ببيان توحيده ، وأوامره ، ونواهيه ، على وجه النصيحة لكم ، والشفقة عليكم .  
[وأعلم من الله ما لا تعلمون] فالذى يتعين أن تطيعونى وتنقادوا لأمرى إن كنتم تعلمون .

[أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم] أى : كيف تعجبون من حالة لا ينبغى العجب منها ، وهو : أن جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة ، على يد رجل منكم ، تعرفون حقيقته وصدقه وحاله ؟ !!

فهذه الحال من عناية الله بكم وبره وإحسانه الذى يتلقى بالقبول والشكر .  
وقوله : [لينذركم ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون] أى لينذركم العذاب الأليم ، وتفعلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى الله ، ظاهراً وباطناً ، وبذلك تحصل عليهم وتنزل رحمة الله الواسعة .

فلم يفد فيهم ، ولا نجح [فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك] أى : السفينة التى أمر الله نوحاً عليه السلام بصنعها ، وأوحى إليه أن يحمل

مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا  
قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

وَالْإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ  
مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ  
إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَقَوْمِ

من كل صنف من الحيوانات ، زوجين اثنين وأهله ، ومن آمن معه ،  
فجعلهم فيها ونجّاهم الله بها .

[ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين ] عن الهدى ،  
أبصروا الحق ، وأراهم الله — على يد نوح — من الآيات البينات ، ما به  
يؤمن أولوا الأبالب ، فسخروا منه ، واستهتروا به ، وكفروا .

\* أى : [ و ] أرسلنا [ إلى عاد ] الأولى ، الذين كانوا فى أرض اليمين .  
[ أخاهم ] فى النسب [ هودا ] عليه السلام ، يدعوهم إلى التوحيد ،  
وينهاهم عن الشرك والطغيان فى الأرض .

[ قال ] لهم : [ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ]  
سخطه وعذابه ، إن أقمت على ما أنتم عليه ، فلم يستجيبوا ولا اتقوا .

[ قال الملأ الذين كفروا من قومه ] رادين لدعوته ، قادحين فى رأيه .

[ إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ] أى : ما نراك إلا سفيهاً

غير رشيد .

ويغلب على ظننا ، أنك من جملة الكاذبين .

لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أَبْلَغُكُمْ  
رِسَالَتِي رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ  
ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ

وقد انقابت عليهم الحقيقة ، واستحكم عمامهم ، حيث ذموا نبيهم ، عليه  
السلام ، بما هم متصفون به ، وهو أبعد الناس عنه ، فإنهم السفهاء حقاً ،  
الكاذبون .

وأى : سفه أعظم ممن قابل أحق الحق ، بالرد والإنكار ، وتكبر عن  
الانقياد للمرشدين والنصحاء ، وانقاد قلبه وقالبه ، لكل شيطان مرید ،  
ووضع العبادة في غير موضعها ، فعبد من لا يغنى عنه شيئاً من الأشجار ،  
والأحجار ؟ !!

وأى : كذب ، أبلغ من كذب ، من نسب هذه الأمور إلى  
الله تعالى ؟ !!  
[ قال يا قوم ليس بي سفاهة ] بوجه من الوجوه ، بل هو الرسول ،  
المرشد الرشيد .

[ ولكني رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم  
ناصر أمين ] .

فالواجب عليكم أن تلتقوا ذلك بالقبول والانقياد ، وطاعة رب العباد .  
[ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ] أى كيف  
تعجبون من أمر ، لا يتعجب منه ، وهو أن الله أرسل إليكم ، رجلاً منكم  
تعرفون أمره ، بذكركم بما فيه مصالحكم ، ويحسكم على ما فيه النفع لكم ،  
فتمعجتم من ذلك تعجب المنكرين .

خَلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَاذْكُرُوا  
الْآلَاءَ الَّتِي لَكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ

[واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح] أى : واحمدوا ربكم  
واشكروه ، إذ مكن لكم فى الأرض ، وجعلكم تخلفون الأمم الهالكة ،  
الذين كذبوا الرسل ، فأهلكهم الله وأبقاكم ، لينظر كيف تعملون .  
واحذروا أن تقيموا على التكذيب ، كما أقاموا ، فيصيبكم  
ما أصابهم .

[و] اذكروا نعمة الله عليكم ، التى خصكم بها ، وهى أن [زادكم  
فى الخلق بسطة] فى القوة ، وكبر الأجسام ، وشدة البطش .  
[فاذكروا آلاء الله] أى : نعمه الواسعة ، وأياديه المتكررة .  
[للكم] إذا ذكرتموها بشكرها ، وأداء حقها [تفلحون]  
أى : تفوزون بالمطلوب ، وتنجون من المهووب .  
فوعظهم ، وذكرهم ، وأمرهم بالتوحيد ، وذكر لهم وصف نفسه ، وأنه  
ناصر أمين .

وحذرهم أن يأخذهم الله كما أخذ من قبلهم ، وذكرهم ، نعم الله عليهم  
وإمداد الرزاق إليهم ، فلم ينقادوا ، ولا استجابوا .  
[قالوا] متعجبين من دعوته ، ونخبين له أنهم من المحال أن  
يطيعوه .

[أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا] .

وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ  
الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ

---

قبحهم الله ، جعلوا الأمر الذي هو أوجب الواجبات ، وأكل الأمور  
من الأمور التي يعارضون بها ، ما وجدوا عليه آباءهم

فقدموا ما عليه الآباء الضالون ، من الشرك ، وعبادة الأصنام ، على  
مادعت إليه الرسل ، من توحيد الله وحده لا شريك له ، وكذبوا نبيهم ،  
وقالوا : [ ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ] وهذا الاستفتاح منهم  
على أنفسهم .

( قال ) لهم هود عليه السلام : [ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ]  
أى : لا بد من وقوعه ، فإنه قد انعقدت أسبابه ، وحان وقت الهلاك .

[ أتجادلوننى فى أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ] أى : كيف تجادلون على  
أمور ، لا حقائق لها ، وعلى أصنام سميتوها آلهة ، وهى لاشئ من الإلهية  
فيها ، ولا مثقال ذرة و [ ما أنزل الله بها من سلطان ] فإنها لو كانت  
صحيحة ، لأنزل الله بها سلطانا .

فعدم إنزاله له ، دليل على بطلانها ، فإنه ما من مطلوب ومقصود  
وخصوصاً الأمور السكبار - إلا وقد بين الله فيها من الحجج ، ما يدل  
عليها ، ومن السلطان ، ما لا تخفى معه .

[ فانتظروا ] ما يقع بكم من العقاب ، الذى وعدتكم به [ إني معكم من  
المنتظرين ] وفرق بين الانتظرين ، انتظار من يخشى وقوع العقاب ، ومن  
يرجو من الله النصر والثواب ، ولهذا فتح الله بين الفريقين فقال :

أَتَجِدُلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا  
مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْتَظِرُونَ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ  
وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا  
مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

[فأنجيناه] أى : هودا [والذين] آمنوا [معه برحمة منا] فإنه الذى  
هداهم للإيمان ، وجعل إيمانهم سبباً ينالون به رحمته فأنجاهم برحمته .

[وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا] أى : استأصلناهم بالعذاب الشديد  
الذى لم يبق منهم أحداً ، وسلط الله عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شيء  
أنت عليه ، إلا جعلته كالرميم .

فأهلكوا فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم فانظر كيف كان عاقبة المنذرين  
الذين أقيمت عليهم الحجج ، فلم ينقادوا لها ، وأمروا بالإيمان ، فلم يؤمنوا  
فكان عاقبتهم الهلاك ، والخزى ، والفضيحة .

[وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عادا كفروا ربهم  
ألا بعداً لعاد قوم هود] .

وقال هنا [وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين]  
بوجه من الوجوه ، بل وصفهم التكذيب والعناد ، ونعتهم ، الكبير  
والفساد .

﴿وَالِىَ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ

\* أى ( و ) أرسلنا ( إلى ثمود ) القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحجر وما حوله ، من أرض الحجاز ، وجزيرة العرب .  
أرسل الله إليهم [ أخاهم صالحاً ] نبيا يدعوهم ، إلى الإيمان والتوحيد  
وبيناهم عن الشرك والتنديد .

[ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ] دعوته عليه الصلاة والسلام  
من جنس دعوة إخوانه من المرسلين — الأمر<sup>(١)</sup> بعبادة الله ، وبيان أنه  
ليس للعباد ، إله غير الله .

[ قد جاءكم بينة من ربكم ] أى خارق من خوارق العادات ، التى  
لا تكون إلا آية سماوية ، لا يقدر الناس عليها .

ثم فسرها بقوله [ هذه ناقة الله لكم آية ] أى : هذه ناقة شريفة فاضلة  
لإضافتها إلى الله تعالى ، إضافة تشريف ، لكم فيها آية عظيمة .

وقد ذكر وجه الآية فى قوله [ لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ] .  
وكان عندهم بئر كبيرة ، وهى المعروفة ببئر الناقة ، يتناوبونها ، هم  
والناقة .

للناقة يوم تشربها ، ويشربون اللبن من ضرعها ، ولهم يوم ، يردونها ،  
وتصدر الناقة عنهم .

---

(١) قوله ( الأمر ) خبر للمبتدأ الذى هو ( دعوته ) .

لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ  
فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ  
بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا  
وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَ اللَّهِ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ

وقال لهم نبيهم صالح عليه السلام [ فذروها تأكل في أرض الله ] فلا  
عليكم من مثوتها شيء .

[ ولا تمسوها بسوء ] أى : بقر أو غيره ، [ فياخذكم عذاب أليم ] .  
واذكروا [ إذ جعلكم خلفاء ] فى الأرض تتمتعون بها وتدركون  
مطالبكم [ من بعد عاد ] الذين أهلكهم الله ، وجعلكم خلفاء من بعدهم .  
[ وبوأكم فى الأرض ] أى : مكن لكم فيها ، وسهل لكم الأسباب  
الموصلة إلى ما تريدون وتبتغون .

[ تتخذون من سهولها قصورا ] أى : من الأراضى السهلة ، التى  
ليست بجبال .

[ وتنتحون الجبال بيوتا ] كما هو مشاهد إلى الآن ، من آثارهم  
التى فى الجبال ، من المساكن والحجر ونحوها ، وهى باقية ، مابقيت الجبال .  
[ فاذكروا آلاء الله ] أى : نعمه ، وما خولكم من الفضل  
والرزق والقوة .

[ ولا تعموا فى الأرض مفسدين ] أى : لا تخربوا فى الأرض ، بالفساد

مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ  
اسْتَضَعُّوْا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَاحِبًا مُّرْسَلًا مِّن رَّبِّهِ  
قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا

والمعاصي ، فإن المعاصي ، تدع الديار العامرة ، بلاقع <sup>(١)</sup> وقد أخلت ديارهم  
منهم ، وأبقيت مساكنهم ، موحشة بدمهم .

[ قال الملأ الذين استكبروا من قومه ] أى : الرؤساء والأشراف ،  
الذين تكبروا عن الحق .

[ للذين استضعفوا ] ولما كان المستضعفون ، ليسوا كلهم مؤمنين ،  
قالوا : [ لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ] .

أى : أهو صادق أم كاذب ؟ .

فقال المستضعفون : [ إنا بما أرسل به مؤمنون ] من توحيد الله ،  
والخير عنه ، وأمره ونهيهِ .

[ قال الذين استكبروا : إنا بالذى آمنتم به كافرون ] حلمهم الكبير  
على أن لا ينقادوا للحق ، الذى انقاد له الضعفاء .

( ١ ) بلاقع . أى : لاشئ فيها من نبات ولا إنسان . ولا من الحيوانات

التي ينتفع من ألبانها وأوبارها وأصوافها وركوبها .

وفى الحديث ( اليمين الفاجرة تذر الديار بلاقع ) أى : خراباً مقفرة

من كل ما ينتفع به .

بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَفَرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقِّرُوا النَّاقَةَ وَعَتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ  
وَقَالُوا يُصْلِحُ آثِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾  
فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ  
وَقَالَ يَقُومِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ

---

[ فعقروا الناقة ] التى توعدهم إن مسوها بسوء ، أن يصيبهم عذاب أليم .  
[ وعتوا عن أمر ربهم ] أى : قسوا عنه ، واستكبروا عن أمره الذى  
من عتاه عنه ، أذاقه العذاب الشديد .

لا جرم ، أحل الله بهم من النكال ، ما لم يحل بغيرهم .  
[ وقالوا ] مع هذه الأفعال ، متجربين ، على الله ، معجزين له ، غير  
مبالين بما فعلوا ، بل مفتخرين بها :

[ يا صالح اتنا بما تعدنا ] من العذاب [ إن كنت من المرسلين ] .  
فقال : تتمعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب .  
[ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ] على ركبهم ، قد أبادهم  
الله ، وقطع دابرهم .

[ فتولى عنهم ] صالح عليه السلام ، حين أحل الله بهم العذاب .  
[ وقال ] مخاطباً لهم ، توبيخاً وعتاباً ، بعد ما أهلكهم الله :

[ يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ] أى : جميع ما أرسلى  
الله به إليكم ، قد أبلغتكم به ، وحرصت على هدايتكم ، واجتهدت  
فى سلوككم الصراط المستقيم ، والدين القويم .

## لَا تُجِبُونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾

[ولكن لا تجوبون الناصحين] بل رددتم قول النصحاء ، وأطعتم كل شيطان رجيم .

واعلم أن كثيراً من المفسرين يذكرون في هذه القصة ، أن الناقة قد خرجت من صخرة صماء ملساء ، اقترحوها على صالح ، وأنها تمنخفض تمنخفض الحامل ، فخرجت الناقة ، وهم ينظرون ، وأن لها فصيلاً حين عقروها ، رعى ثلاث رغيات ، وانفلق له الجبل ، ودخل فيه .

وأن صالحاً عليه السلام قال لهم : آية نزول العذاب بكم ، أن تصبحوا في اليوم الأول من الأيام الثلاثة ووجوهكم مصفرة ، واليوم الثاني : محمرة ، والثالث : مسودة . فكان كما قال .

هذا من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب الله ، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها ، بوجه من الوجوه .

بل لو كانت صحيحة ، لذكرها الله تعالى ، لأن فيها من العجائب والعبر والآيات ، ما لا يهمله تعالى ، ويدع ذكره ، حتى يأتي من طريق من لا يوثق بنقله .

بل القرآن يسكذب بعض هذه المذكورات ، فإن صالحاً قال لهم [تتمتعوا في داركم ثلاثة أيام] أي : تنعموا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جداً ، فإنه ليس لسكم من المتاع واللذة ، سوى هذا .

وأي لذة وتمتع ، لمن وعدهم نبيهم وقوع العذاب ، وذكر لهم وقوع مقدماته ، فوقعت يوماً فيوماً ، على وجه يعمهم ويشملهم لأن احمرار وجوههم واصفرارها واسودادها من العذاب .

﴿وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ  
بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً

هل هذا إلا مناقض للقرآن ، ومضاده !!؟ .

فالقرآن ، فيه الكفاية والهداية ، عن ما سواه .

نعم لو صح شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما لا يناقض  
كتاب الله ، فعلى الرأس والعين ، وهو مما أمر القرآن باتباعه .  
[ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ] .

وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية ، ولوعلى  
تجويز الرواية عنهم ، بالأمور التي لا يجزم بكذبها ، فإن معاني كتاب الله ،  
يقينية ، وتلك أمور ، لا تصدق ولا تكذب ، فلا يمكن اتفاقهما .

\* أى : [ و ] اذكر عبدنا [ لو طاً ] عليه الصلاة والسلام ، إذ أرسلناه  
إلى قومه ، يأمرهم بعبادة الله وحده ، وينهاهم عن الفاحشة ، التي ما سبقهم  
بها أحد من العالمين .

[ قال أتأتون الفاحشة ] أى : الخصلة التي بلغت — فى المظم  
والشناعة — إلى أن استغرقت أنواع الفحش .

[ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ] فكونها فاحشة من أشنع  
الأشياء ، وكونهم ابتدعوها ، وابتكروها ، وسنوها لمن بعدهم ، من أشنع  
ما يكون أيضاً .

ثم بينها بقوله : [ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ]  
أى : كيف تذكرون النساء ، التي خلقهن الله لكم ، وفيهن المستمتع الموافق

مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ مِّنْ قَوْمٍ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ  
إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾  
فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا  
عَلَيْهِمْ مَّطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

للشهوة والبطرة ، وتقبلون على أدبار الرجال ، التي هي غاية ما يكون في الشناعة  
والخبث ، وهي تخرج منه الأتقان والأخبار ، التي يستحي من ذكرها  
فضلا عن ملامستها وقربها .

[ بل أنتم قوم مسرفون ] أى : متجاوزون لما حده الله متجربون  
على محارمه .

[ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس  
يتطهرون ] أى : يتنزهون عن فعل الفاحشة .

[ وما تقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ] .

[ فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ] أى : الباقيين المعذنين .  
أمره الله أن يسرى بأهله ليلا ، فإن العذاب مصيب قومه .  
فسرى بهم ، إلا امرأته أصابها ما أصابهم .

[ وأمطرنا عليهم مطرا ] أى : حجارة حارة شديدة ، من سجيل ،  
وجعل الله عاليها سافلها .

[ فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ] الهلاك والخزى الدائم .

﴿١٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْنَؤُمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ  
مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا  
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا  
فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾  
وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن

\* أى : [ و ] أرسلنا [ إلى مدين ] القبيلة المعروفة [ أخاهم ] فى النسب  
[ شعيباً ] يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ويأمرهم بإيفاء  
المكيال والميزان : وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم ، وأن لا يفسدوا فى الأرض  
مفسدين ، بالإكثار من عمل المعاصى .

ولهذا قال [ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن  
كنتم مؤمنين ] .

فإن ترك المعاصى ، امتثالاً لأمر الله ، وتقرباً إليه - خير ، وأنفع للعبد ،  
من ارتكابها الموجب لسخط الجبار ، وعذاب النار .

[ ولا تقعدوا ] للناس [ بكل صراط ] أى : طريق من الطرق ، التى يكثر  
سلوكها ، تحذرون الناس منها [ وتوعدون ] <sup>(١)</sup> من سلوكها [ وتصدون  
عن سبيل الله ] من أراد الاهتداء به [ وتبغونها عوجاً ] أى : تبغون  
سبيل الله تكون معوجة ، وتميلونها ، اتباعاً لأهوائكم .

(١) توعدون أى : تهددون من سلك سبيل الله بأنواع الأذى  
والعذاب .

ءَامَنَ بِهِ وَتَبِعُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ  
وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ  
ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ

وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم ، الاحترام والتعظيم ، للسبيل التي  
نصبها الله لعباده ، ليسلكوها إلى مرضاته ، ودار كرامته ، ورحمهم بها  
أعظم رحمة ، وتصدون لنصرتها ، والدعوة إليها ، والذب عنها .

لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها ، الصادين الناس عنها ، فإن هذا كفر  
لنعمة الله ، ومحادة لله ، وجمل أقوم الطرق وأعد لها ، مائلة ، وتشنعون  
على من سلكها .

[ واذكروا ] نعمة الله عليكم [ إذ كنتم قليلا فكثركم ] أى : نماكم  
بما أنعم عليكم من الزوجات ، والنسل ، والصحة .

وأنه ما ابتلاكم بوباء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم ، ولاسلط  
عليكم عدوا يحتاجكم <sup>(١)</sup> ولا فرقكم في الأرض .

بل أنعم عليكم ، باجتماعكم . وإدراك الأرزاق ، وكثرة النسل .  
[ وانظر كيف كان عاقبة المفسدين ] فإنكم لا تجدون في جموعهم  
إلا الشتات ، ولا في ربوعهم ، إلا الوحشة والانبثات <sup>(٢)</sup> .

( ١ ) يحتاجكم ، أى : يهلككم بأنواع الشدائد .

( ٢ ) الانبثات ، أى : الانقطاع والمراد ، خلو مساكنهم من الناس  
بالهلاك الذي أنزله الله بهم .

يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ  
اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ  
قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾

ولم يورثوا ذكراً حسناً ، بل اتبعوا في هذه الدنيا ، لعنة ، ويوم القيامة  
خزياً وفضيحة .

[ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ]  
وهم الجمهور منهم .

[ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ] فينصر الحق ،  
ويوقع العقوبة على المبطل .

[ قال الملأ الذين استكبروا من قومه ] وهم الأشراف ، والكبراء  
منهم ، الذين اتبعوا أهواءهم ، ولهوا بلذاتهم .

فلما أتاهم الحق ، ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة ، ردوه ،  
واستكبروا عنه .

فقالوا لنبيهم شعيب ، ومن معه من المؤمنين المستضعفين : [ لنخرجنك  
يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا ] .

استعملوا قوتهم السبعية ، في مقابلة الحق ، ولم يراعوا ديناً ، ولا ذمة ،  
ولا حقاً .

وإنما راعوا ، واتبعوا أهواءهم ، وعقولهم السفهية ، التي دلتهم على  
هذا القول الفاسد .

فقالوا : إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنك  
من قريتنا .

قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا  
وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ

ف « شعيب » عليه الصلاة والسلام ، كان يدعوهم ، طامعاً في إيمانهم ،  
والآن لم يسلم ، حتى توعدوه إن لم يتابعهم — بالجللاء عن وطنه ، الذى هو  
ومن معه أحق به منهم .

[ قال ] لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجباً من قولهم :  
[ أو لو كنا كارهين ] أى : أننا نبعكم على دينكم وملتكم الباطلة ،  
ولو كنا كارهين لما لعلمنا ببطانها ، فإنما يدعى إليها ، من له نوع  
رغبة فيها .

أما من يعلن بالنهى عنها ، والتشنيع على من اتبعها فكيف  
يدعى إليها ؟ !!

[ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ]  
أى : اشهدوا علينا ، أننا إن عدنا إليها بعد ما نجانا الله منها ، وأنقذنا من  
شرها ، أننا كاذبون مفترون على الله الكذب .

فإننا نعلم ، أنه لا أعظم افتراء ، ممن جعل لله شريكاً ، وهو الواحد  
الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ولا شريكاً  
فى الملك .

[ وما يكون لنا أن نعود فيها ] أى : يمتنع على مثلنا أن نعود فيها فإن  
هذا من المحال .

فأيسهم عليه الصلاة والسلام ، من كونه يوافقهم ، من وجوه  
متعددة .

رَبَّنَا كُلَّ شَيْءٍ عَلَّمَا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا  
بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ أُمْلَأِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن

من جهة أنهم كارهون لها ، ميفضون لما هم عليه من الشرك .  
ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذبا ، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن  
معه ، فإنهم كاذبون .

ومنها : اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها .  
ومنها : أن عودتهم فيها - بعد ما هدام الله - من المحلات ، بالنظر  
إلى حالتهم الراهنة ، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى ، والاعتراف له  
بالعبودية ، وأنه الإله وحده ، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده ، لا شريك  
له ، وأن آلهة المشركين ، أبطل الباطل ، وأحل المحال .  
وحيث أن الله من عليهم ، بعقول يعرفون بها الحق والباطل ،  
والهدى والضلال .

وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله ، وإرادته النافذة في خلقه ، التي  
لا خروج لأحد عنها ، ولو تواترت الأسباب ، وتوافقت القوى ، فإنهم  
لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئا أو يتركونه .

ولهذا استثنى [ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ]

أى : فلا يمكننا ولا غيرنا ، الخروج عن مشيئته ، التابعة لعلمه وحكمته .  
وقد [ وسع ربنا كل شيء علما ] فيعلم ما يصلح للعباد وما يدرهم عليه .

[ على الله توكلنا ] أى : اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم ،  
وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم ، فإن من توكل على الله ، كفاه ، ويسر  
له أمر دينه ودنياه .

قَوْمِهِ لِيَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ  
فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ

[ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق] أى : انصر المظلوم ، وصاحب الحق ، على الظالم العائد للحق [ وأنت خير الفاتحين ] وفتحته تعالى لعباده ، نوعان .

فتح العلم ، بتبيين الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، ومن هو المستقيم على الصراط ، ممن هو منحرف عنه .

والنوع الثانى : فتحه بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين ، والنجاة والإكرام للصالحين .

فسألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم ، بالحق والعدل ، وأن يريهم من آياته وعبره ، ما يكون فاصلا بين الفريقين .

[ وقال الملأ الذين كفروا من قومه ] محذرين عن اتباع شعيب .

[ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون ] هذا ما سولت لهم أنفسهم أن الخسارة والشقاء ، فى اتباع الرشد والهدى .

ولم يدروا أن الخسارة كل الخسارة ، فى لزوم ما هم عليه من الضلال والإضلال ، وقد علموا ذلك حين وقع بهم النكال .

[ فأخذتهم الرجفة ] أى : الزلزلة الشديدة [ فأصبحوا فى دارهم جاثمين ] أى : صرعى ميتين ، هامدين .

قال تعالى ناعيا حالهم [ الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ] أى : كأنهم ما أقاموا فى ديارهم ، وكأنهم ما تمتعوا فى عرصاتها ، ولا تفيثوا

يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾

في ظلالها ، ولا غنوا في مسارح أنهارها ، ولا أكلوا من ثمار أشجارها .  
فأخذهم العذاب ، فنقلهم من مورد اللهو واللعب واللذات ، إلى مستقر  
الحزن والشقاء ، والعقاب ؛ والدركات ، ولهذا قال :

[ الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ] أى : الخسار محصور فيهم  
لأنهم خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ، وذلك هو الخسران المبين ،  
لا من قالوا لهم : [ لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون ] .

فحين هلكوا ، تولى عنهم نبينهم ، عليه الصلاة والسلام [ وقال ]  
معاتباً وموبخاً ومخاطباً لهم بعد موتهم :

[ يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ] أى : أوصلتها إليكم ، وبينتها  
حتى بلغت منكم ، أقصى ما يمكن أن تصل إليه ، وخالطت أفئدتكم  
[ ونصحت لكم ] فلم تقبلوا نصحي ، ولا انقذتم لإرشادى ، بل فسقتم وطغيتم .  
[ فكيف آسى على قوم كافرين ] أى : فكيف أحزن على قوم ،  
لا خير فيهم ، أتاهم الخير فردوه ، ولم يقبلوه ، ولا يليق بهم إلا الشر .

فهؤلاء غير حقيقين أن يحزن عليهم ، بل يفرح بإهلاكمهم ومحقتهم .  
فعياذا بك اللهم من الخزي والفضيحة ، وأى شقاء وعقوبة أبلغ من  
أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم !!! .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا  
بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ  
الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ  
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

\* يقول تعالى: [ وما أرسلنا في قرية من نبي ] يدعوهم إلى عبادة الله ،  
وينهاهم عن ما هم فيه من الشر ، فلم ينقادوا له :

[ إلا أخذنا أهلها ] أى : ابتلاهم الله [ بالبأساء والضراء ] أى : بالفقر ،  
والمرض ، وأنواع البلاء .

[ لعلهم ] إذا أصابتهم ، خضعت نفوسهم [ فهم يضرعون ] إلى الله ،  
ويستكينون للحق .

[ ثم ] إذا لم يفد فيهم ، واستمر استكبارهم ، وازداد طغيانهم .  
[ بدلنا مكان السيئة الحسنة ] فأدرّ عليهم الأرزاق ، وعافى أبدانهم ،  
ورفع عنهم البلاء .

[ حتى عفوا ] أى : كثروا ، وكثرت أرزاقهم وانبسطوا في نعمة الله  
وفضله ، ونسوا ما مر عليهم من البلاء .

[ وقالوا ] قد مس آباءنا الضراء والسراء [ أى : هذه عادة جارية ، لم تزل  
موجودة في الأولين واللاحقين ، تارة يكونون في سراء وتارة في ضراء ،  
وتارة في فرح ، ومرة في ترح ، على حسب تقلبات الزمان ، وتداول الأيام .  
وحسبوا أنها ليست للموعظة والتذكير ، ولا للاستدراج والنكير .

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا

حتى إذا اغتبطوا ، وفرحوا بما أوتوا ، وكانت الدنيا ، أسر ما كانت إليهم .

[ فأخذناهم ] بالعذاب [ بقتة وهم لا يشعرون ] أى : لا يخطر لهم الهلاك على بال

وظنوا <sup>(١)</sup> أنهم قادرون على ما آتاهم الله ، وأنهم غير زائلين ولا منتقلين عنه .

\* لما ذكر تعالى أن المكذبين للرسول ، يبتلون بالضراء ، موعظة وإنذارا وبالسرء ، استدراجاً ومكراً ، ذكر أن أهل القرى ، لو آمنوا بقلوبهم ، إيماناً صادقاً ، صدقته الأعمال ، واستعملوا تقوى الله تعالى ، ظاهراً وباطناً ، بترك جميع ما حرم الله — لفتح عليهم بركات من السماء والأرض .

فأرسل السماء عليهم مدراراً ، وأنبت لهم من الأرض ، ما به يعيشون ، وتعيش بهائمهم ، فى أخصب عيش ، وأغزر رزق ، من غير عناء ولا تعب ، ولا كد ولا نصب .

ولسكنهم لم يؤمنوا ويتقوا [ فأخذناهم بما كانوا يكسبون ] بالعقوبات والبلايا ، ونزع البركات ، وكثرة الآفات ، وهى بعض جزاء أعمالهم .

وإلا ، فلو أخذهم بجميع ما كسبوا ، ما ترك على ظهرها من دابة .  
« ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، ليذيقهم بعض الذى عملوا ، لعلهم يرجعون » .

( ١ ) قوله « وظنوا » أى : اعتقدوا حتى صار ذلك عندهم بمنزلة علم اليقين ، و « الظن » ليس على بابه الذى هو الرجحان ، بل هو لليقين .

يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ  
نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَآمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ  
يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ  
الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾

[أفأمن أهل القرى] أى : المكذبة ، بقرينة السياق [أن يأتيهم بأسنا] أى : عذابنا الشديد [بيانا وهم نائمون] أى : فى غفلتهم ، وغرهم ، وراحتهم .

[أو آمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون] أى : أى شئ يؤمنهم من ذلك ، وهم قد فعلوا أسبابه ، وارتكبوا من الجرائم العظيمة ، ما يوجب بعضه ، الهلاك ؟ ! .

[أفأمنوا مكر الله] حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون ، ويملى لهم ، إن كيده متين .

« فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » فإن من آمن من عذاب الله ، فإنه لم يصدق بالجزاء على الأعمال ، ولا آمن بالرسالة حقيقة الإيمان . وهذه الآية السكرية ، فيها من التخويف البليغ ، على أن العبد ، لا ينبغي له أن يكون آمنا ، على ما معه من الإيمان .

بل لا يزال خائفاً وجلاً ، أن يتلى ببلية ، تسلب ما معه من الإيمان ، وأن لا يزال داعياً بقوله : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » .

وأن يعمل ويسعى ، فى كل سبب يخلصه من الشر ، عند وقوع الفتن ، فإن العبد — ولو بلغت به الحال ما بلغت — فليس على يقين من السلامة .

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠)  
تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقِصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ

\* يقول تعالى - منها للأُمم الغابرين<sup>(١)</sup> بعد هلاك الأُمم الغابرين<sup>(٢)</sup>  
[ أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ]  
أى أو لم يبين وبتضح ، للأُمم الذين ورثوا الأرض ، بعد إهلاك من  
قبلهم بذنوبهم ، ثم عملوا كأعمال أولئك المهلكين ؟  
أو لم يهتدوا أن الله ، لو شاء لأصابهم بذنوبهم ، فإن هذه سنة  
فى الأولين والآخرين .

وقوله : [ ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ] أى : إذا نبههم الله ،  
فلم ينتبهوا ، وذكركم ، فلم يتذكروا ، وهداهم بالآيات والمعبر ، فلم يهتدوا ،  
فإن الله تعالى يعاقبهم ، ويطبع على قلوبهم ، فيعلوها الران والدنس ، حتى  
يحتج عليهم ، فلا يدخلها حق ، ولا يصل إليها خير ، ولا يسمعون ما ينفعهم ،  
وإنما يسمعون ، ما به تقوم الحجة عليهم .

[ تلك القرى ] الذين تقدم ذكركم [ نقص عليك من أنبائها ] ما يحصل  
به عبرة للمعتبرين ، وازدجار للظالمين . وموعظة للمتقين .

[ ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ] أى : جاءت هؤلاء المكذبين رسلهم ،  
تدعوهم إلى ما فيه سعادتهم ، وأيدهم الله بالمعجزات الظاهرة ، والبينات  
المبينات للحق ، بيانا كاملا ، ولكنهم لم يقدم هذا ، ولا أغنى عنهم شيئا .

فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى  
قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ  
وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

[ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ] أى : بسبب تكذيبهم ،  
وردهم الحق أول مرة .

ما كان يهديهم للإيمان ، جزاء لهم على ردهم الحق ، كما قال تعالى  
« ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ، كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى  
طغيانهم يعمهون » .

[ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ] عقوبة منه .

وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم .

[ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ] أى : وما وجدنا لأكثر الأمم ،  
الذين أرسل الله إليهم الرسل من عهد ، أى : من ثبات والتزام ، لوصية الله ،  
التي أوصى بها جميع العالمين ، ولا اتقادوا لأوامره ، التي ساقها إليهم ،  
على السنة رسله .

[ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ] أى : خارجين عن طاعة الله ، متبعين  
لأهوائهم ، بغير هدى من الله .

فإن الله تعالى امتحن العباد بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب وأمرهم  
باتباع عهده وهداه .

فلم يمثل لأمره إلا القليل من الناس ، الذين سبقت لهم من الله ، سابقة  
السعادة .

وأما أكثر الخلق ، فأعرضوا عن الهدى ، واستكبروا عما جاءت به  
الرسل ، فأحل الله بهم من عقوباته المتنوعة ما أحل .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ  
وَمَلَائِكِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾  
وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعَوْنَ إِنَّنِي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ

\* أى : ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل ، موسى السليم ، الإمام العظيم ،  
والرسول الكريم ، إلى قوم عتاة جبابرة ، وهم فرعون وملأه ، من  
أشرافهم وكبرائهم .

فأراهم من آيات الله العظيمة ما لم يشاهده نظير [ فظلموا بها ] بأن لم  
ينتقادوا لحقها الذى من لم ينتدله ، فهو ظالم ، بل استكبروا عنها .

[ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ] كيف أهلكهم الله ، وأنعمهم الذم  
واللعنة ، فى الدنيا ، ويوم القيامة ، بنس الردف الرفود ، وهذا مجمل ، فصله  
بقوله :

\* [ وقال موسى ] حين جاء إلى فرعون ، يدعوه إلى الإيمان .

[ يافرعون إني رسول من رب العالمين ] أى : إني رسول من مرسل  
عظيم ، وهو رب العالمين ، الشامل للعالم العلوى والسفلى ، مربى جميع خلقه  
بأنواع التدابير الإلهية ، التى من جللتها ، أنه لا يتركهم سدى ، بل يرسل  
إليهم الرسل مبشرين ومنذرين .

وهو الذى ، لا يقدر أحد ، أن يتجرأ عليه ، ويدعى أنه أرسله ،  
ولم يرسله .

فإذا كان هذا شأنه ، وأنا قد اختارنى واصطفانى لرسالته ، لتحقيق على  
أن لا أكذب عليه ، ولا أقول عليه إلا الحق .

عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بَيِّنَةً مِّن رَّبِّكُمْ  
فَارْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ  
بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ  
مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ أَمَلَأُ

فأني لو قلت غير ذلك ، لما جلني بالعقوبة ، وأخذني أخذ عزيز مقتدر .

فهذا موجب لأن ينقادوا له ويتبعوه ، خصوصاً وقد جاءهم بينة  
من الله واضحة ، على صحة ما جاء به من الحق فوجب عليهم ، أن يعملوا  
بمقصود رسالته ، ولها مقصودان عظيمان .

إيمانهم به ، واتباعهم له ، وإرسال بني إسرائيل ، الشعب الذي فضله  
الله على العالمين ، أولاد الأنبياء ، وسلسلة يعقوب عليه السلام ، الذي موسى  
عليه الصلاة والسلام ، واحد منهم .

فقال له فرعون : [ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .  
[ فَأَلْقَى عَصَاهُ ] فِي الْأَرْضِ [ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ] أَيْ : حية ظاهرة ، تسعى ،  
وهم يشاهدونها .

[ وَنَزَعَ يَدَهُ ] مِنْ جَيْبِهِ [ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ] مِنْ غَيْرِ سُوءِ .

فهاتان آيتان كبيرتان ، دالتان على صحة ما جاء به موسى وصدقه ،  
وأنه رسول رب العالمين .

ولكن الذين لا يؤمنون ، لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون ، حتى يروا  
العذاب الأليم .

مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا سَحَرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ  
مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ  
فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ

فلهذا [قال الملأ من قوم فرعون] — حين بهرهم ما رأوا من الآيات ،  
ولم يؤمنوا ، وطلبوا لها التأويلات الفاسدة - :

[إن هذا لساحر عليم] أي : ماهر في سحره .

ثم خوفوا ضعفاء الأحلام ، وسفهاء العقول ، بأنه :

[يريد] موسى بفعله هذا [أن يخرجكم من أرضكم] أي : يريد أن  
يجليكم عن أوطانكم [فماذا تأمرون] أي : إنهم تشاوروا فيما بينهم  
ما يفعلون بموسى ، وما يندفع به ضرره بزعمهم عنهم .

فإن ما جاء به ، إن لم يقابل بما يبطله ويدحضه ، وإلا دخل في عقول  
أكثر الناس .

فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن قالوا لفرعون :

( أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ) أي : احبسهما ، وأمهلهما ، وابعث في المدائن أناساً ،  
يحشرون أهل المملكة ويأتون بكل سحر عليم ، أي : يجيئون بالسحرة  
المهرة ، ليقابلوا ما جاء به موسى .

فقالوا : يا موسى ، اجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت ،  
مكاناً سوى .

« قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشرون الناس ضحى \* فتولى فرعون ،  
فجمع كيده ثم أتى » :

السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَمُحُّ الْقُلُوبِينَ ﴿١١٣﴾  
 قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُتَقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّمَا أَنْ  
 تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا  
 أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾  
 وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ

وقال هنا [ وجاء السحرة فرعون ] طالبين منه الجزاء إن غلبوا  
 [ قالوا : إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ] ؟ .

فـ [ قال ] فرعون : [ نعم ] لكم أجر [ وإنكم لمن المقربين ] .

فوعدهم الأجر والتقريب ، وعلو المنزلة عنده ، ليجتهدوا ويبدلوا وسعهم  
 وطاقاتهم ، في مغالبة موسى .

فلما حضروا مع موسى ، بحضرة الخلق العظيم ، [ قالوا ] على وجه التآلى  
 وعدم المبالاة ، بما جاء به موسى :

[ ياموسى إما أن تلقى ] ما معك [ وإما أن نكون نحن للملقين ] .

[ قال ] موسى : [ ألقوا ] لأجل أن يرى الناس ما معهم ، وما

مع موسى .

[ فلما ألقوا ] حبالهم وعصيهم ، إذا هى من سحرهم ، كأنها حيات تسعى .

وبذلك [ سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ] لم

لم يوجد له نظير من السحر .

وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك [ فالتقاها ] [ فإذا هى ] حية تسعى ،

و[ تلقف جميع ما يافكون ] أى : يكذبون به ويموهون .

مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾  
فَغَلَبُوا هَنَالِكَ وَأَنْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿١٢٠﴾  
قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾

---

[فوقع الحق] أى : تبين وظهر ، واستعلن فى ذلك المجمع .

[وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك] أى : فى ذلك اللقاه .

[واقبلوا صاغيرين] أى : حقيرين ، قد اصمحل باطلهم ، وتلاشى  
سحرم ، ولم يحصل لهم المقصود ، الذى ظنوا حصوله .

وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر ، الذين يعرفون  
من أنواع السحر وجزئياته ، ما لا يعرفه غيرهم .

فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله ، لا يدان لأحد بها .

[وألقى السحرة ساجدين] قالوا آمنا برب العالمين \* رب موسى وهرون

أى : وصدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات .

[قال] لهم [فرعون] متهددا لهم على الإيمان : [ء آمنتم به قبل أن

آذن لكم] .

كان الخبيث حاكما مستبداً على الأديان والأقوال ، قد تقرر عنده  
وعندهم ، أن قوله هو المطاع ، وأمره نافذ فيهم ، ولا خروج لأحد عن  
قوله وحكمه .

وبهذه الحالة تنهط الأمم ، وتضعف عقولها ونفوذها ، وتعجز عن

المدافعة عن حقوقها ، ولهذا قال الله عنه : « فاستخف قومه فأطاعوه »

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرُتُهُ  
فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾  
لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَضْلِبَنَّكُمْ

وقال هنا [ ء آمنتم به قبل أن آذن لكم ] أى : فهذا سوء أدب منكم  
وتجروا على .

ثم موه على قومه وقال : [ إن هذا المكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا  
منها أهلها ] .

أى : إن موسى كبيركم الذى علمكم السحر ، فتواطأتم أنتم وهو ،  
على أن تغلبوا له ، فيظهر ، فتتبعوه ، ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم ،  
فتخرجوا منها أهلها .

وهذا كذب يعلم هو ، ومن سير الأحوال ، أن موسى عليه الصلاة  
والسلام ، لم يجتمع بأحد منهم ، وأنهم جمعوا على نظر فرعون ، ورسله .  
وأن ماجاء به موسى ، آية إلهية ، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم  
فى مغالبة موسى ، حتى عجزوا ، وتبين لهم الحق ، فاتبعوه .

ثم توعدهم فرعون بقوله : [ فسوف تعلمون ] ما أحل بكم من العقوبة .  
[ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ] زعم الخبيث أنهم مفسدون  
فى الأرض ، وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين ، من تقطيع الأيدي والأرجل  
من خلاف ، أى : اليد اليمنى والرجل اليسرى .

[ ثم لأضلبنكم ] فى جذوع النخل ، لتختزوا بزعمه [ أجمعين ]  
أى : لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد ، بل كلكم سيذوق هذا العذاب .

أَجْمِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَقِمُ مِنْكَ إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَىٰ

فقال السحرة ، الذين آمنوا ، لفرعون حين تهدهم :

[ إنا إلى ربنا منقلبون ] أى : فلا نبأى بمقوبتك ، فالله خير وأبقى ، فاقض ما أنت قاض .

[ وما تنقم منا ] أى : وما تعيب منا على إنكارك علينا ، وتوعدك لنا ؟

فليس لنا ذنب [ إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ] فإن كان هذا ذنبا يعاب عليه ، ويستحق صاحبه العقوبة ، فهو ذنبنا .

ثم دعوا الله أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا : [ ربنا أفرغ ] أى : أفض [ علينا صبرا ] أى : عظيما ، كما يدل عليه التفسير ، لأن هذه محنة عظيمة ، تؤدى إلى ذهاب النفس .

فيحتاج فيها من الصبر ، إلى شيء كثير ، ليثبت الفؤاد ، ويطمئن المؤمن على إيمانه ، ويزول عنه الانزعاج الكثير .

[ وتوفنا مسلمين ] أى : منقادين لأمرك ، متبعين لرسولك .

والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه ، وأن الله تعالى ثبتهم على الإيمان .

هذا ، وفرعون وملاؤه ، وعامتهم المتبعون للملأ ، قد استكبروا عن آيات الله ، وجحدوا بها ، ظلما وعلوا ، وقالوا لفرعون مهيجين له على

وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرِكَ وَءَاثَتِكَ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ  
وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ  
أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

الإيقاع بموسى ، وزاعمين أن ماجاء به باطل وفساد :

[ أئذ موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ] بالدعوة إلى الله ، وإلى  
مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، التى هى الصلاح فى الأرض ، ومأم  
عليه هو الفساد ، ولكن الظالمين لا يبالون بما يقولون .

[ ويذرك وآهلك ] أى يدعك أنت وآهلك ، وينهى عنك ، ويصد  
الناس عن اتباعك .

[ قال ] فرعون مجيبا لهم ، بأنه سيدع بنى إسرائيل مع موسى ، بحالة  
لا يئمنون فيها ، ويأمن فرعون وقومه — بزعمه — من ضررهم :

[ سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم ] أى : نستبقين فلا نقتلن ، فإذا  
فعلنا ذلك ، أمنا من كثرتهم ، وكنا مستخدمين لباقيهم ، ومسخرين لهم  
على ما نشاء من الأعمال .

[ وإنا فوقهم قاهرون ] لآخروج لهم عن حكمنا ، ولا قدرة ، وهذا  
نهاية الجبروت والعتو والقسوة من فرعون .

[ قال موسى لقومه ] موصيا لهم فى هذه الحالة ، التى لا يقدرّون معها  
على شئ ، ولا مقاومة إلا بالمقاومة الإلهية ، والاستعانة الربانية :

[ استعينوا بالله ] أى : اعتمدوا عليه فى جلب ما ينفعكم ، ودفع  
ما يضرّكم .

وَالْعَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَأُذِيبْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي

وَقُوا بِاللَّهِ ، أَنَّهُ سَيَتِمُّ أَمْرُكُمْ [واصبروا] أى : الزموا الصبر على ما يحل بكم ، منتظرين للفرج .

[إن الأرض لله] ليست لفرعون ولا لقومه ، حتى يتحكموا فيها .

[يورها من يشاء من عباده] أى : يداولها بين الناس ، على حسب مشيئته وحكمته .

ولكن العاقبة للمتقين ، فإنهم — وإن امتحنوا مدة ابتلاء من الله وحكمة — فإن النصر لهم .

[والعاقبة] الحميدة [للمتقين] على قومهم .

وهذه وظيفة العبد ، أنه عند القدرة ، أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير ، ما يقدر عليه ، وعند المعجز ، أن يصبر ويستعين الله ، وينتظر الفرج .

[قالوا] لموسى متضجرين من طول ما مكثوا فى عذاب فرعون ، وأذيته :

[أؤذينا من قبل أن تأتينا] فإنهم كانوا يسوموننا سوء العذاب ، يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا [ومن بعد ما جئتنا] كذلك .

[قال] لهم موسى ، مرجيا لهم بالفرج والخلاص من شرهم :

[عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض] أى : يمكنكم

فيها ، ويجعل لكم التدبير فيها [فينظر كيف تعملون] هل تشكرون أم تكفرون ؟ .

الْأَرْضِ فَيَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ  
بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ  
الْحُسْنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ

وهذا وعد ، أنجزه الله ، لما جاء الوقت الذى أرادته الله .

قال الله تعالى - فى بيان ما عامل به آل فرعون فى هذه المدة الأخيرة .  
أنها على عادته وسنته فى الأمم ، أن يأخذهم بالبأساء والضراء ، لعلمهم  
بضرعون . الآيات :

[ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين] أى : بالدهور والجذب<sup>(١)</sup> ، [ونقص  
من الثمرات لعلمهم يذكرون] أى : يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم ،  
معاقبة من الله لهم ، لعلمهم يرجعون عن كفرهم .

فلم ينجع فيهم ولا أفاد ، بل استمروا على الظلم والفساد .

[فإذا جاءتهم الحسنة] أى : الخصب وإمداد الرزق .

[قالوا لنا هذه] أى : نحن مستحقون لها ، فلم يشكروا الله عليها .

[وإن تصيبهم سيئة] أى : قحط وجذب [يطيرون بموسى ومن معه]

أى : يقولوا : إنما جاءنا ، بسبب مجيء موسى ، واتباع بنى إسرائيل له .

( ١ ) قوله [ بالدهور والجذب ] كلام فيه ما فيه ، فإن المعاجم القرآنية

واللغوية متفقة على أن (السنين) معناها : السنين المجذبة والقحوط فالأولى

أن يقال : أى : بالسنين المجذبة والأعوام التى لا تنبت الأرض شيئاً

من الزروع والثمار .

أَلَا إِنَّمَا طِئِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾  
وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ  
بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ

---

قال الله تعالى [ ألا إنما طائرهم عند الله ] بقضائه وقدرته ، ليس كما قالوا  
بل إن ذنوبهم وكفرهم ، هو السبب في ذلك .

[ ولكن أكثرهم لا يعلمون ] أى : فلذلك قالوا ما قالوا .

[ وقالوا ] مبينين لموسى أنهم لا يزالون ، ولا يزولون عن باطلهم .

[ مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ]

أى : قد تقرر عندنا ، أنك ساحر ، فهما جئت بآية ، جزمنا أنها سحر ،  
فلا نؤمن لك ، ولا نصدق .

وهذا غاية ما يكون من العناد ، أن يبلغ بالكافرين ، إلى أن تستوى  
عندهم الحالات ، سواء نزلت عليهم الآيات ، أم لم تنزل .

[ فأرسلنا عليهم الطوفان ] أى : الماء الكثير ، الذى أغرق أشجارهم  
وزروعهم ، وأضرهم ضرراً كثيراً .

[ والجراد ] فأكل ثمارهم ، وزروعهم ، ونباتهم .

[ والقمل ] قيل : إنه الدباء ، أى : صغار الجراد ، والظاهر ، أنه القمل

المعروف <sup>(١)</sup> .

---

( ١ ) قوله ( القمل ) ذكر فى ( المنتخب من تفسير القرآن ) أن القمل :

حشرة . تفسد الثمار وتقضى على الحيوان والنبات .

وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا  
تُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ اُدْعُ لَنَا  
رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ

[ والضفادع ] فَلَآتٌ أَوْعِيَتُهُمْ ، وَأَقْلَقَتُهُمْ ، وَأَذَتْهُمْ أَذِيَةً شَدِيدَةً .

[ والدم ] إِمَّا أَنْ يَكُونَ الرَّعَافُ ، أَوْ كَمَا قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسَرِينَ ، أَنَّ  
مَاءَهُمُ الَّذِي يَشْرَبُونَ ، انْقَلَبَ دَمًا ، فَكَانُوا لَا يَشْرَبُونَ إِلَّا دَمًا ، وَلَا يَطْبَخُونَ .  
[ آيات مفصلات ] أَيْ : أَدْلَةٌ وَبَيِّنَاتٌ ، عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ظَالِمِينَ ،  
وَعَلَى أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى ، حَقٌّ وَصَدَقَ .

[ فاستكبروا ] لَمَّا رَأَوْا الْآيَاتِ [ وَكَانُوا ] فِي سَابِقِ أَمْرِهِمْ  
[ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ] .

فَلِذَلِكَ عَاقِبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، بِأَنْ أَبْقَاهُمْ عَلَى الْغَى وَالضَّلَالِ .

[ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ] أَيْ : الْعَذَابُ ، يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ :  
الطَّاعُونَ ، كَمَا قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسَرِينَ .

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرَادَ بِهِ ، مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَاتِ ، الطُّوفَانِ ، وَالْجَرَادِ ، وَالْقُمَّلِ ،  
وَالضَّفَادِعِ ، وَالْدَّمِ ، فَإِنَّهَا رَجَزٌ وَعَذَابٌ ، وَأَنَّهُمْ كُلُّهُمُ أَصَابَهُمْ وَاحِدٌ مِنْهَا .

[ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ] أَيْ : تَشْفَعُوا بِمُوسَى  
بِمَا عَهِدَ اللَّهُ عِنْدَهُ ، مِنَ الْوَحْيِ وَالشَّرْعِ .

[ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ ، لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ، وَلَنُرْسِلَنَّ بِنِي إِسْرَائِيلَ ]

وَهُمْ فِي ذَلِكَ كَذِبَةٌ ، لَا قَصْدَ لَهُمْ إِلَّا زَوَالِ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ ،  
وَظَنُّوا أَنَّهُ إِذَا رَفَعَ لَا يَصِيبُهُمْ غَيْرُهُ

مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى آجَلٍ هُمْ  
بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ

فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالفوه [ أى : إلى مدة قدر الله  
بقاءهم إليها ، وليس كشفاً مؤبداً ، وإنما هو مؤقت .  
[ إذا هم ينكثون ] العهد الذى عاهدوا عليه موسى ، ووعدوه بالإيمان به ،  
وإرسال بنى إسرائيل .

فلا آمنوا به ، ولا أرسلوا معه بنى إسرائيل ، بل استمروا على كفرهم  
يعمبون ، وعلى تعذيب بنى إسرائيل دائبين .

[ فانتقمنا منهم ] أى : حين جاء الوقت الموقت لهلاكهم ، أمر الله موسى  
أن يسرى بينى إسرائيل ليلاً ، وأخبره أن فرعون سيتبعهم هو وجنوده .  
[ فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ] يجمعون الناس ، ليتبعوا  
بنى إسرائيل ، وقال لهم :

« إن هؤلاء لشردمة قليلون \* وإنهم لنا لغائطون \* وإنا لجميع حاذرون .  
فأخرجناهم من جنات وعيون \* وكنوز ومقام كريم \* كذلك وأورثناها  
بنى إسرائيل \* فأتبعوهم مشرقين \* فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى  
إنا لمدركوا \* قال كلا إن معى ربي سيهدين \* فأوحينا إلى موسى أن اضرب  
بعضاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم \* وأزلفنا ثم الآخرين  
وأنجينا موسى ومن معه أجمعين \* ثم أغرقنا الآخرين » .  
وقال هنا :

[ فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ]  
أى : بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عما دلت عليه من الحق .

بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ  
الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَظْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا  
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا  
مَا كَانْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَوَزْنَا  
بَيْنَ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَمْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ

[ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون ] في الأرض ، أى :  
بنى إسرائيل ، الذين كانوا خدمة لآل فرعون ، يسومونهم سوء العذاب  
أورثهم الله [ مشارق الأرض ومغاربها ] والمراد بالأرض ههنا ، أرض مصر ،  
التي كانوا فيها مستضعفين ، أذلين أى : ملكهم الله جميعاً ، ومكنهم فيها  
[ التي باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ]  
حين قال لهم موسى [ استمعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض يورثها من يشاء  
من عباده والعاقبة للمتقين ] .

[ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ] من الأبنية الهائلة ، والمساكن  
الزخرفة [ وما كانوا يعرشون ] فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، إن في ذلك  
لآية لقوم يعلمون .

[ وجاوزنا بينى إسرائيل البحر ] بعد ما أنجاهم الله من عدوهم فرعون  
وقومه ، وأهلكهم الله ، وبنوا إسرائيل ينظرون .

[ فأتوا ] أى : مروا [ على قوم يعكفون على أصنام لهم ] أى : يقيمون  
عندها ويتبركون بها ، ويعبدونها .

قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَطِلُ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى

[قال] لهم موسى : [إنكم قوم تجهلون] وأى جهل أعظم من جهل الإنسان ، ربه وخالقه وأراد أن يسوى به غيره ، ممن لا يملك نفعا ولا ضررا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا ؟!! .

ولهذا قال لهم موسى [إن هؤلاء متبر<sup>(١)</sup> ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون] ، لأن دعاءهم إياها باطل ، وهى باطلة بنفسها ، فالعمل باطل ، وغايته باطلة .

[قال أغير الله أبغيكم إلها] أى : أطلب لكم إلها غير الله المألوه ، الكامل فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله .

[وهو فضلكم على العالمين] فيقتضى أن تقابلوا فضله ، وتفضيله ، بالشكر .

وذلك بإفراد الله وحده ، بالعبادة ، والكفر بما يدعى من دونه .  
[قالوا] من جهلهم وسفههم ، لنبيهم موسى ، بعد ما أراهم الله من الآيات ما أراهم .

[ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة] أى : اشرع لنا ، أن تتخذ أصناما آلهة ، كما اتخذها هؤلاء .

( ١ ) قوله ( متبر ) أى مهلك ، ومدمر ، والمراد ، إن هؤلاء الذين يعبدون الأصنام هالك ما هم فيه من الدين الباطل وزائل عملهم ، لابقاء له .

الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا

ثم ذكرهم بما امتن الله به عليهم ، فقال :

[ وإذ أنجيناكم من آل فرعون ] أى : من فرعون وآله .

[ يسومونكم <sup>(١)</sup> سوء العذاب ] أى : يوجهون إليكم من العذاب أسوأه

وهو أنهم كانوا [ يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم ] أى :

النجاة من عذابهم [ بلاء من ربكم عظيم ] أى : نعمة جليلة ، ومنحة جزيلة .

أو فى ذلك العذاب الصادر منهم لكم ، بلاء من ربكم عليكم عظيم .

فلما ذكرهم موسى ووعظهم ، انتهوا عن ذلك .

ولما أتم الله نعمته عليهم ، بالنجاة من عدوهم ، وتمكينهم فى الأرض ،

أراد تبارك وتعالى ، أن يتم نعمته عليهم ، بإزالة الكتاب الذى فيه الأحكام الشرعية ، والعقائد المرضية .

فواعد موسى ثلاثين ليلة ، وأتمها بعشر ، فصارت أربعين ليلة ، ليستعد

موسى ، ويتهيأ لوعده الله ، ويكون لنزولها ، موقع كبير لديهم ، وتشوق إلى إنزالها .

ولما ذهب موسى إلى ميقات ربه ، قال لهرون - موصياً له على بنى إسرائيل

من حرصه عليهم وشفقته : -

( ١ ) يسومونكم أى : يذيقونكم أشد العذاب ويسخرونكم لخدمتهم

فى مشاق الأعمال .

بَعَثَرِ قَتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ  
أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾  
وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ

[اخلفني في قومي] أى: كن خليفتي فيهم، واعمل فيهم، بما كنت أعمل .  
[وأصلح] أى: اتبع طريق الصلاح [ولا تتبع سبيل المفسدين] وهم  
الذين يعملون بالمعاصي .

[ولما جاء موسى لميقاتنا] الذى وقتناه له لإزالة الكتاب  
[وكلمه ربه] بمأكله ، من وحيه ، وأمره ، ونهيه ، تشوق إلى رؤية الله ،  
ونزعت نفسه لذلك ، حباً لربه ، واشتياقاً لرؤيته .

[قال : ربى أرى أنظر إليك ، قال] الله [لن ترانى] أى : لن تقدر  
الآن على رؤيتي ، فإن الله تبارك وتعالى ، أنشأ الخلق فى هذه الدار ، على  
نشأة لا يقدرون بها ، ولا يثبتون لرؤية الله .  
وليس فى هذا ، دليل على أنهم لا يرونه فى الجنة .

فإنه قد دلت النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية ، على أن أهل  
الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى ، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم ،  
وأنه ينشئهم نشأة كاملة ، يقدرون معها على رؤية الله تعالى <sup>(١)</sup> .

(١) أقول . رؤية الله أجل نعمة وأعظم متعة ومنحة ، فلا تكون  
إلا فى دار لم تتدنس بالمعاصي وهى الجنة ، وأما الأرض فقد حصل على ظهرها  
من الآثام مالا يعلم عظمها إلا الله ، فلا يمكن أن يقع فيها أعظم النعم وهى  
رؤية الله التى ينسى بها الرءاؤون نعم الجنان .

ذكر هذا « السكلا باذى » فى كتابه ( التعرف بمذهب التصوف ) وهو  
كتاب نفيس لم يخرج عن الكتاب والسنة .

قَالَ لَنْ تَرَنِى وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ  
فَسَوْفَ تَرَنِى فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى  
صَعْقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

ولهذا رتب الله الرؤية فى هذه الآية ، على ثبوت الجبل ، فقال - مقنعاً  
لموسى فى عدم إجابته للرؤية - :

[ ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه ] إذا تجلى الله له  
[ فسوف ترائى ] .

[ فلما تجلى ربه للجبل ] الأسم الغليظ [ جعله دكا ] أى : انهال مثل  
الرمل ، انزعاجاً من رؤية الله وعدم ثبوته لها .  
[ وخر موسى ] حين رأى ما رأى [ صعقاً ] أى : مفشياً عليه .

[ فلما أفاق ] تبين له حينئذ ، أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله ، فموسى  
أولى أن لا يثبت لذلك .

واستغفر ربه ، لما صدر منه من السؤال ، الذى لم يوافق ،  
موضِعاً ، ولذلك :

[ قال سبحانهك ] أى : تنزيها لك ، وتعظيماً عما لا يليق بجلالك .

[ تبّت إليك ] من جميع الذنوب ، وسوء الأدب معك .

[ وأنا أول المؤمنين ] أى : جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه ، بما  
كمل الله له ، مما كان يجهله قبل ذلك ، فلما منعه الله من رؤيته - بعد  
ما كان متشوقاً إليها - أعطاه خيراً كثيراً فقال :

قَالَ يَمُوسَى إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلْمِي فَخُذْ  
مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ  
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ

[ياموسى إني اصطفتك على الناس] أى : اخترتك واجتبيتك ،  
وفضلتك ، وخصصتك بفضائل عظيمة ، ومناقب جليلة .

[برسالتي] التى لا أجعلها ، ولا أخص بها ، إلا أفضل الخلق .

[وبكلامى] إياك من غير واسطة ، وهذه فضيلة ، اختص بها موسى  
الكليم ، وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين .

[فخذ ما آتيتك] من النعم ، وخذ ما آتيتك ، من الأمر والنهى ،  
بانسراح صدر ، وتلقه بالقبول والانقياد .

[وكن من الشاكرين] لله ، على ما خصك وفضلك .

[وكتبنا له فى الألواح من كل شيء] محتاج إليه العباد [وموعظة]  
ترغب النفوس فى أفعال الخير ، وترهبهم من أفعال الشر .

[وتفصيلا لكل شيء] من الأحكام الشرعية ، والعقائد ، والأخلاق ،  
والآداب .

[فخذها بقوة] أى : بجهد واجتهاد على إقامتها .

[وأمر قومك يأخذوا بأحسنها] وهى الأوامر الواجبة ، والمستحبة ،  
فإنها أحسنها .

وفى هذا دليل ، على أن أوامر الله — فى كل شريعة — كاملة ،  
عادلة ، حسنة .

قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ

[سأوريكُم دار الفاسقين] بعد ما أهلكهم الله ، وأبقى ديارهم عبرة بعدهم ، يعتبر بها المؤمنون الموفقون المتواضعون .

وأما غيرهم ، فقال عنهم : [سأصرف عن آياتي] أى عن الاعتبار فى آيات الألفية ، والنفسية ، والفهم لآيات الكتاب [الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق] .

أى : يتكبرون على عباد الله ، وعلى الحق ، وعلى من جاء به .  
فن كان بهذه الصفة ، حرمة الله خيرا كثيرا ، وخذله ، ولم يققه من آيات الله ، ما ينتفع به .

بل ربما انقلبت عليه الحقائق ، واستحسن القبيح .  
[وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها] لإعراضهم ، واعتراضهم ، ومحادثهم لله ورسوله .

[وإن يروا سبيل الرشد] أى : الهدى والاستقامة ، وهو الصراط الموصل إلى الله ، وإلى دار كرامته .

[لا يتخذوه] أى : لا يسلكوه ولا يرغبوا فيه [سبيلا] .  
[وإن يروا سبيل النى] أى : الفواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء [يتخذوه سبيلا] .

سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ آلِهَةٍ يَنْتَحِذُوا سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا  
بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ  
الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾  
وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ

---

والسبب في انحرافهم هذا الانحراف [ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا  
وكانوا عنها غافلين ] .

فردم لآيات الله ، وغفلتهم عما يراد بها ، واحتقارهم لها - هو الذى  
أوجب لهم من سلوك طريق النفى ، وترك طريق الرشد ، ما أوجب .  
\* [ والذين كذبوا بآياتنا ] العظيمة الدالة على صحة ما أرسلنا  
به رسلنا .

[ ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم ] لأنها على غير أساس ، وقد فقد شرطها  
وهو ، الإيمان بآيات الله ، والتصديق بجزائه .

[ هل يحزون ] فى بطلان أعمالهم ، وحصول ضد مقصودهم [ إلا ما كانوا  
يعملون ] فإن أعمال من لا يؤمن باليوم الآخر ، لا يرجو فيها ثواباً ، وليس  
لها غاية تنتهى إليها ، فلذلك اضمحلت وبطلت .

[ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسداً ] صاغه السامرى  
وألقى عليه قبضة من أثر الرسول فصار [ له خوار<sup>(١)</sup> ] وصوت فعبدوه ،  
واتخذوه إلها .

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا  
ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا  
لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا

« وقال <sup>(١)</sup> هذا إلهكم وإله موسى » فَنسى موسى ، وذهب يطلبه .

وهذا من سفههم ، وقلة بصيرتهم .

كيف اشتبه عليهم ، رب الأرض والسموات ، بعجل من أنقص  
المخلوقات ؟ !!

ولهذا قال - مينا أنه ليس فيه من الصفات الذاتية ، ولا الفعلية ،  
ما يوجب أن يكون إلها .

[ ألم يروا أنه لا يكلمهم ] أى : وعدم الكلام ، نقص عظيم ، فهم  
أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجاد ، الذى لا يتكلم [ ولا يهديهم  
سبيلا ] أى : لا يبدلهم طريقا دينيا ، ولا يحصل لهم مصلحة دنيوية .

لأن من المتقرر فى العقول والفطر ، أن اتخاذا إله لا يتكلم ، ولا ينفع ،  
ولا يضر ، من أبطل الباطل ، وأسمج السفه ، ولهذا قال :

[ اتخذوه وكانوا ظالمين ] حيث وضعوا العبادة فى غير موضعها ،  
وأشركوا بالله ، مالم ينزل به سلطانا .

وفى دليل على أن من أنكر كلام الله ، فقد أنكر خصائص إلهية  
الله تعالى .

رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي  
أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ

لأن الله ذكر ، أن عدم الكلام ، دليل على عدم صلاحية الذي لا يتكلم ، للإلهية .

[ ولما ] رجع موسى إلى قومه ، فوجدهم على هذه الحال ، وأخبرهم  
بضلالهم ، ندموا [ وسقط في أيديهم ] أى : من الهم والندم على فعلهم .  
[ ورأوا أنهم قد ضلوا ] فتنصلوا ، إلى الله وتضرعوا [ وقالوا : لئن  
لم يرحمنا ربنا ] فبدلنا عليه ، ويرزقنا عبادته ، ويوفقنا لصالح الأعمال .  
[ ويغفر لنا ] ما صدر منا من عبادة العجل .

[ لنكونن من الخاسرين ] الذين خسروا الدنيا والآخرة .

[ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ] أى : ممتلئا غضبا وغيظا  
عليهم ، لتمام غيرته ، عليه السلام ، وكال نصحه وشقيقته .  
[ قال بئسا خلفتموني من بعدى ] أى : بئس الحالة التي خلفتموني بها  
من بعد ذهابي عنكم ، فإنها حالة تفضى إلى الهلاك الأبدي ، والشقاء  
السرمدى .

[ أعجلتم أمر ربكم ] حيث وعدمكم بإنزال الكتاب .  
فبادرتم - برأيكم الفاسد - إلى هذه الخصلة القبيحة .

[ وألقى الألواح ] أى : رماها من الغضب [ وأخذ برأس أخيه ]  
هلون ولحيته [ يجره إليه ] وقال له :

« ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ، أن لاتتبعني أفقصيت أمري » .

قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشِمْتُ  
بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ  
اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾

لك بقولى [ اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ] .

[ قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إني خشيت أن تقول فرقت  
بين بنى إسرائيل ، ولم ترقب قولى ] .

و [ قال ] هنا [ ابن أم ] هذا ترفيق لأخيه ، بذكر الأم وحدها .

وإلا فهو شقيقه لأنه وأبيه : [ إن القوم استضعفونى ] أى : احتقرونى  
حين قلت لهم : « يا قوم إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمن ، فاتبعونى  
وأطيعوا أمرى » .

[ وكادوا يقتلونى ] أى : فلا تظن بى تقصيراً [ فلا تشمت بى الأعداء ]  
بنهرى لى ، ومسكك إياى بسوء .

فإن الأعداء ، حريصون على أن يجدوا على عثرة ، أو يطلعوا لى  
على زلة .

[ ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ] فتعاملنى معاملتهم .

فقدم موسى عليه السلام ، على ما استعجل من صنعه بأخيه ، قبل أن  
يعلم براءته ، مما ظنه فيه من التقصير .

و [ قال رب اغفرلى وإخى ] هرون [ وأدخلنا فى رحمتك ] أى : فى  
وسطها ، واجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب ، فإنها حصن حصين ،  
من جميع الشرور ، ونم كل خير وسرور .

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ  
تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

[وأنت أرحم الراحمين] أى : أرحم بنا من كل راحم ، أرحم بنا ،  
من آبائنا ، وأمهاتنا ، وأولادنا ، وأنفسنا .

قال الله تعالى - مبينا حال أهل العجل الذين عبدوه :

[إن الذين اتخذوا العجل] أى : إلهها [سينالهم غضب من ربهم  
وذلة في الحياة الدنيا] كما أغضبوا ربهم واستهانوا بأمره .

[وكذلك نجزي المفتريين] فكل مفتر على الله ، كاذب على شرعه ،  
متقول عليه ما لم يقل ، فإن له نصيباً من الغضب ، من الله ، والذل في  
الحياة الدنيا .

وقد نالهم غضب الله ، حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم ، وأنه لا يرضى  
الله عنهم إلا بذلك .

فقتل بعضهم بعضاً ، وانجلت المعركة ، عن كثير من القتلى <sup>(١)</sup> ثم تاب  
الله عليهم بعد ذلك .

ولهذا ذكر حكاما يدخلون فيه وغيرهم فقال :

[والذين عملوا السيئات] من شرك ، وكبائر ، وصغائر [ثم تابوا من

(١) في الأصل المطبوع ( عن قتلى كثيرة ) ولا شك أنه تعبير غير  
قويم فلذلك أبدلنا الجملة بـ ( عن كثير من القتلى ) .

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى

بعدها [ بأن ندموا على ما مضى ، وأقلعوا عنه ، وعزموا على أن لا يعودوا  
[ وآمنوا ] بالله ، وبما أوجب الله من الإيمان به .

ولا يتم الإيمان ، إلا بأعمال القلوب ، وأعمال الجوارح المترتبة على  
الإيمان ، [ إن ربك من بعدها ] أى : بعد هذه الحالة ، حالة التوبة من  
السيئات والرجوع إلى الطاعات .

[ لغفور ] يغفر السيئات ويمحوها ، ولو كانت ملء قراب الأرض .

[ رحيم ] بقبول التوبة ، والتوفيق لأفعال الخير وقبولها .

[ ولما سكنت عن موسى الغضب ] أى : سكن غضبه ، وتراجعت

نفسه ، وعرف ما هو فيه ، اشتغل بأهم الأشياء عنده .

[ أخذ الألواح ] التى ألقاها ، وهى ألواح عظيمة المقدار ، جليلة

[ وفى نسختها ] أى : مشتملة ومتضمنة [ هدى ورحمة ] أى : فيها الهدى

من الضلالة ، وبيان الحق من الباطل ، وأعمال الخير ، وأعمال الشر ،

والهدى لأحسن الأعمال ، والأخلاق ، والآداب ، ورحمة وسعادة ، لمن

عمل بها ، وعلم أحكامها ومعاييرها .

ولكن ليس كل أحد يقبل هدى الله ورحمته .

وإنما يقبل ذلك وينقاد له ، ويتلقاه بالقبول [ الذين هم لربهم يرهبون ]

أى : يخافون منه ويخشونه .

وأما من لم يخف الله ، ولا القام بين يديه ، فإنه لا يزداد بها ، إلا اعتوا

ونفورا ، وتقوم عليه حجة الله فيها .

[ و ] لما تاب بنو إسرائيل وتراجعوا إلى رشدكم [ اختار موسى

وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ

قومه [ أى : منهم ] سبعين رجلا [ من خيارهم ، ليعتذروا لقومهم عند ربهم ، ووعدهم الله ميقاتاً يحضرون فيه .  
فلما حضروه ، قالوا : ( ياموسى ، أرنا الله جهرة ) ففجروا على الله جراءة كبيرة ، وأساءوا الأدب معه :  
ف [ أخذتهم الرجفة ] فصعقوا وهلكوا .

فلم يزل موسى عليه الصلاة والسلام ، يتضرع إلى الله ويتقبل [ قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل ] أن يحضروا ويكونون في حالة يعتذرون فيها لقومهم ، فصاروا هم الظالمين <sup>(١)</sup> .

[ وإيأى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ] أى : ضعفاء العقول ، سفهاء الأحلام ، فتضرع إلى الله ، واعتذر بأن للتجربين على الله ، ليس لهم عقول كاملة ، تردعهم عما قالوا وفعلوا ، وبأنهم حصل لهم فتنة يخطر <sup>(٢)</sup> بها

(١) قوله ( رب ، لو شئت أهلكتهم ) إلى ( فصاروا هم الظالمين ) .  
هذا التفسير غير منتظم مع الآية فكان الأولى - بل الصواب - للمفسر أن يقول ( لو شئت إهلاكهم أهلكتهم من قبل خروجهم إلى الميقات وأهلكتنى معهم ) وبهذا ينمى التفسير مع الآية ؛ فالمفسر لم يتعرض لكلمة ( وإيأى ) .

(٢) قوله : يخطر هكذا فى الأصل المطبوع ولعل الصواب ( يخطىء ) .

تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا  
وَأَنْتَ خَيْرُ الْغُفَرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً

---

الإنسان ، ويخاف من ذهاب دينه فقال :

[ إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا  
فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ] أى : أنت خير من غفر ، وأولى  
من رحم ، وأكرم من أعطى ، وتفضل .

فكان موسى عليه الصلاة والسلام ، قال : المقصود يارب بالقصد  
الأول لنا كلنا ، هو التزام طاعتك ، والإيمان بك ، وأن من حضره عقله  
ورشده ، وتم<sup>(١)</sup> على ما وهبته من التوفيق ، فإنه لم يزل مستقيماً .

وأما من ضعف عقله ، وسفه رأيه ، وصرفته الفتنة ، فهو الذى فعل  
ما فعل ، لذنبك السببين .

ومع هذا ، فأنت أرحم الراحمين ، وخير الغافرين ، فاغفر لنا  
وارحمنا .

فأجاب الله سؤاله ، وأحياهم من بعد موتهم ، وغفر لهم ذنوبهم .  
وقال موسى فى تمام دعائه [ واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة ] من  
علم نافع ، ورزق واسع ، وعمل صالح .

[ وفى الآخرة حسنة ] ، وهى ما أعد الله لأوليائه الصالحين  
من الثواب .

---

(١) قوله ( وتم ) أى : استمر .

وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءَ  
وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ  
الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ

---

[ إنا هدنا إليك ] أى : رجعنا مقرين بتقصيرنا ، منيبين فى  
جميع أمورنا .

[ قال ] الله تعالى [ عذابي أصيب به من أشاء ] ممن كان شقيا ،  
متعرضاً لأسبابه .

[ ورحمتى وسعت كل شيء ] من العالم العلوى والسفلى ، البر والفاجر ،  
المؤمن والكافر .

فلا مخلوق ، إلا قد وصلت إليه رحمة الله ، وغمره فضله وإحسانه .  
ولكن الرحمة الخاصة ، المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة ، ليست  
لكل أحد .

ولهذا قال عنها : [ فسأكتبها للذين يتقون ] المعاصي ، صغارها ،  
وكبارها .

[ ويؤتون الزكاة ] الواجبة مستحقها [ والذين هم بآياتنا يؤمنون ] .  
ومن تمام الإيمان بآيات الله ، معرفة معناها ، والعمل بمقتضاها .  
ومن ذلك اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، ظاهراً وباطناً ، فى أصول  
الدين ، وفروعه .

[ الذين يتبعون الرسول النبي الأمى ] احتراز عن سائر الأنبياء ، فإن  
المقصود بهذا ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم .

النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ  
يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ

والسياق في أحوال بنى إسرائيل وأن الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، شرط في دخولهم في الإيمان ، وأن المؤمنين به ، المتبعين ، هم أهل الرحمة المطلقة ، التي كتبها الله لهم .

ووصفه بالأمي ، لأنه من العرب ، الأمة الأمية ، التي لا تقرأ ولا تكتب ، وليس عندها قبل القرآن كتاب .

[ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ] باسمه وصفته ، التي من أعظمها وأجلها ، ما يدعو إليه ، وينهى عنه .

وأنه [ يأمرهم بالمعروف ] وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه ، ونفعه .

[ وينهاهم عن المنكر ] وهو : كل ما عرف قبحه في العقول ، والفطر .

فيأمرهم بالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وصلة الأرحام ، وبر الوالدين ، والإحسان إلى الجار ، والمملوك ، وبذل النفع لسائر الخلق ، والصدق ، والعفاف ، والبر ، والنصيحة ، وما أشبه ذلك .

وينهى عن الشرك بالله ، وقتل النفوس بغير حق ، والزنا ، وشرب ما يسكر العقل ، والظلم لسائر الخلق ، والكذب ، والفجور ، ونحو ذلك .

فأعظم دليل يدل على أنه رسول الله ، مادعا إليه ، وأمر به ، ونهى عنه ، وأحله ، وحرمه .

فإنه [ يحل لهم الطيبات ] من المطاعم ، والمشارب ، والمناكح .

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي  
كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ  
الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَسْأَلُهَا النَّاسُ

[ ويحرم عليهم الخبائث ] من المطاعم ، والشارب ، والمناكح ،  
والأقوال ، والأفعال .

[ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ] أى : ومن وصفه  
أن دينه ، سهل سمح ميسر ، لا إصر فيه ، ولا أغلال ، ولا مشقات ،  
ولا تكاليف فقال .

[ فالذين آمنوا به وعزروه ] أى : عظموه وبجلوه [ ونصروه ، واتبعوا  
النور الذى أنزل معه ] وهو القرآن ، الذى يستضاء به فى ظلمات الشك  
والجهالات ويقتدى به ، إذا تعارضت المقالات .

[ أولئك هم المفلحون ] الظافرون ، بخير الدنيا والآخرة ، والناجون  
من شرها .

لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح .

[ وأما من لم يؤمن بهذا النبى الأسمى ، ويعززه ، وينصره ، ولم يتبع  
النور الذى أنزل معه ، فأولئك هم الخاسرون .

ولما دعا أهل التوراة من بنى إسرائيل ، إلى اتباعه ، وكان ربما  
توهم متوهم ، أن الحكم مقصور عليهم ، أتى بما يدل على العموم فقال :  
[ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ] أى : عريكم ،  
وعجميكم ، أهل الكتاب فيكم ، وغيرهم .

إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ  
الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن

[الذى له ملك السموات والأرض] يتصرف فيها بأحكامه الكونية  
والتدابير السلطانية ، وبأحكامه الشرعية الدينية ، التى من جملة : أن  
أرسل إليكم رسولا عظيما .

يدعوكم إلى الله ، وإلى دار كرامته .

ويحذركم من كل ما يباعدكم منه ، ومن دار كرامته .

[ لا إله إلا هو ] أى : لا معبود بحق ، إلا الله وحده لا شريك له ،  
ولا تعرف عبادته إلا من طريق رسوله .

[ يحيى ويميت ] أى : من جملة تدابير : الإحياء والإماتة ، التى  
لا يشاركه فيها أحد .

وقد جعل الله الموت ، جسراً ، ومعبراً ، يعبر الإنسان منه إلى دار  
البقاء ، التى من آمن بها ، صدق الرسول محمدا صلى الله عليه  
وسلم ، قطعا .

[ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ] إيماننا فى القلب ، متضمنا لأعمال  
القلوب والجوارح .

[ الذى يؤمن بالله وكلماته ] ، أى : آمنوا بهذا الرسول المستقيم فى  
عقائده ، وأعماله .

[ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ] فى مصالحكم الدينية والدنيوية ، فإنكم  
إذا لم تتبعوه ، ضلتم ضلالا بعيداً .

قَوْمِ مُوسَى أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَهُمْ  
اِثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ  
أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اِثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ

[ومن قوم موسى أمة] أى : جماعة [يهدون بالحق وبه يعدلون]  
أى : يهدون الناس فى تعليمهم إياهم ، وفتواهم لهم ، ويعدلون به فى الحكم  
بينهم ، فى قضايهم ، كما قال تعالى « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا  
وكانوا بآياتنا يوقنون » .

وفى هذا فضيلة لأمة موسى ، عليه الصلاة والسلام ، وأن الله تعالى ،  
جعل منهم هداة يهدون بأمره .

وكان الإتيان بهذه الآية الكريمة ، فيه نوع احتراز مما تقدم .

فإنه تعالى ، ذكر فيما تقدم ، جملة من معائب بنى إسرائيل ، المنافية  
لكمال المناقضة للهداية .

فربما توهم متوهم ، أن هذا يعم جميعهم ، فذكر تعالى ، أن منهم طائفة  
مستقيمة هادية مهدية .

[وقطعناهم] أى : قسمناهم [اثنى عشرة أسباطا أمما] أى : اثنى  
عشرة قبيلة ، متعارفة ، متولفة ، كل بنى رجل من أولاد  
يعقوب ، قبيلة .

[وأوحينا إلى موسى إذ استسقاها قومه] أى : طلبوا منه أن يدعو  
الله تعالى ، أن يسقيهم ما يشربون منه ، وتشرب منه مواشيهم .

وذلك لأنهم — والله أعلم — فى محل قليل الماء .

كُلُّ أَنَاثٍ مَشْرَبُهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ  
وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا  
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ

---

فأوحى الله لموسى ، إجابة لطلبهم [ أن اضرب بعصاك الحجر ] يحتمل  
أنه حجر معين .

ويحتمل أنه اسم جنس ، يشمل أى حجر كان .

فضربه [ فانبجست ] أى : انفجرت من ذلك الحجر [ اثنتا عشرة عينا ]  
جارية سارحة .

[ قد علم كل أناس مشربهم ] أى : قد قسم على كل قبيلة من تلك  
القبائل الاثنتى عشرة ، وجعل لكل منهم عينا ، فعلموها ، واطمأنوا ،  
واستراحوا من التعب والمزاحمة ، وهذا من تمام نعمة الله عليهم .  
[ وظللنا عليهم الغمام ] فكان يسترهم من حر الشمس .

[ وأنزلنا عليهم المن ] وهو الحلوى .

[ والسلوى ] وهو لحم طير ، من أحسن أنواع الطيور ، وألذها .

فجمع الله لهم ، بين الظلال ، والشراب ، والطعام الطيب ، من الحلوى  
واللحوم ، على وجه الراحة والطمأنينة .

وقيل لهم : [ كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ] حين لم يشكروا  
الله ، ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم .

[ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ] حيث فوتوها كل خير ، وعرضوها  
للشر والنقمة ، وهذا كان مدة لبثهم فى التيه .

وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفِرْ  
لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا  
مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ

[ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية ] أى : ادخلوها لتكونوطنا لكم  
ومسكنا ، وهى « إيلياء <sup>(١)</sup> » [ وكلوا منها حيث شئتم ] أى : قرية كانت  
كثيرة الأشجار ، غزيرة الثمار ، رغيدة العيش ، فلذلك أمرهم الله أن  
يأكلوا منها حيث شاءوا .

[ وقولوا ] حين تدخلون الباب : [ حطة ] أى : احطط عنا خطايانا ،  
واعف عنا .

[ وادخلوا الباب سجدا ] أى : خاضعين لربكم ، مستكينين لعزته ،  
شاكرين لنعمته

فأمرهم بالخضوع ، وسؤال المغفرة ، ووعدهم على ذلك ، مغفرة ذنوبهم  
والثواب العاجل والآجل فقال :

[ نففر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين ] من خير الدنيا والآخرة .

فلم يمثلوا هذا الأمر الإلهى ، بل خالفوا .

[ فبدل الذين ظلموا منهم ] أى : عصوا الله واستهانوا بأمره [ قولا

غير الذى قيل لهم ] فقالوا ، بدل طلب المغفرة ، وقولهم « حطة » ، « حبة  
في شعيرة » .

بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسَلَّمَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً  
الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا  
وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

وإذا بدلوا القول — مع يسره وسهولته — فتبديلهم للفعل من  
باب أولى .

ولهذا دخلوا يزحفون على أستاههم .

[ فأرسلنا عليهم ] حين خالفوا أمر الله وعصوه [ رجزا من السماء ]  
أى : عذابا شديداً ، إما الطاعون وإما غيره ، من العقوبات السماوية .

[ وما ظلمهم الله بعقابه ، وإنما كان ذلك ] بما كانوا يظلمون [ .

[ واسألهم ] أى : اسأل بنى إسرائيل [ عن القرية التى كانت حاضرة  
البحر ] أى : على ساحله ، فى حال تعذيبهم وعقاب الله إياهم .

[ إذ يعدون فى السبت ] وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه  
ولا يصيدوا فيه صيداً ، فابقلاهم الله ، وامتحنهم .

فكانت [ تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ] أى : كثيرة طافية على  
وجه البحر .

[ ويوم لا يسبتون ] أى : إذا ذهب يوم السبت [ لا تأتيتهم ]  
أى : تذهب فى البحر ، فلا يرون منها شيئاً [ كذلك نبلوهم بما كانوا  
يفسقون ] .

ففسقهم ، هو الذى أوجب أن يتليهم الله ، وأن تكون لهم  
هذه الحنة .

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ  
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا

وإلا ، فلو لم يفسقوا ، لعافاهم الله ، ولما عرضهم للبلاء والشر .  
فتحيلوا على الصيد ، فكانوا يحفرون لها حفراً ، وينصبون لها  
الشباك .

فإذا جاءت يوم السبت ، ووقعت في تلك الحفر والشباك ، لم يأخذوها  
في ذلك اليوم .

فإذا جاء يوم الأحد ، أخذوها ، وكثر فيهم ذلك ، وانقسموا  
ثلاث فرق .

معظمهم ، اعتدوا وتجروا ، وأعلنوا بذلك .

وفرقه أعلنت بنهيم ، والإنكار عليهم .

وفرقه اكتفت بإنكار أولئك عليهم ، ونهيم لهم وقالوا :

[ لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ]

كأنهم يقولون : لا فائدة في وعظ من اقتحم محارم الله ، ولم يصغ  
لالنصيح ، بل استمر على اعتدائه وطفيانته ، فإنه لا بد أن يعاقبهم الله ،  
إما بهلاك ، أو عذاب شديد .

فقال الواعظون : نعظهم وننهاهم [ معذرة إلى ربكم ]

أى : لنعذر فيهم .

[ ولعلهم يتقون ] أى : يتركون ما هم فيه من المعصية ، فلا نياس من

هدايتهم ، فربما نجح فيهم الوعظ ، وأثر فيهم اللوم .

نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ

وهذا هو المقصود الأعظم ، من إنكار النكر ، ليكون معذرة ، وإقامة حجة على المأمور النهى ، ولعل الله أن يهديه ، فيعمل بمقتضى ذلك الأمر ، والنهى .

[ فلما نسوا ما ذكروا به ] أى : تركوا ما ذكروا به ، واستمروا على غيبيهم واعتدائهم .

[ نجينا الذين ينهون عن السوء ] وهكذا سنة الله فى عباده ، أن العقوبة إذا نزلت ، نجما منها الآمرون بالمعروف والناهون عن النكر .

[ وأخذنا الذين ظلموا ] وهم الذين اعتدوا فى السبت [ بعذاب بئس ] أى : شديد [ بما كانوا يفسقون ] .

وأما الفرقة الأخرى التى قالت للناهين « لم تعظون قوما الله مهلكهم » .

فاختلف المفسرون فى نجاتهم ، وهلاكهم .

والظاهر ، أنهم كانوا من الناجين ، لأن الله خص الهالك بالظالمين ، وهو لم يذكر ، أنهم ظالمون .

فدل على أن العقوبة ، خاصة بالمعتدين فى السبت .

ولأن الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فرض كفاية .

إذا قام به البعض ، سقط عن الآخرين ، فاكفوا بإنكار أولئك .

ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم [ لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم

مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ

عذاباً شديداً] فأبدوا من غضبهم عليهم ، ما يقتضى أنهم كارهون أشد الكراهة ، لفعلهم ، وأن الله سيعاقبهم أشد العقوبة .

[ فلما عتوا عما نهوا عنه ] أى : قسوا فلم يلينوا ، ولا اعتذروا .

[ قلنا لهم ] قولاً قديراً ، [ كونوا قرود خاسئين <sup>(١)</sup> ] فانقلبوا ياذن الله قرودة ، وأبعدهم الله من رحمته .

ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقى منهم فقال :

[ وإذ تأذن ربك ] أى : أعلم إعلاما ، صريحا .

[ ليعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ] أى : يهينهم ، ويذلهم .

[ إن ربك لسريع العقاب ] لمن عصاه ، حتى إنه يعجل له العقوبة فى الدنيا .

[ وإنه لغفور رحيم ] لمن تاب إليه وأتاب ، يغفر له الذنوب ، ويسترد عليه العيوب ، ويرحمه ، بأن يتقبل منه الطاعات ، ويثيبه عليها بأنواع المثوبات .

وقد فعل الله بهم ما وعدهم به ، فلا يزالون فى ذل وإهانة ، تحت حكم غيرهم ، لا تقوم لهم راية ، ولا ينصر لهم علم .

(١) خاسئين أى : ذليلين ، حقيرين .

أَمَّا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ  
وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا  
الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ

[ وقطعناهم في الأرض أمما ] أى : فرقناهم ومزقناهم في الأرض ، بعد  
ما كانوا مجتمعين .

[ منهم الصالحون ] القائمون بحقوق الله ، وحقوق عباده .

[ ومنهم دون ذلك ] أى : دون الصلاح ، إما مقتصدون ، وإما  
الظالمون لأنفسهم .

[ وبلوئناهم ] على عادتنا وسنقنا ، [ بالحسنات والسيئات ]  
أى : باليسر والعسر .

[ لعلهم يرجعون ] عما هم عليه مقيمون ، من الردى ، ويراجعون  
ما خلقوا له من الهدى ، فلم يزالوا بين صالح ، وطالح ، ومقتصد .

[ فخلف من بعدهم خلف ] زاد شرهم [ ورثوا ] بعدهم [ الكتاب ]  
وصار المرجع فيه إليهم ، وصاروا يتصرفون فيه بأهوائهم ، وتبذل لهم  
الأموال ، ليفتقروا ويحكموا ، بغير الحق ، وفشت فيهم الرشوة .

[ يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون ] مقرين بأنه ذنب وأنهم ظلمة :  
[ سيفغر لنا ] وهذا قول خال من الحقيقة ، فإنه ليس استغفاراً وطلباً  
للمغفرة على الحقيقة .

فلو كان ذلك ، لندموا على ما فعلوا ، وعزموا على أن لا يعودوا .

ولكنهم - إذا أتاهم عرض آخر ، ورشوة أخرى - يأخذونه .

يَاتِهِمْ عَرْضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ  
أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ  
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ

فاشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ، واستبدلوا الذى هو أدنى ، بالذى هو خير .

قال الله تعالى - فى الإنكار عليهم ، وبيان جرائمهم - :  
[ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ] .  
فما بالهم يقولون عليه غير الحق ، اتباعاً لأهوائهم ، وميلاً مع مطامعهم .  
[ و ] الحال أنهم قد [ درسوا ما فيه ] فليس عليهم فيه إشكال ، بل  
قد أتوا أمرهم متعمدين ، وكانوا فى أمرهم مستبصرين .  
وهذا أعظم للذنوب ، وأشد للوم ، وأشنع للعقوبة .  
وهذا من نقص عقولهم ، وسفاهة رأيهم ، بإيثار الحياة الدنيا على  
الآخرة ، ولهذا قال :

[ والدار الآخرة خير للذين يتقون ] ما حرم الله عليهم ، من المآكل  
التي تصاب ، وتؤكل رشوة على الحكم ، بغير ما أنزل الله ، وغير ذلك  
من أنواع المحرمات .

[ أفلا تعقلون ] أي : أفلا تكون لكم عقول توازن بين ما ينبغى  
إيثاره ، وما ينبغى الإيثار عليه ، وما هو أولى بالسعى إليه ، والتقديم له  
على غيره .

وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ تَقْنَا  
الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ  
بِقُوَّةٍ وَآذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

نخاضية العقل ، النظر للعواقب .

وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع ، يفوت نعيما عظيما باقيا فآنى له  
العقل والرأى !!! .

وإنما العقلاء حقيقة ، من وصفهم الله بقوله [والذين يمسكون بالكتاب]  
أى : يتمسكون به علما وعملا ، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار ، التى  
علمها ، أشرف العلوم .

ويعلمون بما فيها من الأوامر ، التى هى قررة العيون ، وسرور القلوب ،  
وأفراح الأرواح ، وصلاح الدنيا والآخرة .  
ومن أعظم ما يجب التمسك به من الأمور ، إقامة الصلاة ،  
ظاهرا وباطنا .

ولهذا خصها بالذكر لفضلها ، وشرفها ، وكونها ميزان الإيمان .  
وإقامتها ، داعية لإقامة غيرها من العبادات .

ولما كان عملهم كله إصلاحا ، قال تعالى : [إنا لانضيع أجر المصلحين]  
فى أقوالهم وأعمالهم ، ونياتهم ، مصلحين ، لأنفسهم ، ولنغيرهم .

وهذه الآية ، وما أشبهها ، دلت على أن الله بعث رسله ، عليهم الصلاة  
والسلام ، بالصالح لا بالفساد ، وبالمنافع لا بالمضار ، وأنهم بعثوا ، بصالح  
الدارين ، فكل من كان أصلح ، كان أقرب إلى اتباعهم .

\* ثم قال تعالى [ وإذ نتقنا<sup>(١)</sup> الجبل فوقهم ] حين امتنعوا من قبول -  
ما فى التوراة .

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ  
وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن

فألزمهم الله العمل وتنق فوق رؤوسهم الجبل ، فصار فوقهم [ كأنه ظله ،  
وظنوا أنه واقع بهم ] وقيل لهم [ خذوا ما آتيناكم بقوة ] أى :  
بجد واجتهاد .

[ واذكروا ما فيه ] دراسة ومباحثة ، واتصافا بالعمل [ لعلكم تتقون ]  
إذا فعلتم ذلك .

\* يقول تعالى : وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم [  
أى : أخرج من أصلابهم ، ذريتهم ، وجعلهم يتناسلون ، ويتوالدون ،  
قرناً بعد قرن .

[ و ] حين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم [ أشهدهم  
على أنفسهم ألسن بربكم ] أى : قررهم ، بإثبات ربوبيته ، بما أودعه  
في فطرتهم ، من الإقرار ، بأنه ربهم ، وخالقهم ، ومليكهم .

قالوا : « بلى » قد أقررنا بذلك ، فإن الله تعالى ، فطر عباده على الدين  
الحنيف القيم .

فكل أحد ، فهو مفطور على ذلك ، ولكن الفطرة قد تغير ، وتبدل ،  
بما يطرأ على العقول من العقائد الفاسدة ، ولهذا [ قالوا بلى شهدنا ، أن  
تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ] .

أى : إنما امتحناكم ، حتى أقررتم ، بما تقرر عندكم ، من أن الله تعالى ،  
ربكم ، خشية أن تنكروا يوم القيامة ، فلا تقروا بشيء من ذلك ، وتزعمون

تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا  
إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا

أن حجة الله ، ما قامت عليكم ، ولا عندكم بها علم ، بل أنتم غافلون عنها  
لا هون .

فاليوم ، قد انتقطت حجبتكم ، وثبتت الحجة البالغة لله ، عليكم .  
أو تحتجون أيضاً بحجة أخرى ، فتقولون : [ إنما أشرك آبائنا  
من قبل وكنا ذرية من بعدهم ] فخذونا حذوهم ، وتبعناهم في باطلهم .  
[ أفهللكننا بما فعل المبطلون ] ، فقد أودع الله في فطركم ، ما يدللكم  
على أن ما مع آبائكم ، باطل ، وأن الحق ما جاءت به الرسل ، وهذا يقاوم  
ما وجدتم عليه آباءكم ، ويعلو عليه .

نعم قد يعرض للعبد من أقوال آبائه الضالين ، ومذاهبهم الفاسدة ،  
ما يظنه هو الحق ، وما ذاك إلا لإعراضه ، عن حجج الله وبياناته ، وآياته  
الأفقية ، والنفسية .

فإعراضه ذلك ، وإقباله على ما قاله المبطلون ، ربما صيره بحالة يفضل بها  
الباطل على الحق .

هذا هو الصواب في تفسير هذه الآيات .

وقد قيل : إن هذا يوم أخذ الله الميثاق على ذرية آدم ، حين استخرجهم  
من ظهره ، وأشهدهم على أنفسهم ، فشهدوا بذلك .

فاتحج عليهم بما أمرهم به في ذلك الوقت ، على ظلمهم ، في كفرهم ،  
وعنادهم في الدنيا والآخرة .

بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ  
يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

ولكن ليس فى الآفة؁ ما فدل على هذا؁ ولا له مناسبة؁ ولا تقتضفه  
حكمة الله تعالى .

والواقع شاهد بذلك .

فإن هذا العهد والميثاق؁ الذى ذكروا؁ أنه حين أخرج الله ذرية آدم  
من ظهره؁ حين كانوا فى عالم كالذر؁ لا فذكره أحد؁ ولا فمخطر بفال آدمى .  
فكف فحتف الله عليهم بأمر؁ ففس عندهم به فبر؁ ولا له عفن  
ولا أثر؟؟!! .

ولهذا لما كان هذا أمراً واضعاً جلياً؁ قال تعالى :

[ وكذلك ففصل الآفات ] أى : فبنفها ونوضحها [ ولعلمهم فرجعون ]  
إلى ما أودع الله فى فطرم؁ وإلى ما عاهدوا الله علىه؁ ففرتدعوا  
عن القبائح .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ

\* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : [واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا] أى : علمناه كتاب الله ، فصار العالم الكبير ، والخبير النحرير .  
[فانسلك منها ، فأتبعه الشيطان] أى : انسلك من الاتصاف الحقيقي ، بالعلم بآيات الله ، فإن العلم بذلك ، يصير صاحبه متصفاً بكمال الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ويرقى إلى أعلى الدرجات ، وأرفع المقامات .  
فترك هذا ، كتاب الله وراء ظهره ، ونبتذ الأخلاق ، التي يأمر بها الكتاب ، وخلعها كما يخلع اللباس .

فلما انسلك منها ، أتبعه الشيطان ، أى : تسلط عليه ، حين خرج من الحصن الحصين ، وصار إلى أسفل سافلين ، فأزه<sup>(١)</sup> إلى المعاصي أزاً .  
[فكان من الظالمين] ، بعد أن كان من الراشدين المرشدين .  
وهذا ، لأن الله تعالى خذله ، ووكله إلى نفسه ، فلهذا قال تعالى :  
[ولو شئنا لرفعناه بها] بأن نوقفه للعمل بها ، فيرتفع في الدنيا والآخرة ، فيتحصن من أعدائه .

[ولكنه] فعل ما يقتضى الخذلان ، إذ أخلد<sup>(٢)</sup> إلى الأرض [أى : إلى الشهوات السفلية ، والمقاصد الدنيوية .  
[واتبع هواه] وترك طاعة مولاه .

(١) أزه . أى : أغراه بالمعاصي ، وهيجه ودفعه إليها .  
(٢) أخلد . أى : ركن إلى الأرض ورضى بالدنيا ظاناً أنه يدوم ويخلد فيها .

إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾  
سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا

[ فثله ] في شدة حرصه على الدنيا ، وانقطاع قلبه إليها .

[ كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ]<sup>(١)</sup> أى : لا يزال لاهثاً في كل حال ، وهذا لا يزال حريصاً ، حرصاً قاطعاً قلبه ، لا يسد فاقته شيء من الدنيا .

[ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ] بعد أن ساقها الله إليهم ، فلم ينقادوا لها ، بل كذبوا بها ، وردوها ، لهوانهم على الله واتباعهم لأهوائهم ، بغير هدى من الله .

[ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ] في ضرب الأمثال ، وفي العبر والآيات .

فإذا تفكروا ، علموا ، وإذا علموا ، عملوا .

\* [ ساء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ] .

أى : ساء وقبح ، مثل من كذب بآيات الله ، وظلم نفسه ، بأنواع المعاصي ، فإن مثلهم ، مثل السوء .

وهذا الذى آتاه الله آياته ، يحتمل أن المراد شخص معين ، قد كان منه ، ما ذكره الله ، فقص الله قصة تبينها للعباد .

(١) يلهث . أى : يدفع لسانه ويخرجه بالنفس الشديد .

يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ  
هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

ويحتمل أن المراد بذلك ، أنه اسم جنس ، وأنه شامل لكل من آتاه  
الله آياته ، فانسلك منها .

وفي هذه الآيات ، الترغيب في العمل بالعلم ، وأن ذلك رفعة من الله  
لصاحبه ، وعصمة من الشيطان .

والترهيب من عدم العمل به ، وأنه نزول إلى أسفل سافلين ، وتسليط  
للشيطان عليه .

وفيه أن اتباع الهوى ، وإخلاق العبد إلى الشهوات ، يكون سبباً  
للخذلان .

\* ثم قال — مبيناً أنه المنفرد بالهداية والإضلال — :

[ من يهد الله ] بأن يوفقه للخيرات ، ويعصمه من المكروهات ، ويعلمه  
ما لم يكن يعلم .

[ فهو المهتدى ] حقاً لأنه آثر هدايته تعالى .

[ ومن يضل ] فيخذه ولا يوفقه للخير [ فأولئك هم الخاسرون ]

لأنفسهم وأهلهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين .

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ  
قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ  
لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ  
الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾

\* يقول تعالى - مبيناً كثرة الغاوين الضالين ، المتبعين إبليس اللعين - :

[ ولقد ذرأنا ] أى : أنشأنا وبثنا [ لجهنم كثيراً من الجن والإنس ]  
صارت البهائم أحسن حالة منهم .

لهم قلوب لا يفقهون بها [ أى : لا يصل إليها فقه ولا علم ، إلا مجرد  
قيام الحجة .

[ ولهم أعين لا يبصرون بها ] ما ينفعهم ، بل فقدوا منفعتها وفائدتها .

[ ولهم آذان لا يسمعون بها ] سماعاً يصل معناه إلى قلوبهم .

[ أولئك ] الذين بهذه الأوصاف القبيحة [ كالأنعام ] أى : البهائم ،  
التي فقدت العقول .

وهؤلاء آثروا ما يفنى ، على ما يبقى ، فسلبوا خاصية العقل .

[ بل هم أضل ] من البهائم ، فإن الأنعام ، مستعملة فيما خلقت له .

ولها أذهان ، تدرك بها ، مضرتها من منفعتها ، فلذلك كانت أحسن

حالا منهم .

[ وأولئك هم الغافلون ] الذين غفلوا عن أنفع الأشياء .

غفلوا عن الإيمان بالله ، وطاعته ، وذكره .

وَاللّٰهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ  
يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

خلقت لهم الأفئدة والأسماع والأبصار ، لتكون عوناً لهم على القيام  
بأوامر الله وحقوقه ، فاستعانوا بها على ضد هذا المفصود .

فهؤلاء حقيقون ، بأن يكونوا من ذراً<sup>(١)</sup> الله للجهنم وخلقهم لها .  
فخلقهم للنار ، وبأعمال أهلها ، يعملون .

وأما من استعمل هذه الجوارح في عبادة الله ، وانصبغ قلبه بالإيمان  
بالله ومحبته ، ولم يغفل عن الله ، فهؤلاء ، أهل الجنة ، وبأعمال أهل  
الجنة يعملون .

\* هذا بيان ، لعظيم جلاله ، وسعة أوصافه ، بأن له الأسماء الحسنى ،  
أى : له كل اسم حسن .

وضابطه : أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة ، وبذلك  
كانت حسنى .

فإنها لو دلت على غير صفة ، بل كانت علماً محضاً ، لم تكن حسنى .  
وكذلك لو دلت على صفة ، ليست بصفة كمال ، بل إما صفة نقص  
أو صفة منقسمة إلى المدح والقدح ، لم تكن حسنى .

فكل اسم من أسمائه ، دال على جميع الصفة ، التى اشتق منها ، مستغرق  
لجميع معناها .

وذلك نحو « العليم » الدال على أن له علماً محيطاً عاماً لجميع الأشياء .

فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

و « الرحيم » الدال على أن له رحمة عظيمة ، واسعة لكل شيء .

و « القدير » الدال على أن له قدرة عامة ، لا يعجزها شيء ، ونحو ذلك .

ومن تمام كونها « حسنى » أنه لا يدعى إلا بها ، ولذلك قال :  
[ فادعوه بها ] <sup>(١)</sup> وهذا شامل لدعاء العبادة ، ودعاء المسألة .

فيدعى في كل مطلوب ، بما يناسب ذلك المطلوب .

فيقول الداعى مثلاً : اللهم اغفر لى وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم ،  
وتب علىّ ياتوب ، وارزقنى يارزاق ، والطف بى يالطيف ونحو ذلك .

وقوله [ وذروا الذين يلحدون <sup>(١)</sup> ] فى أسمائه سيجرون ما كانوا يعملون ]

---

( ١ ) قوله [ فادعوه بها ] أى : ادعوا ربكم بأسمائه ، على حسب حاجتكم ، فإن أردتم الرزق ، قولوا : اللهم باسمك الرزاق ارزقنا . وإذا أردتم النصر قولوا : باسمك الناصر ، انصرنا ، وهكذا فإن لكل اسم من أسماء الله الحسنى خاصية ، يدعى به الله ويسأل ، والمراد : التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى حسب تنوع الحاجات هذا هو الظاهر ، والأوضح فى تفسير هذه الآية .

( ٢ ) يلحدون . أى : يميلون وينحرفون عن الحق .

﴿وَمِنْ خَلْقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١)

أى : عقوبة وعذابا على إلحادهم فى أسمائهم .

وحقيقة الإلحاد ، النيل بها ، عما جعلت له .

إما بأن يسمى بها ، من لا يستحقها ، كنسمة المشركين بها لآلهم .  
وإما بنفى معانيها وتحريفها ، وأن يجعل لها معنى ، ما أراده الله  
ولا رسوله .

وإما أن يشبه بها غيرها .

فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها ، ويحذر الملحدون فيها :

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم « أن لله تسعة وتسعين  
اسما ، من أحصاها دخل الجنة » .

\* وقوله : [ ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ]

أى : ومن جملة من خلقنا ، أمة فاضلة ، كاملة فى نفسها ، مكملة لغيرها ،  
يهدون أنفسهم وغيرهم ، بالحق ، فيعلمون الحق ، ويعملون به ، ويعلمونه ،  
ويدعون إليه وإلى العمل به .

[ وبه يعدلون ] بين الناس فى أحكامهم ، إذا حكموا فى الأموال ،  
والدماء والحقوق ، والمقاتلات ، وغير ذلك .

وهؤلاء أئمة الهدى ، ومصاييح الدجا .

وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ،  
والتواصى بالصبر .

وهم الصديقون الذين مرتبتهم ، تلى مرتبة الرسالة .

وهم فى أنفسهم مراتب متفاوتة كل بحسب حاله ، وعلو منزلته .

فسبحان من يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ

\* أى : والذين كذبوا بآيات الله ، الدالة على صحة ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، من الهدى ، فردوها ولم يقبلوها .

[ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ] بأن الله يدر لهم الأرزاق [ وأملى لهم ] أى : أمهلهم ، حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون ، ولا يعاقبون ، فيزدادوا كفراً وطفياناً ، وشرّاً إلى شرم .

وبذلك تزيد عقوبتهم ، ويتضاعف عذابهم ، فيضرون أنفسهم من حيث لا يعلمون ، ولهذا قال : [ إن كيدي متين ] أى : قوى بليغ .

\* [ أو لم يتفكروا ما بصاحبهم ] صلى الله عليه وسلم [ من جنة ] أى : أو لم يعملوا أفكارهم ، وينظروا : هل فى صاحبهم ، الذى يعرفونه ، ولا يخفى عليهم من حاله شيء ، هل هو مجنون .

فلينظروا فى أخلاقه وهديه ، ودله وصفاته ، وينظروا فى مادعا إليه .

فلا يجدون فيه من الصفات ، إلا أكملها ، ولا من الأخلاق إلا أتمها ، ولا من العقل والرأى ، إلا ما فاق به العالمين ، ولا يدعو إلا لكل خير ، ولا ينهى إلا عن كل شر .

أفبهذا يا أولى الأبواب جنة !!! أم هو الإمام العظيم ، والناصح المبين ، والملاجد الكريم ، والرووف الرحيم ؟ !! .

يَنْظُرُوا فِي مَلَكَوَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ  
وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ أَقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ  
يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ  
يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

ولهذا قال : [ إن هو إلا نذير مبين ] أى : يدعو الخلق إلى ما ينجيهم  
من العذاب ، ويحصل لهم الثواب .  
\* [ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ] فإنهم إذا نظروا  
إليها ، وجدوها أدلة على توحيد ربها ، وعلى ماله من صفات الكمال .  
[ و ] كذلك لينظروا إلى جميع [ ما خلق الله من شيء ] فإن جميع  
أجزاء العالم ، تدل أعظم دلالة ، على الله وقدرته ، وحكمته ، وسعة رحمته ،  
وإحسانه ، ونفوذ مشيئته ، وغير ذلك من صفاته العظيمة ، الدالة على تفرد  
بالخلق ، والتدبير ، الموجبة لأن يكون هو المعبود المحمود ، المسبح الموحد المحبوب .  
وقوله [ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ] أى : لينظروا في خصوص  
حالهم ، ولينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم ، ويفجأهم الموت ، وهم  
في غفلة معرضون ، فلا يتمكنون حينئذ ، من استدراك الفارط .  
[ فبأي حديث بعده يؤمنون ] أى : إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب  
الجليل ، فأى حديث يؤمنون به ؟ !! أبكتب الكذب والضلال ؟ أم  
بحديث كل مفتر دجال ؟ .

ولكن الضال لا حيلة فيه ، ولا سبيل إلى هدايته .  
ولهذا قال تعالى [ من يضل الله فلا هادى له ، ويذرهم في طغيانهم يعمهون ]  
أى : يتحيرون ويترددون ، فلا يخرجون من طغيانهم ، ولا يهتدون إلى حق .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا  
عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا

\* يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: [يسألونك] أى: المكذبون  
لك ، المتعنتون [عن الساعة أيان مرساها] أى : متى وقتها ، الذى تجيء  
به ، ومتى تحل بالخلق ؟ .

[قل إنما علمها عند ربى] أى : إنه تعالى المختص بعلمها .  
[لا يجليها لوقتها إلا هو] أى : لا يظهرها لوقتها الذى قدر أن تقوم  
فيه ، إلا هو .

[ثقلت في السموات والأرض] أى : خفي علمها على أهل السموات  
والأرض ، واشتد أمرها أيضا عليهم ، فهم من الساعة مشفقون .  
[لا تأتاكم إلا بغتة] أى : فجأة من حيث لا يشعرون ، لم يستعدوا لها ،  
ولم يتهيأوا لها .

[يسألونك كأنك حفي<sup>(١)</sup> عنها] أى : هم حريصون على سؤالك  
عن الساعة ، كأنك مستحف<sup>(٢)</sup> عن السؤال عنها ، ولم يعلموا أنك —  
لكمال علمك بربك ، وما ينفع السؤال عنه — غير مبال بالسؤال الخالى  
من المصلحة ، المتعذر علمه ، فإنه لا يعلمها نبي مرسل ، ولا ملك مقرب .

( ١ ) حفي . أى : عالم بها ، ومستقص في السؤال عنها .  
( ٢ ) قوله ( مستحف ) المراد : يسألونك هذا السؤال كأنك حريص على  
العلم بها ، ومستقص بالسؤال عنها ، كما يستفاد من المختار من الصحاح .

عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ  
لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ

---

وهي من الأمور التي أخفاها عن الخلق ، لكمال حكمته ، وسعة علمه .

[ قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ] .

فذلك حرصوا ، على ما لا ينبغي الحرص عليه .

وخصوصاً مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم ، ويدعون  
ما يجب عليهم ، من العلم ، ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يدركه ،  
ولا هم مطالبون بعلمه .

\* [ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ] فإني فقير مدبر ، لا يأتيني خير ،  
إلا من الله ، ولا يدفع عني الشر ، إلا هو ، وليس لي من العلم إلا ما علمني  
الله تعالى .

[ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ] .

أي : لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع ، ولحذرت  
من كل ما يفضي إلى سوء ومكرهه ، لعلمي بالأشياء قبل كونها ، وعلى  
بما تفضي إليه .

ولكني — لعدم علمي — قد ينالني ما ينالني من السوء ، وقد يفوتني  
ما يفوتني ، من مصالح الدنيا ومنافعها .

فهذا أول دليل ، على أني لا أعلم لي بالغيب .

لَأَسْتَكْثِرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ  
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

[إن أنا إلا نذير] أُنذِر بالعقوبات الدينية والدينية ، والأخروية ،  
وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك ، وأحذر منها .

[وبشير] بالثواب العاجل ، ببيان الأعمال الموصلة إليه ، والترغيب فيها .  
ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والفتنة ، وإنما ينتفع بذلك ،  
ويقبله ، المؤمنون .

وهذه الآيات الكريمات ، مبينة جهل من يقصد النبي صلى الله عليه وسلم ،  
ويدعوه لحصول نفع ، أو دفع ضرر .

فإنه ليس بيده شيء من الأمر ، ولا ينفع من لم ينفعه الله ، ولا يدفع  
الضرر ، عن من لم يدفعه الله عنه ، ولا له من العلم ، إلا ما علمه الله .

وإنما ينفع ، من قبل ما أرسل به ، من البشارة والفتنة ،  
وعمل بذلك .

فهذا نفعه عليه السلام ، الذي فاق نفع الآباء والأمهات ، والأخلاء  
والإخوان ، بما حث العباد على كل خير ، وحذرهم عن كل شر ، وفيه لهم ،  
غاية البيان والإيضاح .

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا  
زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ  
فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ  
الشَّاكِرِينَ﴾ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا

\* أى : [ هو الذى خلقكم ] أيها الرجال والنساء ، المنتشرون فى الأرض  
على كثرتكم وتفرقكم .

[ من نفس واحدة ] وهو : آدم أبو البشر صلى الله عليه وسلم .

[ وجعل منها زوجها ] أى : خلق من آدم زوجته حواء [ ليسكن إليها ]  
لأنها إذا كانت منه ، حصل بينهما من المناسبة والموافقة ، ما يقتضى سكون  
أحدهما إلى الآخر ، فانقاد كل منها إلى صاحبه ، بزمام الشهوة .

[ فلما تغشاهما ] أى تجلها بجماعها لها قدر البارئ أن يوجد من تلك  
الشهوة ، وذلك الجماع ، النسل ، وحينئذ [ حملت حملاً خفياً ] وذلك فى  
ابتداء الحمل ، لا تحس به الأنتى ، ولا يثقلها .

[ فلما ] استمرت و [ أثقلت ] به حين كبر فى بطنها ، فحينئذ صار فى  
قلوبهما الشفقة على الولد ، وعلى خروجه حياً ، صحيحاً ، سالماً  
لا آفة فيه .

لذلك [ دعوا الله ربهما لئن آتيتنا ] ولداً [ صالحاً ] أى : صالح الخلقة  
تامها ، لا نقص فيه [ لنكونن من الشاكرين ] .

[ فلما آتاها صالحاً ] على وفق ما طلبا ، وتمت عليهما النعمة فيه [ جعلاه  
شركاء فيما آتاها ] أى : جعل الله شركاء فى ذلك الولد ، الذى انفرد الله

ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ  
شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ

---

بإيجاده ، والنعمة به ، وأقرّ به أعين والديه ، فعبداه لغير الله .

إما أن يسمياه بعبد غير الله كـ « عبد الحارث » و « عبد العزى ،  
و « عبد الكعبة » ونحو ذلك .

أو يشركا في الله في العبادة ، بعد ما منّ الله عليهما بما منّ به ، من  
النعم التي لا يحصيها أحد من العباد .

وهذا انتقال من النوع إلى الجنس ، فإن أول الكلام ، في  
آدم وحواء .

ثم انتقل الكلام في الجنس .

ولا شك أن هذا موجود في الذرية كثيراً ، فلذلك قرره الله على بطلان  
الشرك ، وأنهم في ذلك ، ظالمون ، أشد الظلم ، سواء كان الشرك  
في الأقوال ، أم في الأفعال .

فإن الله ، هو الخالق لهم ، من نفس واحدة ، الذي خلق منها زوجها  
وجعل لهم من أنفسهم أزواجا ، ثم جعل بينهم من المودة والرحمة ، ما يسكن  
بعضهم إلى بعض ، وبآلهه ، وبلتذ به .

ثم هدام إلى مابه تحصل الشهوة واللذة ، والأولاد ، والنسل .

ثم أوجد الذرية في بطون الأمهات ، وقتا موقوتا ، تشوف إليه نفوسهم  
ويدعون الله أن يخرجهم سويا صحيحا ، فآثم الله عليهم النعمة وأنالهم  
مطلوبهم .

يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ  
عَلَيْكُمْ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾

أفلا يستحق أن يعبدوه ، ولا يشركوا في عبادته أحداً ، ويخلصوا  
له الدين .

ولكن الأمر جاء على العكس ، فأشركوا بالله [ ما لا يخلق شيئا وهم  
يخلقون . ولا يستطيعون لهم ] أى : لعابديها [ نصرا ولا أنفسهم  
ينصرون ] .

فإذا كانت لا تخلق شيئا ، ولا مثقال ذرة ، بل هي مخلوقة ، ولا تستطيع  
أن تدفع المكروه عن من يعبدها ، ولا عن أنفسها فكيف تتخذ مع  
الله آلهة ؟ !!

إن هذا إلا أظلم الظلم ، وأسفه السفه .

\* [ وإن تدعوه ] أى : وإن تدعوا ، أيها المشركون هذه الأصنام ،  
التي عبدتموها من دون الله [ إلى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم أَدْعَوْتُكُمْ  
أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ] .

فصار الإنسان أحسن حالة منها ، لأنها لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تهدي  
ولا تهدى .

وكل هذا ، إذا تصوره اللبيب العاقل تصوراً مجرداً ، جزم ببطلان  
إلهيتها ، وسفاهة من عبدها .

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ  
فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ  
يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ  
بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا

\* وهذا من نوع التحدى للمشركين العابدين للأوثان .

يقول تعالى [ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ]  
أى : لافرق بينكم وبينهم ، فكلكم عبيد لله مملوكون .

فإن كنتم كما تزعمون صادقين ، فى أنها تستحق من العبادة شيئا  
[ فادعوهم فليستجيبوا لكم ] فإن استجابوا لكم ، وحصلوا مطلوبكم وإلا  
تبين ، أنكم كاذبون فى هذه الدعوى ، مفترون على الله أعظم الفرية .

وهذا لا يحتاج إلى تبين فيه ، فإنكم إذا نظرتم إليها وجدتم صورتها ،  
دالة على أنه ليس لديها من النفع شئ .

فليس لها أرجل تمشى بها ، ولا أيد تبطش بها ، ولا أعين تبصر بها ،  
ولا آذان تسمع بها ، فهى عادمة لجميع الآلات والقوى ، الموجودة فى  
الإنسان .

فإذا كانت لا تجيبكم إذا دعوتوها ، فهى عباد أمثالكم ، بل أنتم  
أكمل منها ، وأقوى على كثير من الأشياء ، فلا شئ عبدتموها .

[ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ] أى : اجتمعوا  
أنتم وشركاؤكم ، على إيقاع سوء والمكرهه بى ، من غير إهمال  
ولا إنظار .

فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ  
يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾

---

فإنكم غير بالعين لشيء من المكروه بي .

[ إن ولي الله ] الذى يتولانى ، فيجلب لى المنافع ويدفع عنى المضار .

[ الذى نزل الكتاب ] الذى فيه الهدى ، والشفاء ، والنور .

وهو من توليه وتربيته لعباده الخاصة الدينية .

[ وهو يتولى الصالحين ] الذين صلحت نياتهم وأعمالهم ، وأقوالهم ،

كما قال تعالى « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » .

فالؤمنون الصالحون — لما تولوا ربهم بالإيمان والتقوى ، ولم يتولوا

غيره ، ممن لا ينفع ، ولا يضر — تولاهم الله ، ولطف بهم ، وأعانهم على

ما فيه الخير والمصلحة ، فى دينهم ، ودنياهم ، ودفع عنهم — بإيمانهم —

كل مكروه ، كما قال تعالى « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » .

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصَرَكَمْ  
وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا  
وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

\* وهذا أيضاً في بيان عدم استحقاق هذه الأصنام ، التي يعبدونها ، من دون الله ، شيئاً من العبادة ، لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار ، في نصر أنفسها ، ولا في نصر عابديها ، وليس لها قوة العقل والاستجابة .  
فلو دعوتها إلى الهدى ، لم تهتد ، وهي صور لاهية فيها .

فترام ينظرون إليك ، وهم لا يبصرون حقيقة ، لأنهم صوروها على صور الحيوانات ، من الآدميين أو غيرهم ، وجعلوا لها أبصاراً ، وأعضاء .

فإذا رأيته ، قلت : هذه حية ، فإذا تأملت ، عرفت أنها جمادات ، لا حراك بها ، ولا حياة .

فبأي رأي اتخذها المشركون آلهة مع الله ؟

ولأي مصلحة ، أو نفع ، عكفوا عندها ، وتقربوا لها ، بأنواع العبادات ؟

فإذا عرف هذا ، عرف أن المشركين وآلهتهم التي عبدوها ، لو اجتمعوا ، وأرادوا أن يكيدوا ، من تولاه فاطر السموات والأرض ، متولى أحوال عباده الصالحين ، لم يقدر على كيدهم ، بمنقال ذرة من الشر ، لكمال عجزهم وعجزها ، وكمال قوة الله واقتداره ، وقوة من احتسب بجلاله ، وتوكل عليه .

## ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١٩٩)

وقيل : إن معنى قوله [ وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ] أن الضمير يعود إلى المشركين المكذبين لرسول الله صلى عليه وسلم .

فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول الله ، نظر اعتبار ، يتبين به الصادق من الكاذب .

ولكنهم لا يبصرون حقيقتك ، وما يتوسمه المتوسمون فيك ، من الجلال والكمال ، والصدق .

\* هذه الآية جامعة ، لحسن الخلق مع الناس ، وما ينبغى في معاملتهم . فالذى ينبغى أن يعامل به الناس ، أن يأخذ العفو ، أى : ما سمحت به أنفسهم ، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق .

فلا يكلفهم ، مالا تسمح به طبائعهم ، بل يشكر من كل أحد ، ما قابله به ، من قول ، وفعل ، جميل ، أو ما هو دون ذلك ، ويتجاوز عن تقصيرهم ويفض طرفه عن نقصهم .

ولا يتكبر على الصغير لصغره ، ولا ناقص العقل لنقصه ، ولا الفقير لفقره .

بل يعامل الجميع ، باللطف ، والمقابلة بما تقضيه الحال ، وتنشرح له صدورهم .

[ وأمر بالعرف ] أى : بكل قول حسن ، وفعل جميل ، وخلق كامل للقريب والبعيد .

﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنْ

فاجعل ما يأتى إلى الناس منك ، إما تعليم علم ، أو حثا على خير ، من صلة رحم ، أو برّ والدين ، أو إصلاح بين الناس ، أو نصيحة نافعة ، أو رأى مصيب ، أو معاونة على بر وتقوى ، أو زجر عن قبيح ، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية ، أو دنيوية .

ولما كان لابد من أذية الجاهل ، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل ، بالإعراض عنه ، وعدم مقابله بجهله .

فمن آذاك ، بقوله ، أو فعله ، لا تؤذه ، ومن حرمك ، لا تحرمه ، ومن قطعك ، فصله ، ومن ظلمك فاعدل فيه .

وأما ما ينبغى أن يعامل به العبد شياطين الجن ، فقال تعالى : [ وإما ينزعك ] إلى [ ثم لا يقصرون ] .

\* أى : أى وقت ، وفى أى حال [ ينزعك من الشيطان نزع ] أى : تحس منه بوسوسة ، وتثبيط عن الخير ، أو حث على الشر ، وإيعاز به . [ فاستعذ بالله ] أى : التجئ واعتصم بالله ، واحتم بحماه [ إنه سميع ] لما تقول .

[ عليم ] بنيتك وضعفك ، وقوة التجائلك له ، فسيحملك من فتنه ، ويقيك من وسوسته ، كما قال تعالى : « قل أعوذ برب الناس » إلى آخر السورة .

ولما كان العبد ، لابد أن يفعل وينال منه الشيطان ، الذى لا يزال مرابطا ، ينتظر غرته وغفلته ، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين ، وأن المتقى — إذا أحس بذنب ، ومسه طائف من الشيطان ، فأذنب بفعل محرم

الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُنْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ  
فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾  
وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِنَايَةٍ قَالُوا لَوْلَا أُجْتَبِئَتْهَا قُلُوبُنَا إِنَّمَا

أو ترك واجب - تذكر من أى باب أتى، ومن أى مدخل دخل الشيطان  
عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر  
واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح، والحسنات  
الكثيرة.

فرد شيطانه خاسئاً حسيراً، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه .  
وأما إخوان الشياطين، وأولياؤهم، فإنهم إذا وقعوا في الذنوب ،  
لا يزالون يمدونهم في الغي، ذنباً بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك .  
فالشياطين لا تنصر عنهم بالإغواء، لأنها طمعت فيهم، حين رأتهم  
سلسى القياد لها، وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

\* أى لا يزال هؤلاء الكذوبون لك في تعنت وعناد، ولو جاءتهم  
الآيات الدالة على الهدى والرشاد.

فإذا جتتهم بشيء من الآيات الدالة على صدقك، لم ينقادوا .  
[ وإذا لم تأتهم بآية ] من آيات الاقتراح، التي يعينونها [ قالوا لولا  
اجتبيتها ] أى : هلا اخترت الآية، فصارت الآية الفلانية، والمعجزة الفلانية  
كانك أنت المنزل للآيات، المدبر لجميع المخلوقات، ولم يعلموا أنه ليس لك  
من الأمر شيء .

أو لولا اخترعتها من نفسك .

اَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ اِلَىٰ مِنْ رَبِّي هٰذَا بَصَآئِرٌ مِّنْ رَبِّكَمْ وَهُدًى  
وَرَحْمَةً لِّلْقَوْمِ يُوْمِنُوْنَ ﴿٢٠٣﴾

[ قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى ] ، فأنا عبد متبع ، مدبر .  
والله تعالى هو الذى ينزل الآيات ويرسلها ، على حسب ما اقتضاه  
حمده ، وطلبته حكمته البالغة .

فإن أردتم آية ، لا تضمحل على تعاقب الأوقات ، وحجة ، لا تبطل  
فى جميع الآفات .

فإن [ هذا ] القرآن العظيم ، والذكر الحكيم [ بصائر من ربكم ]  
يستبصر به فى جميع المطالب الإلهية ، والمقاصد الإنسانية ، وهو الدليل  
والمدلول [ فمن تفكر وتدبره ، علم أنه تنزيل من حكيم حميد ، لا يأتيه  
الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .

وبه قامت الحجة ، على كل من بلغه ، ولكن أكثر الناس  
لا يؤمنون .

وإلا فمن آمن ، فهو [ هدى ] له من الضلال [ ورحمة ] له من  
الشقاء .

فالمؤمن ، مهتد بالقرآن ، متبع له ، سعيد فى دنياه وأخراه .  
وأما من لم يؤمن به ، فإنه ضال شقى ، فى الدنيا والآخرة .

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠٤)

\* هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى ، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات .

والفرق بين الاستماع والإنصات ، أن الإنصات في الظاهر ، بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه .

وأما الاستماع له ، فهو أن يلقى سمعه ، ويحضر قلبه ، ويتدبر ما يستمع .

فإن من لازم على هذين الأمرين ، حين يتلى كتاب الله ، فإنه ينال خيراً كثيراً ، وعلماً غزيراً ، وإيماناً مستمراً متجدداً ، وهدى متزايداً ، وبصيرة في دينه .

ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما .

فدل ذلك ، على أن من تلى عليه الكتاب ، فلم يستمع له ولم ينصت ، أنه محروم اللحظ ، من الرحمة ، قد فاته خير كثير .

ومن أؤكد ما يؤمر مستمع القرآن ، أنه يستمع له وينصت ، في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه ، فإنه مأمور بالإنصات .

حتى إن أكثر العلماء يقولون : إن اشتغاله بالإنصات ، أولى من قراءته الفاتحة ، وغيرها .

﴿وَأَذْكُر رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ  
مِنَ الْقَوْلِ بِالْفُدُوِّ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٢٠٥)

\* الذكر لله تعالى ، يكون بالقلب ، ويكون باللسان ، ويكون بهما ، وهو  
أكل أنواع الذكر وأحواله .

فأمر الله ، عبده ورسوله ، محمداً أصلاً ، وغيره تبعاً - بذكر ربه في  
نفسه أى : مخلصاً خالياً .

[ تضرعاً<sup>(١)</sup> ] بلسانك ، مكرراً لأنواع الذكر .

[ وخيفة ] فى قلبك بأن تكون خائفاً من الله ، وجل القلب منه ، خوفاً  
أن يكون عملك غير مقبول .

وعلاوة الخوف ، أن يسعى ويجتهد ، فى تكميل العمل وإصلاحه ،  
والنصح به .

[ ودون الجهر من القول ] أى : كن متوسطاً ، لا تجهر بصلاتك ،  
ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلاً .

[ بالفدو ] أول النهار [ والآصال ] آخره

وهذان الوقتان ، فيهما مزية وفضيلة على غيرها .

[ ولا تكن من الغافلين ] الذين نسوا الله ، فأنساهم أنفسهم .

فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة .

وأعرضوا عن كل السعادة والفوز ، فى ذكره وعبوديته .

(١) تضرعاً . أى : مظهراً شدة الاضطراب والذلة .

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ  
يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

وأقبلوا على من كل الشقاوة والخلية ، في الاشتغال به .  
وهذه من الآداب ، التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها .  
وهي : الإكثار من ذكر الله أثناء الليل والنهار ، خصوصاً ، طرقي  
النهار ، مخلصاً خاشعاً ، متضرعاً ، متذللاً ، ساكناً ، متواطئاً عليه قلبه ولسانه  
بأدب ووقار ، وإقبال على الدعاء والذكر ، وإحضار له بقلبه ، وعدم غفلة ،  
فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه .  
ثم ذكر تعالى أن له عبداً . مستديمين لعبادته ، ملازمين لخدمته وهم  
الملائكة ، لتعلموا أن الله ، لا يريد أن يتكثر بعبادتكم من قلة ،  
ولا ليتعزز بها من ذلة .  
وإنما يريد نفع أنفسكم ، وأن تربحوا عليه ، أضعاف أضعاف ،  
ما علمتم ، فقال :  
[ إن الذين عند ربك ] من الملائكة المقربين ، وحمة العرش  
والكروبيين .  
[ لا يستكبرون عن عبادته ] بل يذعنون لها ، وينقادون لأوامر ربهم  
[ ويسبحونه ] الليل والنهار ، لا يفترون .  
[ وله ] وحده لا شريك له [ يسجدون ] ، فليقتد العباد ، بهؤلاء  
الملائكة الكرام .

وليدأوموا على عبادة الملك العلام

تم تفسير سورة الأعراف

والله الحمد والشكر والثناء . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

تفسير

## سُورَةُ الْأَنْفَالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ  
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ

الأنفال ، هي : الغنائم ، التي ينفلها الله لهذه الأمة ، من أموال الكفار .  
وكانت هذه الآيات في هذه السورة ، قد نزلت في قصة « بدر » أول  
غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين .  
فصل بين بعض المسلمين فيها نزاع .

فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها ، فأنزل الله [ يسألونك  
عن الأنفال ] كيف تقسم وعلى من تقسم ؟  
[ قل ] لهم [ الأنفال لله والرسول ] يضاعفها حيث شاء ، فلا اعتراض  
لكم على حكم الله ورسوله .

بل عليكم إذا حكم الله ورسوله ، أن ترضوا بحكمهما ، وتسلموا الأمر لهما .  
وذلك داخل في قوله [ فاتقوا الله ] بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .  
[ وأصلحوا ذات بينكم ] أى : أصلحوا ما بينكم من التشاحن ،  
والتقاطع ، والتدابير ، بالتوادد ، والتحاب ، والتواصل .

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

فبذلك تجتمع كلمتكم ، ويزول ما يحصل — بسبب التقاطع — من التخاصم ، والتشاجر والتنازع .

ويدخل في إصلاح ذات البين ، تحسين الخلق لهم ، والعفو عن المسيئين منهم فإنه — بذلك — يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء ، والتدابير .

والأمر الجامع لذلك كله قوله [ وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ] .  
فإن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله .

كما أن من لم يطع الله ورسوله ، فليس بمؤمن .

ومن نقصت طاعته لله ورسوله ، فذلك لنقص إيمانه .

ولما كان الإيمان قسمين ، إيماناً كاملاً يترتب عليه المدح والثناء ، والفوز التام ، وإيماناً ، دون ذلك — ذكر الإيمان الكامل فقال :

[ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ] الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان .

[ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ] أى : خافت ورهبت ، فأوجبت

لهم ، خشية الله تعالى ، الانكفاف عن المحارم ، فإن خوف الله تعالى ، أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب .

[ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ] .

ووجه ذلك ، أنهم يلتقون له السمع ، ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند

ذلك ، يزيد إيمانهم .

يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾

لأن التدبر من أعمال القلوب ، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى ، كانوا يحملونه ، ويتذكرون ما كانوا نسوه .

أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير ، واشتياقاً إلى كرامة ربهم .  
أو وجلا من العقوبات ، وازدجاراً عن المعاصي ، وكل هذا مما يزداد به الإيمان .

[وعلى ربهم] وحده ، لا شريك له [يتوكلون] أى : يعتمدون  
في قلوبهم على ربهم ، في جلب مصالحهم ، ودفع مضارهم الدينية ، والدينية ،  
ويشعرون بأن الله تعالى ، سيفعل ذلك .

والتوكل ، هو ، الحامل للأعمال كلها ، فلا توجد ولا تكمل ، إلا به .  
[الذين يقيمون الصلاة] من فرائض ، ونوافل ، بأعمالها الظاهرة  
والباطنة ، كحضور القلب فيها ، الذى هو روح الصلاة ولبها .  
[ومما رزقناهم ينفقون] النفقات الواجبة ، كالزكوات ، والكفارات ،  
والنفقة على الزوجات والأقارب ، وما ملكت أيانهم .

والمستحبة كالصدقة في جميع طرق الخير .

[أولئك] الذين اتصفوا بتلك الصفات [هم المؤمنون حقاً] لأنهم جمعوا  
بين الإسلام والإيمان ، بين الأعمال الباطنة ، والأعمال الظاهرة ، بين العلم  
والعمل ، بين أداء حقوق الله ، وحقوق عباده .

وقدم تعالى أعمال القلوب ، لأنها أصل لأعمال الجوارح ، وأفضل منها .  
وفيها دليل على أن الإيمان ، يزيد وينقص ، فيزيد بفعل الطاعة ،  
وينقص بضدها .

أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ  
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾  
كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا

وأنه ينبغي للعبد ، أن يتعاهد بإيمانه وينميهِ .  
وأن أولى ما يحصل به ذلك ، تدبر كتاب الله تعالى ، والتأمل لمعانيه .  
ثم ذكر ثواب المؤمنين حقاً فقال :  
[ لهم درجات عند ربهم ] أى : عالية بحسب علو أعمالهم .  
[ ومغفرة ] لذنوبهم [ ورزق كريم ] وهو ما أعد الله لهم فى دار كرامته ،  
بما لا عين رأت : ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .  
ودل هذا ، على أن من يصل إلى درجتهم فى الإيمان — وإن دخل  
الجنة — فلن ينال ما نالوا ، من كرامة الله التامة .

\* قدم تعالى — أمام هذه الفزوة الكبرى المباركة — الصفات التى على  
المؤمنين أن يقوموا بها ، لأن من قام بها ، استقامت أحواله ، وصلحت  
أعماله ، التى من أكبرها ، الجهاد فى سبيله .  
فسكأن إيمانهم ، هو الإيمان الحقيقى ، وجزاءهم هو الحق الذى وعدم  
الله به .

كذلك أخرج الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، من يته إلى لقاء المشركين  
فى « بدر » بالحق الذى يحبه الله تعالى ، وقد قدره وقضاه .  
وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم فى ذلك الخروج ، أنه يكون بينهم  
وبين عدوهم قتال .

مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكُرْهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ  
كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ

حين تبين لهم أن ذلك واقع ، جعل فريق من المؤمنين ، يجادلون النبي  
صلى الله عليه وسلم ، في ذلك ، ويكرهون لقاء عدوهم ، كأنما يساقون إلى  
الموت ، وهم ينظرون .

والحال أن هذا ، لا ينبغي منهم ، خصوصا بعد ما تبين لهم أن خروجهم  
بالحق ، وبما أمر الله به ، ورضيه .

فهذه الحال ، ليس للجدال فيها محل ، لأن الجدال ، محله وفائدته ، عند  
اشتباه الحق ، والتباس الأمر .

فأما إذا وضح وبان ، فليس إلا الانقياد والإذعان .

هذا ، وكثير من المؤمنين ، لم يجر منهم من هذه المجادلة شيء ،  
ولا كرهوا لقاء عدوهم .

وكذلك الذين عاتبهم الله ، اتقادوا للجهاد أشد الانقياد ، وثبتهم الله ،  
وقيض لهم من الأسباب ، ما تطمئن به قلوبهم كما سيأتي ذكر بعضها .

وكان أصل خروجهم ليتعرضوا<sup>(١)</sup> لعير ، خرجت مع أبي سفيان بن  
حرب لقريش إلى الشام ، قافلة كبيرة .

فلما سمعوا برجوعها من الشام ، ندب النبي صلى الله عليه وسلم ، الناس .

---

( ١ ) في الأصل المطبوع « يتعرضون » والمقام يقتضى التعليل فلذلك  
أصلحنا الكلمة بـ « ليتعرضوا » .

إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ  
تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ  
دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبُطْلَ وَلَوْ كَرِهَ  
الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

نخرج معه ، ثلثائة ، وبضعة عشر رجلا ، معهم سبعون بغيراً ، يعقبون  
عليها ، ويحملون عليها متاعهم .

فسمع بنجرهم قريش ، فخرجوا لمنع غيرهم ، في عدد كثير وعُدَدٍ وافرة ،  
من السلاح ، والخيول ، والرجال ، يبلغ عددهم قريباً من الألف .

فوعد الله المؤمنين ، إحدى الطائفتين ، إما أن يظفروا بالغير ، أو بالنفير .  
فأحبوا الغير لقلة ذات يد المسلمين ، ولأنها غير ذات الشوكة .

ولكن الله تعالى ، أحب لهم ، وأراد أمراً ، أعلى مما أحبوا .

أراد أن يظفروا بالنفير ، الذي خرج فيه كبراء المشركين وصناديدهم .

[ويريد الله أن يحق الحق بكلماته] فينصر أهله [ويقطع دابر الكافرين] .

أى يستأصل أهل الباطل ، ويرى عباده من نصرة للحق أمراً لم يكن

يخطر ببالهم .

[ ليحق الحق ] بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته وصدقه .

[ ويبطل الباطل ] بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه [ ولو كره

المجرمون ] فلا يبالي الله بهم .

﴿٩﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ  
بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا  
وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ  
حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ الْغَاسِقَ آمَنَةً مِّنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ

\* أى: اذكروا نعمة الله عليكم ، لما قارب التقاؤكم بعدوكم ، استغثتم  
بربكم ، وطلبتم منه أن يعينكم وينصركم [ فاستجاب لكم ] وأغاثكم بعدة أمور .  
منها أن الله أمدكم [ بألف من الملائكة مردفين ] أى : يردف  
بعضهم بعضاً .

[ وما جعله الله ] أى : أنزال الملائكة [ إلا بشرى ] أى : لتسبشروا  
بذلك نفوسكم .

[ ولتطمئن به قلوبكم ] وإلا فالنصر بيد الله ، ليس بكثرة عدد ،  
ولا عدد .

[ إن الله عزيز ] لا يغالبه مغالب ، بل هو القهار ، الذى يخذل  
من بلغوا من الكثرة ، ومن العدد والآلات ، ما بلغوا .

[ حكيم ] حيث قدر الأمور بأسبابها ، ووضع الأشياء مواضعها .  
ومن نصره واستجابته لدعائكم ، أن أنزل عليكم نعاساً [ يغشيكم ]  
أى : فيذهب ما فى قلوبكم من الخوف والوجل ، ويكون [ أمانة ] لكم ،  
وعلامه على النصر والطمأنينة .

ومن ذلك أنه أنزل عليكم من السماء مطراً ، ليظهركم به من الحدث  
والخبث ، وليظهركم من وساوس الشيطان ، ورجزه .

السَّمَاءَ مَاءً لِّيُطَهَّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ  
عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى  
الْمَلَأِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ  
كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ

[ وليربط على قلوبكم ] أى : يثبتها فإن ثبات القلب ، أصل  
ثبات البدن .

[ ويثبت به الإقدام ] فإن الأرض كانت سهلة دهسة<sup>(١)</sup> فلما نزل عليها  
المطر ، تلبدت ، وثبتت به الأقدام .

ومن ذلك أن الله أوحى إلى الملائكة [ أنى معكم ] بالعون والنصر  
والتأييد .

[ فثبتوا الذين آمنوا ] أى : ألقوا فى قلوبهم ، وألهموهم الجراءة على  
عدوهم ، ورغبوهم فى الجهاد وفضله .

[ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ] الذى هو أعظم جندلكم عليهم .  
فإن الله إذا ثبت المؤمنين ، وألقى الرعب فى قلوب الكافرين ، لم يقدر  
الكافرون على الثبات لهم ، ومنحهم الله أكتافهم .

[ فاضربوا فوق الأعناق ] أى : على الرقاب [ واضربوا منهم كل بنان ] .  
أى : منفصل .

( ١ ) دهسة أى : ما سهل ولان من الأرض ولم يبلغ أن يكون رملا ،  
اه ، نهاية لابن الأثير .

بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ  
وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ كَمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ  
لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

وهذا خطاب ، إما للملائكة الذين أوحى إليهم أنيثبتوا الذين آمنوا ،  
فيكون في ذلك دليل ، أنهم باشروا القتال يوم بدر .  
أو للمؤمنين يشجعهم الله ، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين ، وأنهم  
لا يرحمونه .

[ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله [ أى : حاربوها ، وبارزوها بالعداوة .  
[ ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب [ ومن عقابه تسليط  
أوليائه على أعدائه ، وتقتيلهم .

[ ذلكم ] العذاب المذكور [ فذوقوه ] أيها المشاققون لله ورسوله  
عذاباً معجلاً .

[ وأن للكافرين عذاب النار ] .

وفي هذه القصة من آيات الله العظيمة ، ما يدل على أن ما جاء به محمد  
صلى الله عليه وسلم ، رسول الله حقاً .

منها : أن الله وعدهم وعداً ، فأنجزهموه .

ومنها : ما قال الله تعالى « قد كان لكم آية في فتنتين المتقاتلتين فتنة تقاتل  
في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين » الآية .

ومنها : إجابة دعوة الله للمؤمنين ، لما استغاثوه ، بما ذكره  
من الأسباب .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا  
فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدِ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا

وفيها الاعتناء العظيم ، بحال عباده المؤمنين ، وتقييض الأسباب ، التي  
بها ثبت إيمانهم ، ثبتت أقدامهم ، وزال عنهم المكروه والوساوس  
الشیطانية .

ومنها : أن من لطف الله بعبده ، أن يسهل عليه طاعته ، ويسرها  
بأسباب داخلية وخارجية .

\* أمر الله تعالى عباده المؤمنين ، بالشجاعة الإيمانية ، والقوة في أمره ،  
والسعى في جلب الأسباب المقوية للقلوب والأبدان .

ونهاهم عن الفرار ، إذا التقى الزحفان فقال : [ يا أيها الذين آمنوا إذا  
لقيتم الذين كفروا زحفاً ] أى : صف القتال ، وتزاحف الرجال ، واقترب  
بعضهم من بعض .

[ فلا تولوهم الأدبار ] ، بل امبتقوا لقتالهم ، واصبروا على جلادهم ، فإن  
في ذلك ، نصرة لدين الله ، وقوة لقلوب المؤمنين ، وإرهاقاً للكافرين .

[ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء ]  
أى : رجع [ بغضب من الله ومأواه ] أى مقره [ جهنم وبئس المصير ] .

وهذا يدل على أن الفرار من الزحف ، من غير عذر ، من أكبر  
الكبائر ، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة وكما نص هنا على وعيده  
بهذا الوعيد الشديد .

ومفهوم الآية : أن المتحرف للقتال ، وهو الذى ينحرف من جهة

لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ  
وَبئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

إلى أخرى ، ليكون أمكن له في القتال ، وأنكى لعدوه ، فإنه لا بأس  
بذلك ، لأنه لم يول دبره فاراً ، وإنما ولى دبره ، ليستعلى على عدوه ،  
أو يأتيه من محل يصيب فيه غرته ، أو ليخدعه بذلك ، أو غير ذلك  
من مقاصد المحاربين ، وأن المتحيز إلى فئة تمنعه وتعينه على قتال الكفار ،  
فإن ذلك جائز .

فإن كانت الفئة في العسكر ، فالأمر في هذا واضح .  
وإن كانت الفئة في غير محل المعركة كأنهزام المسلمين بين يدي الكافرين  
والتجأهم إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر آخر من عسكر المسلمين ،  
فقد ورد من آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز .

ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون ، أن الانهزام أحمد عاقبة ،  
وأبقى عليهم .

أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار في ثباتهم لقتالهم ، فيبعد - في هذه الحال -  
أن تكون من الأحوال المأخوذة فيها ، لأنه - على هذا - لا يتصور  
الفرار المنهى عنه .

وهذه الآية مطلقة ، وسيأتي في آخر السورة تقييدها بالعدد .

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ  
وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ  
عَلِيمٌ﴾ (١٧) ذَالِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾

\* يقول تعالى — لما انهزم المشركون يوم بدر ، وقتلهم المسلمون .  
[ فلم تقتلهم ] بحولكم وقوتكم [ ولكن الله قتلهم ] حيث أعانكم  
على ذلك بما تقدم ذكره .  
[ وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى ] .  
وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقت القتال ، دخل العريش ،  
وجعل يدعو الله ، ويناشده في نصرته .  
ثم خرج منه ، فأخذ حفنة من تراب ، فرماها في وجوه المشركين ،  
فأوصلها الله إلى وجوههم .  
فما بقي منهم واحد إلا وقد أصاب وجهه ، وفه ، وعينه منها .  
فحينئذ انكسر حدهم ، وفتر زندهم ، وبان فيهم الفشل والضعف ،  
فانهزموا .

يقول تعالى لنبيه : لست بقوتك — حين رميت التراب — أوصلته  
إلى أعينهم ، وإنما أوصلناه إليهم ، بقوتنا وافتقارنا .  
[ وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنًا ] أي : إن الله تعالى ، قادر على انتصار  
المؤمنين من الكافرين ، من دون مباشرة قتال .  
ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين ، ويوصلهم بالجهاد ، إلى أعلى  
الدرجات ، وأرفع المقامات ، ويعطيهم أجراً حسناً ، وثواباً جزيلاً .

إِنْ تَسْتَغْفِرُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ  
وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ  
اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

[إن الله سميع عليم] يسمع تعالى ، ما أسر به العبد ، وما أعلن ، ويعلم  
ما في قلبه ، من النيات الصالحة وضدها .  
يفتقد على العباد أقداراً ، موافقة لعله وحكمته ، ومصلحة عبادته ،  
ويجزى كلا بحسب نيته وعمله .

[ذلكم] النصر ، من الله لكم [ وأن الله موهن كيد الكافرين ]  
أى : مضعف كل مكر وكيد ، يكيدون به الإسلام وأهله ، وجاعل مكرهم  
محيقاً <sup>(١)</sup> بهم .

\* [إن تستفتحوا] أيها المشركون ، أى : تطلبون من الله أن يوقع  
بأسه وعذابه . على المعتدين الظالمين .

[فقد جاءكم الفتح] حين أوقع الله بكم من عقابه ، ما كان نكالا <sup>(٢)</sup>  
لكم ، وعبرة للمتقين [ وإن تنموا ] عن الاستفتاح [ فهو خير لكم ] لأنه  
ربما أمهلكم ، ولم يعجل لكم النعمة .

(١) محيقاً ، أى : محيطاً بهم ، وفعله « أحاق » مثل « حاق »  
أى : أحاط به ، كما يستفاد من القاموس .

(٢) نكالا . أى : عقوبة لكم ، تكون عبرة لغيركم ، تمنعهم عن مثل  
ما استحققتهم به العقاب من سوء الأعمال .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا  
سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾

[ولن تغنى عنكم فتكم] أى : أعوانكم وأنصاركم ، الذين تحاربون  
وتقاتلون ، معتمدين عليهم [ شيئا ، وإن كثرت وأن الله مع المؤمنين ]  
ومن كان الله معه فهو المنصور وإن كان ضعيفا قليلا عدده .  
وهذه المعية التى أخبر الله أنه يؤيد بها المؤمنين ، تكون بحسب  
ما قاموا به من أعمال الإيمان .

فإذا أدبل العدو على المؤمنين فى بعض الأوقات ، فليس ذلك إلا تفريطا  
من المؤمنين وعدم قيام بواجب الإيمان ومقتضاه ، وإلا فلو قاموا بما أمر  
الله به من كل وجه . لما انهزمت لهم راية انهزاما مستقرا ولا أدبل عليهم  
عدوهم أبداً .

\* لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين ، أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان  
الذى يدركون معيته فقال : [ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ]  
بامتثال أمرهما واجتناب نهيهما .

[ولا تولوا عنه] أى : عن هذا الأمر الذى هو طاعة الله ، وطاعة رسوله .  
[ وأنتم تسمعون ] ما يتلى عليكم من كتاب الله ، وأوامره ،  
ووصاياه ، ونصائحه .

فتوليكم ، فى هذه الحال ، من أقبح الأحوال .  
[ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون] أى : لا تكفوا بمجرد  
الدعوى الخالية ، التى لاهيئة لها ، فإنها حالة ، لا يرضاها الله ولا رسوله .

﴿٢٢﴾ لَّا يَعْقُلُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

فليس الإيمان بالتمني والتجلى ، ولكنه ما وقر في القلوب ، وصدقته الأعمال .

\* يقول تعالى : [ إن شر الدواب عند الله ] من لم تفد فيهم الآيات والنذر .

وهم [ الصم ] عن استماع الحق [ البكم ] عن النطق به .

[ الذين لا يعقلون ] ما ينفعهم ، ويؤثرونه على ما يضرهم .

فهؤلاء ، شر عند الله ، من شرار الدواب ، لأن الله أعطاهم ، أسماعاً وأبصاراً ، وأفئدة ، ليستعملوها في طاعة الله ، فاستعملوها في معاصيه ، وعدموا — بذلك — الخير الكثير .

فإنهم كانوا ، بصدد أن يكونوا من خيار البرية ، فأبوا هذا الطريق ، واختاروا لأنفسهم ، أن يكونوا من شر البرية .

والسمع الذين نفاه الله عنهم ، سمع المعنى المؤثر في القلب .

وأما سمع الحجة ، فقد قامت حجة الله تعالى عليهم ، بما سمعوه من آياته .

وإنما لم يسمعهم السماع النافع ، لأنه لم يعلم فيهم خيراً يصلحون به لسماع آياته .

[ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم ] على الفرض والتقدير

يَسْأَلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اُسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَلِلرَّسُولِ اِذَا  
دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاَعْلَمُوْا اَنَّ اللّٰهَ يَحْوِلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَاَنَّهُ

[لتولو] عن الطاعة [وهم معرضون] لا التفات لهم إلى الحق ، بوجه من الوجوه .

وهذا دليل على أن الله تعالى ، لا يمنع الإيمان والخير ، إلا عن لا خير فيه ، والذي لا يزكو لديه ، ولا يثمر عنده . وله الحمد تعالى والحكمة ، في هذا .

\* يأمر تعالى ، عباده المؤمنين ، بما يقتضيه الإيمان منهم ، وهو : الاستجابة لله وللرسول ، أى : الانقياد لما أمر به ، والمبادرة إلى ذلك ، والدعوة إليه ، والاجتناب لما نهى عنه ، والانكفاف عنه ، والنهى عنه .

وقوله [إذا دعاكم لما يحييكم] وصف ملازم ، لكل ما دعا الله ورسوله إليه ، وبيان لفائده وحكمته ، فإن حياة القلب والروح ، بعبودية الله تعالى ، ولزوم طاعته ، وطاعة رسوله ، على الدوام .

ثم حذر عن عدم الاستجابة لله وللرسول فقال :

[واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه] فإياكم أن تردوا أمر الله ، أول ما يأتيكم ، فيحال بينكم وبينه ، إذا أردتموه بعد ذلك ، وتختلف قلوبكم فإن الله يحول بين المرء وقلبه ، يقلب القلوب حيث شاء ، ويصرفها ، أنى شاء .

فليكثر العبد من قول « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك »  
يا مصرف القلوب ، اصرف قلبي إلى طاعتك .

إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

[ وأنه إليه تحشرون ] أى : تجمعون ليوم لا ريب فيه ، فيجازى المحسن بإحسانه ، والمسيء بمصيانته .

[ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ] بل تصيب فاعل الظلم وغيره .

وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير ، فإن عقوبته ، تعم الفاعل وغيره .  
وتتقَى هذه الفتنة ، بالنهى عن المنكر ، وقع أهل الشر والفساد ، وأن لا يمكنوا من المعاصى والظلم ، مهما أمكن .

[ واعلموا أن الله شديد العقاب ] لمن تعرض لمساخطه ، وجانب رضاه .

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَتَمَّ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ  
تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ  
وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢٦) ﴿﴾

\* يقول تعالى — ممتنا على عباده ، في نصرهم بعد الذلة ، وتكثيرهم بعد  
القله ، وإغنائهم بعد العيلة<sup>(١)</sup> .

[واذكروا إذ أتم قليل مستضعفون في الأرض] أى : مهجورون  
تحت حكم غيركم [تخافون أن يتخطفكم الناس] أى : يأخذوكم .

[فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات] فجعل لكم بلداً تأوون  
إليه ، واتتصر من أعدائكم على أيديكم ، وغنمتم من أموالهم ، ما كنتم  
به أغنياء .

[لعلكم تشكرون] الله على منته العظيمة ، وإحسانه التام ، بأن  
تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً .

يَسَاءِلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ  
وَتَخُونُوا أَمْنِيَكُمْ وَأَتُمُّ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ  
وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

\* يأمر تعالى ، عباده المؤمنين ، أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه ، من  
أوامره ، ونواهيهِ .

فإن الأمانة قد عرضها الله على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن  
يحمأنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوما جهولا .

فمن أدى الأمانة ، استحق من الله الثواب الجزيل ، ومن لم يؤدها  
بل خانها ، استحق العقاب الوبيل ، وصار خائناً لله وللرسول ولأمانته ،  
منقصاً لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات ، وأقبح الشيات ، وهى  
الخيانة ، مفوتاً لها أكل الصفات وأتمها ، وهى : الأمانة .

ولما كان العبد ممتحناً بأمواله وأولاده ، فربما حاته محبته ذلك ، على  
تقديم هوى نفسه ، على أداء أمانته ، أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد ،  
فتنة يبتلى الله بهما عباده ، وأنهما عارية ، ستؤدى لمن أعطاهما ، وترد لمن  
استودعها [ وأن الله عنده أجر عظيم ] .

فإن كان لكم عقل ورأى ، فاثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية  
مضمحلة .

فالعاقل يوازن بين الأشياء ، ويؤثر أولاها بالإيثار ، وأحقها بالتقديم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ  
فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ  
الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

\* امتثال العبد لتقوى ربه ، عنوان السعادة ، وعلامة الفلاح .

وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة ، شيئاً كثيراً .  
فذكر هنا ، أن من اتقى الله ، حصل له أربعة أشياء ، كل واحد منها  
خير من الدنيا وما فيها :

الأول : الفرقان ، وهو : العلم والهدى ، الذى يفرق به صاحبه بين  
الهدى والضلال ، والحق والباطل ، والحلال والحرام ، وأهل السعادة  
من أهل الشقاوة .

الثانى والثالث ، تكفير السيئات ، ومغفرة الذنوب .

وكل واحد منها داخل فى الآخر ، عند الإطلاق ، وعند الاجتماع .  
يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر ، ومغفرة الذنوب ، بتكفير  
الكبائر .

الرابع : الأجر العظيم ، والثواب الجزيل ، لمن اتقاه ، وآثر رضاه  
على هوى نفسه .

[ والله ذو الفضل العظيم ] .

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ  
أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ  
الْمُكْرِينَ﴾ (٣٠)

\* أى [و] أذكر ، أيها الرسول ، ما منَّ الله به عليك .  
[ إذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ] حين تشاور المشركون فى دار الندوة ،  
فما يصنعون بالنبي صلى الله عليه وسلم ، إما أن يثبتوه عندهم بالحبس ،  
ويوثقوه .

وإما أن يقتلوه فيستريحوا — بزعمهم — من دعوته .  
وإما أن يخرجوه ويحلوه من ديارهم .  
فكلُّ أبداً من هذه الآراء رأياً رآه .  
فاتفق رأيهم ، على رأى رآه شريرهم ، أبو جهل ، لعنه الله .  
وهو أن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش ، فتى ، ويعطوه سيفاً  
صارماً ، ويقتله الجميع قتلة رجل واحد ، ليتفرق دمه فى القبائل .  
فيرضى بنو هاشم ثمَّ بديته ، فلا يقدرّون على مقاومة جميع قريش .  
فترصدوا للنبي صلى الله عليه وسلم ، فى الليل ، ليقعوا به ، إذا قام  
من فراشه .

فجاء الوحى من السماء ، وخرج عليهم ، فذرَّ على رؤوسهم التراب  
وخرج ، وأعمى الله أبصارهم عنه .  
حتى إذا استبطأوه ، جاءهم آت وقال : خيكم الله ، قد خرج محمد ،  
وذرَّ على رؤوسكم التراب .

ففنفض كل منهم التراب عن رأسه .  
ومنع الله رسوله منهم ، وأذن له في الهجرة إلى المدينة .  
فهاجر إليها ، وأيده الله بأصحابه المهاجرين والأنصار .  
ولم يزل أمره يعلو ، حتى دخل مكة عنوة ، وقهر أهلها .  
فأذعنوا له ، وصاروا تحت حكمه ، بعد أن خرج مستخفياً منهم ،  
خائفاً<sup>(١)</sup> على نفسه .

(١) قوله (خائفاً على نفسه) كلام غير صحيح . كيف إن الله طمأنه بحفظه  
وقال [ والله يعضمك من الناس ] فشجاعته عليه الصلاة والسلام بلغت  
أقصى الغايات ولم يستخف بخروجه من منزله ، بل شق طريقه — امتثالاً  
لأمر الله — في وسط صفوفهم أفيكون هذا الخروج استخفاءً؟! بل هو غاية  
في الاستعلان ، ولم يكن النبي في وقت من الأوقات خائفاً من المخلوقين .  
وما فعل ما فعل من الخروج من منزله ومن مكة بلده ومسط رأسه إلا بأمر  
من ربه وما كان استخفاؤه في الغار إلا تشريعاً لأمرته كيف يتخذون الحيلة  
لأنفسهم عند الأزمات ، فعجيب جداً أن يقال : إن الرسول كان يخشى  
على نفسه من الناس . كيف يكون ذلك مع فضله وتسكريمه على الخلق أجمع  
فهل يكون أقل شجاعة من ابن رواحة الذي قال كلمته المدوية في غزوة مؤتة  
مشجعاً إخوانه الجنود حينما رأوا كثرة العدو ، وتضاعفه — ( والله إن  
الذي تكبرهون هو ما خرجتم لأجله ) ( أى الشهادة ) نحن لا نحارب بكثرة  
الرجال ولكن نحارب بقوة الإيمان الذي أودعه الله في قلوبنا . فهذا  
صحاى بلغ به قوة الإيمان هذا المبلغ ولقى مصرعه بين تلك الجوع الكثيفة .  
أفيكون رسول الله أقل منه شجاعة ويقال عنه خرج مستخفياً منهم خائفاً  
على نفسه ( اللهم عرفنا بك ثم بقدر نبئك .

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِّنْ

فسبحان اللطيف بعباده الذى لا يغالبه مغالب .

\* يقول تعالى — فى بيان عناد المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم — [ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ] الدالة على صدق ما جاء به الرسول .  
[ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ]  
وهذا من عنادهم وظلمهم .

وإلا فقد تحداهم الله، أن يأتوا بسورة من مثله، ويدعوا من استطاعوا من دون الله ، فلم يقدرُوا على ذلك ، وتبين عجزهم .

فهذا القول الصادر من هذا القائل ، مجرد دعوى ، كذبه الواقع .  
وقد علم أنه صلى الله عليه وسلم أميٌّ ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولا رحل ليُدرس ، من أخبار الأولين ، فاتى بهذا الكتاب الجليل ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

[ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا ] الذى يدعو إليه محمد [ هو الحق من عندك فأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ] قالوه على وجه الجزم منهم بباطلهم ، والجهل بما ينبغى من الخطاب .

فلو أنهم إذ أقاموا على باطلهم من الشبه والتمويهات ، ما أوجب لهم أن يكونوا على بصيرة ويقين منه — قالوا لمن ناظرهم ، وادعى أن الحق معه .

السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ  
وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ

إن كان هذا هو الحق من عندك ، فاهدنا له ، لكان أولى لهم  
وأستر لظلمهم .

فد قالوا : [ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ] الآية ،  
علم بمجرد قولهم ، أنهم السفهاء الأغبياء ، الجهلة الظالمون .  
فلو عاجلهم الله بالعقاب ، لما أبقى منهم باقية .

ولكنه تعالى ، دفع عنهم العذاب ، بسبب وجود الرسول بين  
أظهرهم فقال :

[ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ] فوجوده صلى الله عليه وسلم ،  
أمنة لهم من العذاب .

وكانوا مع قولهم هذه المقالة ، التي يظهرونها على رؤوس الأشهاد ،  
يدرون بقبحها فكانوا يخافون من وقوعها فيهم ، فيستغفرون الله تعالى  
فلهذا قال [ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ] .

فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم ، بعد ما انعقدت أسبابه .  
ثم قال [ وما لهم أن لا يعذبهم الله ] أي : أي شيء يمنعهم من عذاب  
الله ، وقد فعلوا ما يوجب ذلك وهو صد الناس عن المسجد الحرام ، خصوصاً  
صدم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ، الذين هم أولى به منهم .

ولهذا قال : [ وما كانوا ] أي المشركون [ أولياءه ] يحتمل أن  
الضمير يعود إلى الله ، أي : أولياء الله .

ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام ، أي : وما كانوا أولى به من غيرهم .

وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ  
إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾  
﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً  
فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

[إن أوليائه إلا المتقون] وهم الذين آمنوا بالله ورسوله ، وأفردوا  
الله بالتوحيد والعبادة ، وأخلصوا له الدين .

[ولكن أكثرهم لا يعلمون] فلذلك ادَّعَوْا لأنفسهم أمراً ، غيرهم  
أولى به .

\* يعنى : أن الله تعالى ، إنما جعل بيته الحرام ، ليقام فيه دينه ، وتخلص  
له فيه العبادة .

فالمؤمنون ، هم الذين قاموا بهذا الأمر .

وأما هؤلاء المشركون ، الذين يصدون عنه ، فما كان صلاتهم فيه ،  
التي هى أكبر أنواع العبادات [إلا مكاء وتصدية] .

أى صغيراً وتصديقاً ، فعل الجبهة الأغبياء ، الذين ليس فى قلوبهم تعظيم  
لربهم ، ولا معرفة بحقوقه ، ولا احترام لأفضل البقاع وأشرفها .

فإذا كانت هذه صلاتهم فيه ، فكيف ببقية العبادات ؟ !! .

فبأى شئ كانوا أولى بهذا البيت من المؤمنين ، الذين هم فى صلاتهم  
خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، إلى آخر ما وصفهم الله به  
من الصفات الحميدة ، والأفعال السديدة .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ

لا جرم ، أورثهم الله بيته الحرام ، ومكنهم منه .  
وقال — يعد ما مكن لهم منه — « يأأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » .  
وقال هنا [ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ] .  
\* يقول تعالى — مبيناً لعداوة المشركين ، وكيدهم ، ومكرهم ، ومبارزتهم لله ولرسوله ، وسعيهم في إطفاء نوره ، وإخماد كلمته ، وأن وبال مكرهم سيعود عليهم ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فقال :  
[ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ]  
أى : ليطلوا الحق ، وينصروا الباطل ، ويبطل توحيد الرحمن ، ويقوم دين عبادة الأوثان .

[ فسيفنقونها ] أى : فسيصدرون هذه النفقة ، وتنف عليهم ، لتسكهم بالباطل ، وشدة بفضهم للحق .

[ ثم تكون عليهم حسرة ] أى : ندامة ، وخزيا ، وذلا .  
[ ثم يغلبون ] فتذهب أموالهم ، وما أملوا ، ويعذبون فى الآخرة أشد العذاب .

ولهذا قال : [ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ] أى : يجمعون إليها ، ليدوقوا عذابها ، وذلك لأنها دار الخبث والخبثاء .

وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ  
أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ  
وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّىٰ

والله تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب ، ويجعل كل واحد على  
حدة ، وفي دار تحصنه .

فيجعل الخبيث بعضه على بعض ، من الأعمال ، والأموال والأشخاص .  
[ فيركمه جميعاً فيجعلهم في جهنم ، أولئك هم الخاسرون ] الذين خسروا  
أنفسهم ، وأهلهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين .

\* هذا من لطفه تعالى بعباده ، لا يمنعه كفر العباد ، ولا استعراهم  
في العناد ، من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى ، وينهاهم عما يهلكهم  
من أسباب النفي والردى ، فقال :

[ قل للذين كفروا إن ينتهوا ] عن كفرهم ، وذلك بالإسلام لله وحده  
لا شريك له .

[ يغفر لهم ما قد سلف ] منهم من الجرائم [ وإن يعودوا ] إلى كفرهم  
وعنادهم [ فقد مضت سنة الأولين ] بإهلاك الأمم المكذبة ، فلينتظروا  
ما حل بالمعاندين ، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون .  
فهذا خطابه للكاذبين .

وأما خطابه المؤمنين ، عندما أمرهم بمعاملة الكافرين ، فقال :  
[ وقتلهم حتى لا تكون فتنة ] أى : شرك ، وصد عن سبيل الله  
ويدعوا لأحكام الإسلام .

لَا تَكُونْ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ اُنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا  
يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُوَلِّكُمْ نِعَمَ  
الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ ﴿٤٠﴾

[ويكون الدين كله لله] فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين ،  
أن يدفع شرهم عن الدين ، وأن يذب عن دين الله ، الذى خلق الخلق له ،  
حتى يكون هو العالى على سائر الأديان .

[فإن انتهوا] عن ما هم عليه من الظلم [فإن الله بما يعملون بصير]  
لا تخفى عليه منهم خافية .

[وإن تولوا] عن الطاعة ، وأوضعوا فى الإضاعة [فاعلموا أن الله  
مولاكم نعم المولى] الذى يتولى عباده المؤمنين ، ويوصل إليهم مصالحهم ،  
ويسر لهم منافعهم الدينية والدنيوية .

[ونعم النصير] الذى ينصرهم ، فيدفع عنهم كيد الفجار ، وتكالب  
الأشرار .

ومن كان الله مولاة وناصره ، فلا خوف عليه ، ومن كان الله عليه ،  
فلا عزَّ له ، ولا قائمة تقوم له .

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ  
وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ  
ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ أَجْمَعَانِ

\* يقول تعالى : [ واعلموا أنما غنمتم من شيء . ] أي : أخذتم من مال  
الكفار قهراً بحق ، قليلاً كان أو كثيراً .

[ فإن لله خمسة ] أي : وباقية لكم ، أيها الغانمون ، لأنه أضاف الغنيمة  
إليهم ، وأخرج منها خمسها .

فدل على أن الباقي لهم ، يقسم على ما قسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
للراجل سهم ، ولل فارس سهمان سهم لفرسه ، وسهم له .

وأما هذا الخمس ، فيقسم خمسة أسهم ، سهم لله ولرسوله ، يصرف  
في مصالح المسلمين العامة ، من غير تعيين لمصلحة ، لأن الله جعله له ولرسوله ،  
والله ورسوله غنيان عنه ، فعلم أنه لعباد الله .

فإذا لم يعين الله له مصرفاً ، دل على أن مصرفه للمصالح العامة .

والخمس الثاني : لذي القربى ، وهم قرابة النبي صلى الله عليه وسلم ،  
من بنى هاشم ، وبنى المطلب .

وأضافه الله إلى القرابة ، دليلاً على أن العلة فيه ، مجرد القرابة ، فيستوى  
فيه غنيهم وفقيرهم ، ذكرهم وأنثاهم .

والخمس الثالث ، لليتامى وهم : الذين فقدت آباؤهم ، وهم صفار ، جعل  
الله لهم خمس الخمس ، رحمة بهم ، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم ،  
وقد فقد من يقوم بمصالحهم .

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَتَمَّ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ  
بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ

والخمس الرابع للمساكين ، أى : المحتاجين الفقراء ، من صغار ، وكبار ،  
ذكور ، وإناث

والخمس الخامس ، لابن السبيل ، وهو : الغريب المنتقطع به فى غير بلده .  
وبعض المفسرين يقول : إن خمس الغنيمة ، لا يخرج عن هذه الأصناف ،  
ولا يلزم أن يسكنوا فيه ، على السواء ، بل ذلك تبع للمصلحة ، وهذا  
هو الأولى .

وجعل الله أدا ، الخمس على وجهه ، شرطاً للإيمان فقال :

[ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ] وهو يوم  
« بدر » الذى فرق الله به بين الحق والباطل ، وأظهر الحق ، وأبطل الباطل .  
[ يوم التقى الجمعان ] جمع المسلمين ، وجمع الكافرين .

أى : إن كان إيمانكم بالله ، وبالحق الذى أنزله الله على رسوله يوم  
الفرقان ، الذى حصل فيه من الآيات والبراهين ، ما دل على أن ما جاء به  
هو الحق .

[ والله على كل شيء قدير لا يغالبه أحد إلا غلبه .

[ إذ أنتم بالعدوة الدنيا ] أى : بعدوة الوادى القريبة من المدينة .

[ وهم بالعدوة القصوى ] أى : جانبه البعيد من المدينة ، فقد جمعكم

واد واحد .

[ والركب ] الذى خرجتم لطلبه ، وأراد الله غيره [ أسفل منكم ]

مما على ساحل البحر .

فِي الْيَعِيدِ وَلَكِنْ لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ  
عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

---

[ولو تواعدتم] أنتم وإياهم على هذا الوصف، وبهذه الحال [لاختلفتم  
في الميعاد] أى : لا بد من تقدم أو تأخر ، أو اختيار منزل ، أو غير ذلك ،  
مما يعرض لكم ، أولهم ، يصدقكم عن ميعادهم .

[ولكن] الله جمعكم على هذه الحال [ليقضى الله أمراً كان مفعولاً]  
أى : مقدراً في الأزل ، لا بد من وقوعه .

[ليهلك من هلك عن بينة] أى ليكون حجة وبينة للمعاند ، فيختار  
الكفر على بصيرة وجزم ببطالانه ، فلا يبقى له عذر عند الله .

[ويحيا من حي عن بينة] أى : يزداد المؤمن بصيرة ويقينا ، بما أرى  
الله الطائفتين من أدلة الحق وبراهينه ، ما هو تذكرة لأولى الألباب .

[وإن الله لسميع] سميع لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على  
تفنن الحاجات .

[عليم] بالظواهر ، والضمائر ، والسرائر ، والغيب ، والشهادة .

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِيتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِي آَعْيُنِكُمْ

\* وكان الله قد أرى رسوله ، المشركين فى الرؤيا ، قليلا ، فبشر بذلك أصحابه ، فاطمأنت قلوبهم ، وثبتت أفئدتهم .

[ ولو أراكمهم الله كثيرا ] فأخبرت بذلك أصحابك [ لفشيتم ، ولتنازعتم فى الأمر ] .

فمنكم من يرى الإقدام على قتالهم ، ومنكم من لا يرى ذلك ، والقنازع مما يوجب الفشل .

[ ولكن الله سلم ] أى : لطف بكم [ إنه عليم بذات الصدور ] أى : بما فيها من ثبات وجزع ، وصدق وكذب .

فعلم الله من قلوبكم ، ما صار سببا للطفه وإحسانه بكم ، وصدق رؤيا رسوله .

فأرى الله المؤمنين عدوهم ، قليلا فى أعينهم ، ويقللكم — يامعشر المؤمنين — فى أعينهم .

فكل من الطائفتين ، ترى الأخرى قليلة ، لتقدم كل منهما على الأخرى .

قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى  
اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا  
وَأُذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ

[ ليَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ] من نصر المؤمنين، وخذلان الكافرين  
وقتل قادتهم، ورؤساء الضلال منهم، ولم يبق منهم أحد، له اسم يذكر،  
فيتيسر بعد ذلك انقيادهم إذا دعوا إلى الإسلام، فصار أيضاً لطفًا بالباقيين،  
الذين مَنَّ اللَّهُ عليهم بالإسلام.

[ وَإِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ] أى : جميع أمور الخلائق ترجع إلى الله ،  
فيميز الخبيث من الطيب ، ويحكم في الخلائق بحكمه العادل ، الذى لا جور  
فيه ، ولا ظلم .

\* يقول تعالى : [ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ] أى : طائفة من  
الكنار تقاتلكم .

[ فَاثْبُتُوا ] لِقَاتِهَا ، واستعملوا الصبر ، وحبس النفس ، على هذه الطاعة  
الكبيرة ، التى عاقبتها العز والنصر .

واستمعوا على ذلك ، بالإكثار من ذكر الله [ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ]  
أى : تدركون ما تطلبون ، من الانتصار على أعدائكم .

فالصبر والثبات ، والإكثار من ذكر الله ، من أكبر الأسباب للنصر .  
[ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ] فى استعمال ما أمروا به ، والمشى خلف ذلك  
فى جميع الأحوال .

وَرَسُولُهُ وَلَا تَنَزَعُوا فْتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ  
مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ  
بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ

[ولا تنازعوا] تنازعا يوجب تشتت القلوب وتفرقها .

[فتفشلوا] أى : تجبنوا [وتذهب ريحكم] أى : وتنحل عزائمكم ،  
وتتفرق قوتكم ، ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة الله ورسوله .

[واصبروا] نفوسكم على طاعة الله [إن الله مع الصابرين] بالعون  
والنصر والتأييد ، واخشعوا لربكم ، واخضعوا له .

[ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس ويصدون  
عن سبيل الله] أى : هذا مقصدهم الذى خرجوا إليه ، وهذا الذى أبرزهم  
من ديارهم ، لقصد الأشر والبطر فى الأرض ، وليراهم الناس ويفخروا  
لديهم .

والمقصود الأعظم : أنهم خرجوا ، ليصدوا عن سبيل الله ، من  
أراد سلوكه .

[والله بما يعملون محيط] فلذلك أخبركم بمقاصدهم ، وحذركم أن تشبهوا  
بهم ، فإنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة .

فليكن قصدكم فى خروجكم ، وجه الله تعالى ، وإعلاء دين الله ، والصد  
عن الطريق الموصلة إلى سخط الله وعقابه ، وجذب الناس إلى سبيل الله  
التقويم ، الموصل لجنات النعيم .

مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ  
أَلْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَى  
عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ

[ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ] حسنهما في قلوبهم .

[ وقال لا غالب لكم اليوم من الناس ] ، فإنكم في عدَدٍ وعدَدٍ ،  
وهيئة لا يقاومكم فيها محمد ومن معه .

[ وإني جار لكم ] من أن يأتيكم أحد ، ممن تخشون غائلته ، لأن  
إبليس قد تبدى لقريش في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي وكانوا  
يخافون من بني مدلج ، لعداوة كانت بينهم .

فقال لهم الشيطان : أنا جار لكم ، فاطمأنت نفوسهم ، وأتوا على  
حرد قادرين <sup>(١)</sup> .

فلما [ تراءت الفئتان ] المسلمون والكافرون ، فرأى الشيطان جبريل  
عليه السلام يزعم <sup>(٢)</sup> الملائكة خاف خوفاً شديداً [ ونكص على عقبيه ]  
أى : ولى مدبراً .

( ١ ) قوله ( على حرد قادرين ) قال الراغب ، أى : على امتناع  
من أن يتناولوه قادرين على ذلك اهـ . فيكون المراد : وأتوا بجمع وحدة  
وغضب .

( ٢ ) قوله ( يزعم ) أى : حبس أولهم على آخرهم ، فلم يتركهم  
يتطلقون كما يشاءون ، بل كان جبريل يقودهم بنظام .

وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ  
مَّرَضٌ غَرَّ هَوًى لَّا دِينَ لَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ

\* [ وقال ] لمن خدعهم وغرهم : [ إني برىء منكم إني أرى  
ملا ترون ] .

أى : أرى الملائكة الذين لا يدان ، لأحد بقتالهم .  
[ إني أخاف الله ] أى : أخاف أن يعاجلني بالعقوبة فى الدنيا [ والله  
شديد العقاب ] .

ومن المحتمل أن يكون الشيطان ، سول لهم ، ووسوس فى صدورهم ،  
أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ، وأنه جار لهم .

فلما أوردتهم مواردكم ، نكص عنهم ، وتبرأ منهم ، كما قال تعالى :  
« كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال : إني برىء  
منك إني أخاف الله رب العالمين \* فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين  
فيها وذلك جزاء الظالمين » .

\* [ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ] أى : شك وشبهة ، من  
ضعفاء الإيمان ، للمؤمنين ، حين أقدموا - مع قلتهم - على قتال المشركين  
مع كثرتهم .

[ غر هؤلاء دينهم ] أى : أوردتهم الدين الذى هم عليه ، هذه الموارد ،  
التي لا يدان لهم بها ، ولا استطاعة لهم بها .

يقولونه ، احتقاراً لهم ، وإنافا بعتولهم ، وهم - والله - الأخفاء  
عقولا ، الضعفاء أحلاما .

## عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

فإن الإيمان ، يوجب لصاحبه ، الإقدام على الأمور الهائلة ، التي لا يقدم عليها الجيوش العظام .

فإن المؤمن المتوكل على الله ، الذي يعلم أنه ، ما من حول ، ولا قوة ، ولا استطاعة لأحد ، إلا بالله تعالى .

وأن الخلق ، لو اجتمعوا كلهم ، على نفع شخص ، بمنقال ذرة ، لم ينفعوه .

ولو اجتمعوا على أن يضروه ، لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه ، وعلم أنه على الحق ، وأن الله تعالى حكيم رحيم ، في كل ما قدره وقضاه فإنه لا يبالى بما أقدم عليه ، من قوة وكثرة ، وكان واثقاً بربه ، مطمئن القلب لافزعاً ولا جباناً .

ولهذا قال : [ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز ] لا تغالب قوته قوة .

[ حكيم ] فيما قضاه وأجراه .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمُ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَذَّابِ ٱلْأَلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىُّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

\* يقول تعالى : ولو ترى الذين كفروا بآيات الله ، حين توفاهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم ، وقد اشتد بهم القلق ، وعظم كربهم ، [ الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ] يقولون لهم : أخرجوا أنفسكم ، ونفوسهم ممتنعة مستعصية على الخروج ، لعلها ما أمامها من العذاب الأليم . ولهذا قال : [ وذوقوا عذاب الحريق ] أى : العذاب الشديد المحرق . ذلك العذاب ، حصل لكم غير ظلم ولا جور ، من ربكم ، وإنما هو بما قدمت أيديكم ، من المعاصي ، التى أثرت لكم ما أثرت ، وهذه سنة الله فى الأولين والآخرين .

فإن دأب هؤلاء المكذبين أى : سنتهم ، وما أجرى الله عليهم من الهلاك ، بذنوبهم .

[ كذاب آل فرعون والذين من قبلهم ] من الأمم المكذبة .

[ كفروا بآيات الله فأخذهم الله ] بالعقاب [ بذنوبهم ، إن الله قوى شديد العقاب ] لا يعجزه أحد يريد أخذه ، « ما من دابة إلا هو آخذ بما صيبتها » .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ  
حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٣) كَذَّابِ  
، آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ

\* [ ذلك ] العذاب الذى أوقعه الله بالأُم المكذبة ، وأزال عنهم ما هم فيه ، من النعم والنعم ، بسبب ذنوبهم ، وتغييرهم ما بأنفسهم .

[ بأن الله يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم ] من نعم الدين والدنيا ، بل يبقيا ، ويزيدهم منها ، إن ازدادوا له شكراً .

[ حتى يغيروا ما بأنفسهم ] من الطاعة إلى العصية ، فيكفروا نعمة الله ، ويسدلوا بها كفراً ، فيسلبهم إياها ، ويغيرها عليهم ، كما غيروا ما بأنفسهم .

والله الحكمة فى ذلك والعدل والإحسان إلى عباده ، حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم ، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه ، بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره .

[ وأن الله سميع عليم ] يسمع جميع ما نطق به الناطقون ، سواء من أسر القول ومن جهر به .

ويعلم ما تنطوى عليه الضمائر ، وتحفيه السرائر ، فيجرى على عباده من الأقدار ، ما اقتضاه علمه ، وجرت به مشيئته .

[ كذاب آل فرعون ] أى : فرعون وقومه [ والذين من قبلهم ] كذبوا بآيات ربهم [ حين جاءتهم ] فأهلكناهم بذنوبهم [ كل بحسب جرمه ] .

بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾  
 ﴿٥٥﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ  
 لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ  
 مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِذَا تَشَفَّعْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدْتَهُمْ  
 مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

[ وأغرقنا آل فرعون وكل ] من المهلكين المذنبين [ كانوا ظالمين ]  
 لأنفسهم ، ساعين في هلاكها ، لم يظلمهم الله ، ولا أخذهم بغير جرم  
 اقترفوه .

فليحذر الخاطبون ، أن يشابهوهم في الظلم ، فيحل الله بهم من عقابه ،  
 ما أحل بأولئك الفاسقين .

\* [ إن ] هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث — الكفر ، وعدم  
 الإيمان ، والخيانة — بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه ، ولا قول قالوه .

هم [ شر الدواب عند الله ] فهم شر من الخير والكلاب وغيرها ،  
 لأن الخير معدوم منهم ، والشر متوقع فيهم .

فإذهاب هؤلاء ومحققهم ، هو الممتنع ، لئلا يسرى داؤهم لغيرهم  
 ولهذا قال :

[ فإذا تشفعهم في الحرب ] أى : تجدهم في حال المحاربة ، بحيث لا يكون  
 لهم عهد وميثاق .

[ فشرد بهم من خلفهم ] أى نكل بهم غيرهم ، وأوقع بهم من

﴿وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْزِلْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ﴾  
 إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴿﴾

العقوبة ، ما يصيرون به ، عبرة لمن بعدهم [لعلهم] أى : من خلفهم  
 [ يذكرون ] صنيعهم ، لئلا يصيبهم ما أصابهم .

وهذه من فوائد العقوبات والحدود ، المرتبة على المعاصي ، أنها سبب  
 لازدجار من لم يعمل المعاصي ، بل وزجراً لمن عملها ، أن لا يعاودها .

ودل تقييد هذه العقوبة في الحرب ، أن الكافر — ولو كان كثير  
 الخيانة سريع الغدر — أنه إذا أُعْطِيَ عهداً ، لا يجوز خيانتة وعقوبته .

\* أى : وإذا كان بينك وبين قوم ، عهد وميثاق ، على ترك القتال ،  
 نفقت منهم خيانة .

بأن ظهر من قرائن أحوالهم ، ما يدل على خيانتهم ، من غير تصريح  
 منهم بالخيانة .

[ فانزل إليهم ] عهدهم ، أى : ارمه عليهم ، وأخبرهم أنه لا عهد  
 بينك وبينهم .

[ على سواء ] أى : حتى يستوى علمك وعلمهم بذلك ، ولا يحل لك  
 أن تغدرهم ، أو تسعى في شيء مما منعه ، موجب العهد ، حتى  
 تخبرهم بذلك .

[ إن الله لا يحب الخائنين ] بل يبغضهم أشد البغض .

فلا بد من أمرين ، يترسكم من الخيانة .

ودلت الآية ، على أنه ، إذا وجدت الخيانة المحققة منهم ، لم يحتج أن

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ  
لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

ينبذ إليهم عهدهم ، لأنه لم يخف منهم ، بل علم ذلك ، ولعدم الفائدة ولتقوله :  
[ على سواء ] .

وهنا قد كان معلوما عند الجميع غدرهم .

ودل مفهومها أيضاً ، أنه إذا لم يُخَفْ منهم خيانة ، بأن لم يوجد منهم  
ما يدل على ذلك ، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم ، بل يجب الوفاء إلى أن  
تم مدته .

\* أى : لا يحسب الكافرون برهبهم ، المكذبون بآياته ، أنهم سبقوا الله  
وفاتوه ، فإنهم لا يعجزونه ، والله لهم بالمرصاد .

وله تعالى الحكمة البالغة ، فى إهمالهم ، وعدم معاجلتهم بالعقوبة ، التى  
من جللتها ، ابتلاء عباده المؤمنين ، وامتحانهم ، وتزودهم من طاعته  
ومراضيه ، ما يصلون به المنازل العالية ، وانصافهم بأخلاق وصفات ، لم  
يكونوا بغيره ، بالفيها .

فهذا قال لعباده المؤمنين : [ وأعدوا لهم ما استطعتم ] إلى [ وأنتم  
لا تظلمون ] .

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا أُسْتَطِقْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ

\* أى : [ وأعدوا ] لأعدائكم الكفار ، الساعين فى هلاككم ، وإبطال دينكم .

[ ما استطعتم من قوة ] أى : كل ما تقدرُونَ عليه ، من القوة العقلية والبدنية ؛ وأنواع الأسلحة ونحو ذلك ، مما يعين على قتالهم .

فدخل فى ذلك ، أنواع الصناعات ، التى تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات ، من المدافع ، والرشاشات ، والبنادق ، والطائرات الجوية ، والمراكب البرية والبحرية ، والقلاع ، والحنادق ، وآلات الدفاع ، والرأى والسياسة ، التى بها يتقدم المسلمون ، ويندفع عنهم به ، شر أعدائهم ، وتعلم الرِّمى ، والشجاعة ، والتدبير .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « ألا إن القوة الرِّمى » .

ومن ذلك : الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال .

ولهذا قال تعالى : [ ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ] .

وهذه العلة موجودة فيها فى ذلك الزمان ، وهى إرهاب الأعداء ، والحكم يدور مع علته .

فإذا كان شيء موجوداً أكثر إرهاباً منها ، كالسيارات البرية والهوائية ، المعدة للقتال ، التى تكون النكاية فيها أشد ، كانت مأموراً بالاستعداد بها ، والسعى لتحصيلها .

حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة ، وجب ذلك ، لأن « ما لا يتم الواجب إلا به ، فهو واجب » .

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ  
اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ  
لَا تَظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

---

وقوله [ ترهبون به عدو الله وعدوكم ] من تعلمون أنهم أعداؤكم .  
[ وآخري من دونهم لا تعلمونهم ] من سيقاتلونكم بعد هذا الوقت ،  
الذى يخاطبهم الله به [ الله يعلمهم ] فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم .  
ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذلك ، النفقات المالية ، في جهاد  
الكفار .  
ولهذا قال تعالى مرغباً في ذلك : [ وما تنفقوا من شيء في سبيل الله ]  
قليلاً كان أو كثيراً [ يوف إليكم ] أجره يوم القيامة مضاعفاً  
أضعافاً كثيرة .  
حتى إن النفقة في سبيل الله ، تضاعف إلى سبعائة ضعف ، إلى  
أضعاف كثيرة .  
[ وأنتم لا تظلمون ] أى : لا تنقصون ، من أجرها وثوابها ، شيئاً .

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ

\* يقول تعالى [وإن جنحوا] أى : الكفار المحاربون أى : مالوا [للسلم] أى : الصلح وترك القتال .

[فاجنح لها وتوكل على الله] أى : أجبهم إلى ما طلبوا ، متوكلاً على ربك ، فإن فى ذلك فوائد كثيرة .

منها : أن طلب العافية ، مطلوب كل وقت ، فإذا كانوا ، هم المبتدئين فى ذلك ، كان أولى لإجابتهم .

ومنها : أن فى ذلك استجماماً لقواكم ، واستعداداً منكم لقتالهم فى وقت آخر ، إن احتيج إلى ذلك .

ومنها : أنكم ، إذا أصلحتهم ، وأمن بعضكم بعضاً ، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر ، فإن الإسلام يعلو ، ولا يعلو عليه .

فكل من له عقل وبصيرة ، إذا كان معه إنصاف ، فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان ، لحسنه فى أوامره ونواهيه ، وحسنه فى معاملته للخلق ، والعدل فيهم ، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه ، فحينئذ يكثر الراغبون فيه ، والمتبعون له .

فصار هذا السلم ، عوناً للمسلمين على الكافرين .

ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة ، وهى أن يكون الكفار ، قصدهم بذلك ، خدع المسلمين ، وانتهاز الفرصة فيهم .

هُوَ الَّذِي آيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ  
لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ

فَأَخْبَرَهُمُ اللَّهُ ، أَنَّهُ حَسْبُهُمْ وَكَافِيهِمْ خِدَاعُهُمْ ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَعُودُ عَلَيْهِمْ  
ضَرَرُهُ فَقَالَ :

[وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله] أى : كافيك ما يؤذك ،  
وهو القائم بمصالحك ومهماتك ، فقد سبق لك من كفايته لك ونصره ،  
ما يطمئن به قلبك .

وإنه [ هو الذى آيدك بنصره وبالمؤمنين ] أى : أعانك بمعونة سماوية  
وهو : النصر منه ، الذى لا يقاومه شئ ، ومعونة بالمؤمنين بأن قيضهم  
لنصرك .

[ وألف بين قلوبهم ] فاجتمعوا واثتلفوا ، وازدادت قوتهم ، بسبب  
اجتماعهم .

ولم يكن هذا بسمى أحد ، ولا بقوة ، غير قوة الله .

وإنك [ لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ] من ذهب ، وفضة وغيرها ،  
لتأليفهم بعد تلك النفرة ، والفرقة الشديدة [ ما ألفت بين قلوبهم ] لأنه  
لا يقدر على قلب القلوب إلا الله تعالى .

[ ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ] ومن عزته ، أن ألف بين  
قلوبهم ، وجمعها بعد الفرقة كما قال تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ  
كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا  
حفرة من النار فأنقذكم منها » .

أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ  
وَمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ  
مِّنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ مِّائَةٌ

---

ثم قال تعالى [ يا أيها النبي حسبك الله ] أى : كافيك [ ومن اتبعك  
من المؤمنين ] أى : وكافى أتباعك من المؤمنين .  
وهذا وعد من الله ، لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله ، بالكفاية ،  
والنصرة على الأعداء .

فإذا أتوا بالسبب ، الذى هو الإيمان والاتباع ، فلا بد أن يكنهم  
ما أهمهم ، من أمور الدين والدنيا ، وإنما تتخلف الكفاية ، بتخلف شرطها .  
\* يقول تعالى ، لنبيه صلى الله عليه وسلم : [ يا أيها النبي حرض المؤمنين  
على القتال ] أى : حثهم واستنهضهم <sup>(١)</sup> إليه بكل ما يقوى عزائمهم ،  
وينشط همهم ، من الترغيب فى الجهاد ، ومقارعة الأعداء ، والترهيب من  
ضد ذلك ، وذكر فضائل الشجاعة ، والصبر ، وما يترتب على ذلك ، من  
خير فى الدنيا والآخرة ، وذكر مضار الجبن ، وأنه من الأخلاق الرذيلة ،  
المنقصة للدين والمروءة ، وأن الشجاعة بالمؤمنين ، أولى من غيرهم « إن  
تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون » .  
[ إن يكن منكم ] أيها المؤمنون [ عشرون صابرون يغلبوا مائتين ،

---

(١) فى الأصل المطبوع « ونهضهم » وهو خطأ لغوى .

يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَلَّا تَرَ  
خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنْكُمْ مِّائَةٌ  
صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ  
يَاذَنِ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا [ يكون الواحد بنسبة  
عشرة من الكفار .

وذلك [ بأنهم ] أى : الكفار [ قوم لا يفقهون ] أى : لا علم عندهم ،  
بما أعد الله للجاهدين فى سبيله ، فهم يقاتلون لأجل العلو فى الأرض ،  
والفساد فيها .

وأتم تفقهون المقصود من القتال ، أنه لإعلاء كلمة الله ، وإظهار دينه  
والذب عن كتاب الله ، وحصول الفوز الأكبر عند الله .

وهذه كلها ، دواعى للشجاعة والصبر ، والإقدام على القتال .

ثم إن هذا الحكم خففه الله على العباد فقال :

[ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ] فلذلك اقتضت رحمته  
وحكمته ، التخفيف .

[ فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا  
ألفين يا ذن الله ، والله مع الصابرين ] بعونه وتأويده .

وهذه الآيات ، صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين ، بأنهم إذا بلغوا  
هذا المقدار المعين ، يغلبون ذلك المقدار المعين فى مقابلته من الكفار ، وأن  
الله يمتن عليهم ، بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية .

ولكن معناها وحقيتها ، الأمر ، وأن الله أمر المؤمنين — في أول الأمر — أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة ، والعشرة من المائة ، والمائة من الألف .

ثم إن الله خفف ذلك ، فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثلهم من الكفار ، فإن زادوا على مثلهم ، جاز لهم الفرار ، ولكن يرد على هذا أمران . أحدهما : أنها بصورة الخبر ، والأصل في الخبر ، أن يكون على بابه ، وأن المقصود بذلك ، الامتنان ، والإخبار بالواقع .

والثاني : تقييد ذلك العدد ، أن يكونوا صابرين ، بأن يكونوا متدربين على الصبر .

ومفهوم هذا ، أنهم إذا لم يكونوا صابرين ، فإنه يجوز لهم الفرار ، ولو أقل من مثلهم ، إذا غلب على ظنهم الضرر ، كما تقتضيه الحكمة الإلهية . ويحجب عن الأول ، بأن قوله : [ الآن خفف الله عنكم ] إلى آخرها ، دليل على أن هذا الأمر لازم ، وأمر محتم ، ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد . فهذا ظاهر في أنه أمر ، وإن كان في صيغة الخبر .

وقد يقال : إن في إتيانه بلفظ الخبر ، نكتة بديعة ، لا توجد فيه ، إذا كان بلفظ الأمر .

وهي : تقوية قلوب المؤمنين ، والبشارة بأنهم ، سيفعلون الكافرين . ويحجب عن الثاني : أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين ، أنه حث على الصبر ، وأنه ينبئ منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك .

فإذا فعلوها ، صارت الأسباب الإيمانية ، والأسباب المادية ، مبشرة بحصول ما أخبر الله به ، من النصر ، لهذا العدد القليل

﴿١٧﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُفْخِنَ  
فِي الْأَرْضِ تَرْيَدُونَ عَرْضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ  
حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ لَوْ لَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ

\* هذه معاناة من الله لرسوله وللمؤمنين ، يوم « بدر » إذ أسروا  
المشركين ، وأبقوهم لأجل الفداء .

وكان رأى أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب في هذه الحال ، قتالهم  
واستنصاحهم .

فقال تعالى : [ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ]  
أى : ما ينبغي ، ولا يليق به ، إذا قاتل الكفار ، الذين يريدون أن  
يطفئوا نور الله ، ويسعون لإخاد دينه ، وأن لا يبق على وجه الأرض من  
يعبد الله ، أن يتسرع إلى أسرهم وإبقائهم ، لأجل الفداء ، الذى يحصل  
منهم ، وهو عرض قليل ، بالنسبة إلى المصلحة التقتضية لإبادتهم ،  
وإبطال شرهم .

فما دام لهم شر وصوله ، فالأوفق أن لا يؤسروا .  
فإذا أثخن في الأرض ، وبطل شر المشركين ، واضمحل أمرهم ، فحينئذ  
لا بأس بأخذ الأسرى منهم ، وإبقائهم .

يقول تعالى : [ تريدون ] بأخذكم الفداء وإبقائهم [ عرض الحياة  
الدنيا ] أى : لا لمصلحة تعود إلى دينكم .

[ والله يريد الآخرة ] بإعزاز دينه ، ونصر أوليائه ، وجعل كلمتهم  
عالية فوق غيرهم ، فيأمركم بما يوصل إلى ذلك .

[ والله عزيز حكيم ] أى : كامل العزة ، ولو شاء أن ينتصر من

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ  
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾

---

الكفار ، من دون قتال ، لفعل ولكنه حكيم ، يبتلى بعضكم ببعض .

[ لولا كتاب من الله سبق ] به القضاء والقدر ، أنه قد أحل لكم  
الغنائم ، وأن الله رفع عنكم - أيتها الأمة - العذاب [ لمسكم فيما أخذتم  
عذاب عظيم ] وفي الحديث « لو نزل عذاب يوم بدر ، ما نجا منه  
إلا عمر » .

[ فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا ] وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة ،  
أن أحل لها الغنائم ، ولم تحل لأمة قبلها .

[ واتقوا الله ] في جميع أموركم ولازموها ، شكراً لنعم الله عليكم .

[ إن الله غفور ] يغفر لمن تاب إليه ، جميع الذنوب .

ويغفر لمن لم يشرك به شيئاً ، جميع المعاصي .

[ رحيم ] بكم ، حيث أباح لكم الغنائم ، وجعلها حلالا طيباً .

يَسْأَلُهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى  
إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ  
وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ  
خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

وهذه نزلت في أسارى يوم بدر ، وكان من جملتهم ، العباس ، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما طلب منه الفداء ، ادّعى أنه مسلم قبل ذلك ، فلم يسقطوا عنه الفداء .  
فأنزل الله تعالى ، ، جبراً لخاطره ، ومن كان على مثل حاله .

[ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى ، إن يعلم الله في قلوبكم  
خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ] أى : من المال ، بأن يسر لكم من فضله ،  
خيراً كثيراً ، مما أخذ منكم .

[ ويغفر لكم ] ذنوبكم ، ويدخلكم الجنة [ والله غفور رحيم ] .

وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره ، فحصل له — بعد ذلك — من  
المال ، شيء كثير .

حتى إنه مرة ، لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم ، مال كثير ، أتاه  
العباس ، فأمره أن يأخذ منه بثوبه ، ما يطيق حمله فأخذ منه ، ما كاد أن  
يعجز عن حمله .

[ وإن يريدوا خيانتك ] فى السعى لحربك ، ومنابدتك .

[ فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ] فليحذروا خيانتك ، فإنه تعالى  
قادر عليهم ، وهم تحت قبضته .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ  
وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ  
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلِيَّتِهِم

والله عليم حكيم أى : عليم بكل شىء ، حكيم ، يضع الأشياء مواضعها .

ومن علمه وحكمته ، أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة ، وقد تكفل بكفائتكم ، شأن الأسرى وشرهم ، إن أرادوا خيانة .

\* هذا عقد موالاة ومحبة ، عندها الله بين المهاجرين ، الذين آمنوا وهاجروا فى سبيل الله . وتركوا أوطانهم لله ، لأجل الجهاد فى سبيل الله .

وبين الأنصار ، الذين آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه وأعانوهم فى ديارهم وأموالهم وأنفسهم .

فهؤلاء ، بعضهم ، أولياء بعض ، لكامل إيمانهم ، وتتمام اتصال بعضهم ببعض .

[ والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ] .

فإنهم قطعوا ولايتكم ، بانفصالهم عنكم ، فى وقت شدة الحاجة إلى الرجال .

فلما لم يهاجروا ، لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شىء .

مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ  
التَّصَرُّ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ يَينَكُم وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ  
بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ  
تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾

لكم [إن استنصروكم في الدين] أى : لأجل قتال من قاتلهم  
[فعايكم النصر] والقتال معهم .

وأما من قاتلوهم لغير ذلك ، من المقاصد ، فليس عليكم نصرهم .  
وقوله تعالى [إلا على قوم يينكم وبينهم ميثاق] أى : عهد بترك  
القتال ، فإنهم إذا أراد المؤمنون التمييزون ، الذين لم يهاجروا قتالهم ،  
فلا تعينوهم عليهم ، لأجل ما يينكم وبينهم من الميثاق .  
[والله بما تعملون بصير] يعلم ما أتم عليه ، من الأحوال ، فيشرع لكم  
من الأحكام ، ما يليق بكم .

\* لما عقد الولاية بين المؤمنين ، أخبر أن الكفار ، حيث جمعهم الكفر  
فبعضهم أولياء بعض ، فلا يوالىهم إلا كافر مثاهم .

وقوله [إلا تفعلوه] أى : موالاتة المؤمنين ، ومعاداة الكافرين ، بأن  
واليتيموهم أو عاديتموهم كلهم ، أو واليتيم الكافرين ، وعاديتم المؤمنين .  
[تكن فتنة في الأرض وفساد كبير] فإنه يحصل بذلك ، من الشر ،  
مالا ينحصر ، من اختلاط الحق بالباطل ، والؤمن بالكافر ، وعدم كثير  
من العبادات الكبار ، كالجهاد ، والهجرة ، وغير ذلك من مقاصد الشرع ،  
والدين ، التي تنوت ، إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء ، بعضهم لبعض .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ  
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا

\* الآيات السابقة ، في ذكر عقد الموالاة ، بين المؤمنين من المهاجرين  
والأنصار .

وهذه الآيات ، في بيان مدحهم وثوابهم ، فقال : [ والذين آمنوا  
وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون ]  
من المهاجرين والأنصار أى : المؤمنون [ حقاً ] لأنهم صدقوا إيمانهم  
بما قاموا به ، من الهجرة ، والنصرة ، والموالاة ، بعضهم لبعض ، وجهادهم  
لأعدائهم ، من الكفار والمنافقين .

( لهم مغفرة ) من الله ، تتجى بها سيئاتهم ، وتضمحل بها زلاتهم .  
( و ) لهم ( رزق كريم ) أى : خير كثير ، من الرب الكريم ، في  
جنت النعيم .

وربما حصل لهم من الثواب العجل ، ما تقر به أعينهم ، وتطمئن  
به قلوبهم .

وكذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار ، ممن اتبعهم  
ياحسان فآمن وهاجر وجاهد في سبيل الله .

[ فأولئك منكم ] لهم ما لكم وعليهم ما عليكم .

فهذه الموالاة الإيمانية - وقد كانت في أول الإسلام - لها وقع كبير ،  
وشأن عظيم

حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم ، أخى بين المهاجرين والأنصار ،

مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ  
فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

---

أخوة خاصة ، غير الأخوة الإيمانية العامة ، وحتى كانوا يتوارثون بها ،  
فأنزل الله [ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ] .

فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات ، وأصحاب الفروض .

فإن لم يكونوا ، فأقرب قراباته ، من ذوى الأرحام ، كما دل عليه عموم  
الآية الكريمة .

وقوله [ في كتاب الله ] أى : فى حكمه وشرعه .

[ إن الله بكل شىء عليم ] ومنه ما يعلمه ، من أحوالكم ، التى يجرى  
من شرائعه الدينية عليكم ، ما يناسبها .

تم تفسير سورة الأنفال - والله الحمد والمنة

تفسير

## سُورَةُ النَّوْبَةِ

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ  
الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ  
غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾

أى : هذه براءة من الله ، ومن رسوله إلى جميع المشركين المعاندين ،  
أن لهم أربعة أشهر ، يسيحون في الأرض على اختيارهم ، آمنين من المؤمنين ،  
وبعد الأربعة الأشهر ، فلا عهد لهم ، ولا ميثاق .

وهذا لمن كان له عهد مطلق ، غير مقدر ، أو مقدر بأربعة أشهر ، فأقل .  
أما من كان له عهد مقدر ، بزيادة على أربعة أشهر ، فإنه يتعين أن  
يتم له عهده ، إذا لم يخف منه خيانة ، ولم يبدأ بنقض العهد .

ثم أنذر المعاهدين في مدة عهدهم ، أنهم ، وإن كانوا آمنين ، فإنهم  
لن يعجزوا الله ، ولن يفوتوه .

وأنه ، من استمر منهم على شركه ، فإنه لا بد أن يخزيه .

فكان هذا ، مما يجلبهم إلى الدخول في الإسلام ، إلا من عاند ،  
وأصر ، ولم يبال بوعيد الله .

وَأَذَّنُ مِنْ أَلَلِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ

\* هذا ما وعد الله به المؤمنين ، من نصر دينه ، وإعلاء كلمته ، وخذلان أعدائهم ، من المشركين ، الذين أخرجوا الرسول ومن معه ، من مكة ، من بيت الله الحرام ، وأجلوهم مما لهم التسلط عليه ، من أرض الحجاز .  
نصر الله رسوله والمؤمنين حتى افتتح مكة ، وأذل المشركين ، وصار للمؤمنين ، الحكم والغلبة ، على تلك الديار .

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر ، وهو : يوم النحر ، وقت اجتماع الناس ، مسلمهم ، وكافرهم ، من جميع جزيرة العرب ، أن يؤذن بأن الله برىء ورسوله من المشركين .

فليس لهم عنده ، عهد وميثاق ، فأبنا وجدوا قتلوا ، وقيل لهم : لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا ، وكان سنة تسع من الهجرة .

وحج بالناس أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وأذن ببراءة يوم النحر ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على بن أبي طالب رضى الله عنه .

ثم رغب تعالى المشركين بالتوبة ، ورهبهم من الاستمرار على الشرك فقال : [ فَإِنْ تَبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ، فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ] .

أى : فائتيه ، بل أنت في قبضته ، قادر أن يسلط عليكم عباده المؤمنين .

وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾

﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ  
شَيْئًا وَلَمْ يُظْهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ  
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

[وبشر الذين كفروا بعذاب أليم] أى : مؤلم مقطع فى الدنيا ، بالقتل ،  
والأسر ، والجلاء ، وفى الآخرة ، بالنار ، وبئس القرار .

\* أى هذه البراءة التامة المطلقة ، من جميع المشركين .

[إلا الذين عاهدتم من المشركين] واستمروا على عهدهم ، ولم يجر منهم  
ما يوجب النقص ، فلا نقصوكم شيئاً ، ولا عاونوا عليكم أحداً ، فهو لا .  
أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، قلّت ، أو كثرت .

لأن الإسلام ، لا يأمر بالخيانة ، وإنما يأمر بالوفاء .

[إن الله يحب المتقين] الذين أدوا ما أمروا به ، واتقوا الشرك  
والخيانة ، وغير ذلك ، من المعاصى .

﴿فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥)

\* يقول تعالى [فإذا انسأخ الأشهر الحرم] أى : التى حرم فيها قتال المشركين للمعاهدين ، وهى أشهر التيسير الأربعة ، وتمام المدة ، لمن له مدة أكثر منها ، فقد برئت منهم الذمة .

[فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم] فى أى مكان وزمان .

[وخذوهم] أسرى [واحصروهم] أى : ضيقوا عليهم ، فلا تدعوهم يتوسعون فى بلاد الله وأرضه ، التى جعلها معبداً لعباده .

فهؤلاء ، ليسوا أهلاً لسكنائها ، ولا يستحقون منها شيئاً ، لأن الأرض أرض الله ، وهم أعداؤه ، المنابذون له ولرسله ، الحاربون ، الذين يريدون أن تخلو الأرض من دينه ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون . [واقعدوا لهم كل مرصد] أى : كل ثنية وموضع ، يبرون عليه ، وربطوا فى جهادهم ، وابدلوا غاية مجهودكم فى ذلك ، ولا تزالوا على هذا الأمر ، حتى يتوبوا من شركهم .

ولهذا قال : [فإن تابوا] من شركهم [وأقاموا الصلاة] أى : أدوها بحقوقها [وآتوا الزكاة] لمستحقها [اخلوا سبيلهم] أى : اتركوهم ، وليكونوا مثلكم ، لهم مالكم ، وعليهم ما عليكم .

[إن الله غفور رحيم] يغفر الشرك فادونه ، للتائبين ، ويرحمهم ، بتوفيقهم للتوبة ، ثم قبولها منهم .

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ  
كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦)

وفي هذه الآية ، دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة ، فإنه يقاتل حتى يؤديها ، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضى الله عنه لما كان ما تقدم من قوله [ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ] أمراً عاماً في جميع الأحوال ، وفي كل الأشخاص منهم ، ذكر تعالى ، أن المصلحة إذا اقتضت تقرب بعضهم ، جاز ، بل وجب ذلك فقال :

[ وإن أحد من المشركين استجارك ] أى : طلب منك أن تحبسه ، وتمنعه من الضرر ، لأجل أن يسمع كلام الله ، وينظر حالة الإسلام .

[ فأجره حتى يسمع كلام الله ] ثم إن أسلم ، فذاك ، وإلا فأبلغه مأمنه ، أى : الحل الذى يأمن فيه .

والسبب فى ذلك ، أن الكفار قوم لا يعلمون .

فربما كان استمرارهم على كفرهم ، لجهل منهم ، إذا زال ، اختاروا عليه الإسلام .

فلذلك أمر الله رسوله ، وأمته أسوته فى الأحكام ، أن يجبروا من طلب أن يسمع كلام الله .

وفى هذا حجة صريحة ، لمذهب أهل السنة والجماعة ، القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، لأنه تعالى ، هو المتكلم به ، وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها .

﴿٧﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ  
رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُّوا لَكُمْ  
فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

وبطلان مذهب المعتزلة ، ومن أخذ بقولهم : أن القرآن مخلوق .

وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول ، ليس هذا ، محل ذكرها .

\* هذا بيان للحكمة الموجبة ، لأن يتبرأ الله ورسوله من المشركين ، فقال :

[ كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ؟ ! ] هل قاموا  
بواجب الإيمان ، أم تركوا رسول الله والمؤمنين من أذيتهم ؟ .

حاربوا الحق ونصروا الباطل ؟

أما سمعوا في الأرض فساداً ، فيحق عليهم أن يتبرأ الله منهم ، وأن  
لا يكون لهم عهد عنده ، ولا عند رسوله ؟ .

[ إلا الذين عاهدتم ] من المشركين [ عند المسجد الحرام ] فإن لهم —  
في العهد — وخصوصاً في هذا المكان الفاضل — حرمة أوجب أن  
يعاوا فيها .

[ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين ] ، ولهذا قال :

( كيف وإن يظهروا ) إلى قوله ( لقوم يعلمون ) .

﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا  
وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ  
فَاسِقُونَ ﴾ (٨) اَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ

\* أى : [ كيف ] يكون للمشركين عند الله عهد وميثاق [ و ] الحال أنهم  
[ إن يظهروا عليكم ] بالقدرة والساطة ، لا يرحومكم ، و [ لا يرقبوا منكم ]  
إلا ولا ذمة <sup>(١)</sup> [ أى : لا ذمة ولا قرابة ، ولا يخافون الله فيكم ، بل  
يسومونكم سوء العذاب ، فهذه حالكم معهم لو ظهروا .

ولا يفرنكم منهم ، ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم ، فإنهم  
[ يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ] النيل والمحبة لكم ، بل هم الأعداء  
حقاً ، المبغضون لكم صدقاً .

[ وأكثرتهم فاسقون ] لا ديانة لهم ، ولا مروءة .

[ اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا ] أى : اختاروا الحظ العاجل الخسيس  
في الدنيا . على الإيمان بالله ورسوله ، والالتقياد بآيات الله .

[ فصدوا ] بأنفسهم ، وصدوا غيرهم [ عن سبيله ] ، إنهم ساء ما كانوا  
يعملون . لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة [ أى : لأجل عداوتهم للإيمان  
إلا ولا ذمة ] أى : لأجل عداوتهم للإيمان وأهله .

( ١ ) قال الراغب الأصفهاني : ( الإل ) كل حالة ظاهرة من عهد  
خلف وقرابة ، « تتل : تلعب فلا يمكن إنكاره والمراد هنا : لا يرعون عهداً  
ولا حلفاً ولا قرابة وقوله ( ولا ذمة ) أى : لا عهد لهم ولا أمان .

إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً  
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ  
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ  
يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

فالوصف ، الذى جعلهم يعادونكم لأجله ويغضونكم ، هو الإيمان .  
فذبوا عن دينكم ، وانصروه ، واتخذوا من عاداه ، عدوًّا ، ومن نصره  
لكم وليًّا ، واجعلوا الحكم يدور معه ، وجوداً وعدماً .

لا تجعلوا الولاية والعداوة ، طبيعة تميلون بها ، حيثما مال الهوى ،  
وتتبعون فيها النفس الأمارة بالسوء ، ولهذا :

[فإن تابوا] عن شركهم ، ورجعوا إلى الإيمان [وأقاموا الصلاة  
وأتوا الزكاة ، فأخوانكم فى الدين] وتناسوا تلك العداوة إذ كانوا  
مشركين ، لتكونوا عباد الله المخلصين ، وبهذا يكون العبد ، عبداً حقيقته .  
لما بين من أحكامه العظيمة ما بين ، ووضح منها ما وضح ، أحكاماً  
وحكماً ، وحكماً ، وحكمة قال :

[ونفصل الآيات] أى : نوضحها ونميزها [لقوم يعلمون] فإليهم  
سياق الكلام ، وبهم تعرف الآيات والأحكام ، وبهم عرف دين الإسلام ،  
وشرائع الدين .

اللهم اجعلنا من القوم الذين يعلمون ، ويعملون بما يعلمون ، برحمتك  
وجودك ، وكرمك ، وإحسانك ، يارب العالمين .

﴿وَأِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ (١٢) أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ أَوْ بِإِخْرَاجِ

\* يقول تعالى — بعدما ذكر أن المعاهدين من المشركين ، إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء .

[وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم] أى : نقضوها وحلوها ، أو أعانوا على قتالكم ، أو نقضوكم .

[وطعنوا فى دينكم] أى : عابوه ، وسخروا منه .

ويدخل فى هذا ، جميع أنواع الطعن الموجهة إلى الدين ، أو إلى القرآن .

[فقاتلوا أئمة الكفر] أى : القادة فيه ، الرؤساء الطاعنين فى دين

الرحمن ، الناصرين لدين الشيطان .

وخصهم بالذكر ، لعظم جنايتهم ، ولأن غيرهم تبع .

وليدل على أن من طعن فى الدين ، وتصدى للرد عليه ، فإنه من أئمة

الكفر .

[إيمانهم لا أيمان لهم] أى : لا عهود ، ولا مواعيق ، يلزمون على

الوفاء بها ، بل لا يزالون خائنين ، ناكثين للعهد ، لا يوثق منهم .

[لعمهم] فى قتالهم بإيهم [ينتهون] عن الطعن فى دينكم ، وربما دخلوا فيه

ثم حث على قتالهم ، وهيج المؤمنين بذكر الأوصاف ، التى صدرت

من هؤلاء الأعداء ، والتى هم موصوفون بها ، المقتضية لقتالهم فقال :

[ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول] الذى يجب

الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ اتَّخَشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ  
تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ  
وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾

احترامه ، وتوقيره ، وتعظيمه ؟ وهموا أن يحلوه ويخرجوه من وطنه ، وسعوا  
في ذلك ما أمكنهم .

[وهم بدأوكم أول مرة] حيث نقضوا العهد ، وأعانوا عليكم .

وذلك حيث أعانت قريش — وهم معاهدون — بنى بكر حلفاءهم ،  
على خراعة ، حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقاتلوا معهم كما هو  
مذكور مبسوط في السيرة .

[اتَّخَشَوْنَهُمْ] في ترك قتالهم [فإنك أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين] .

فإنك أمركم بقتالهم ، وأكد ذلك عليكم غاية التأكيد .

فإن كنتم مؤمنين ، فامتنوا الأمر الله ، ولا تخشوه ، فتركوا أمر الله .

ثم أمر بقتالهم وذكر ما يترتب على قتالهم من النوائد ، وكل هذا ،  
حث وإيهاض للمؤمنين على قتالهم فقال :

[قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم] بالقتل [ويخزيهم] إذا نصركم الله

عليهم ، وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم ويحرص عليه .

[وينصركم عليهم] هذا وعد من الله وبشارة ، قد أنجزها .

[ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم] فإن في قلوبهم

من الحق والغيظ عليهم ، ما يكون قتالهم وقتلهم ، شفاء لنا في قلوب المؤمنين

وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ  
حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

من الغم ، والهم ، إذ يرون هؤلاء الأعداء ، محاربين لله ولرسوله ، ساعين  
في إطفاء نور الله ، وزوالاً للغيظ ، الذى فى قلوبكم .

وهذا يدل على محبة الله للمؤمنين ، واعتنائه بأحوالهم .

حتى إنه جعل — من جملة المقاصد الشرعية — شفاء ما فى صدورهم  
وذهاب غيظهم .

ثم قال : [ ويتوب الله على من يشاء ] من هؤلاء المحاربين ، بأن يوفتهم  
للدخول فى الإسلام ، ويزينه فى قلوبهم ، ويُكَرِّهَ إليهم الكفر والفسوق  
والعصيان .

[ والله عليم حكيم ] يضع الأشياء مواضعها ، ويعلم من يصلح للإيمان  
فينهديه ، ومن لا يصلح ، فيبقيه فى غيه وطفئانه .

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦)

\* يقول تعالى لعباده المؤمنين — بعد ما أمرهم بالجهاد — :  
 [ أم حسبتم أن تتركوا ] من دون ابتلاء وامتحان ، وأمر بما يبين به الصادق والكاذب .  
 [ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ] أى : علماً يظهر ما فى القوة إلى الخارج ، ليرتب عليه الثواب والعقاب .  
 فيعلم الذين يجاهدون فى سبيله : لإعلاء كلمته [ ولم يتخذوا من دون الله ولا المؤمنين وليجة<sup>(١)</sup> ] أى : ولياً من الكافرين ، بل يتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء .  
 فشرع الله الجهاد ، ليحصل به هذا المقصود الأعظم ، وهو أن يتميز الصادقون ، الذين لا يتحيزون إلا للدين الله ، من الكاذبين ، الذين يزعمون الإيمان ، وهم يتخذون الولائج والأولياء ، من دون الله ، ورسوله ، والمؤمنين .  
 [ والله خبير بما تعملون ] أى : ما يصير منكم ويصدر ، فيبتايمكم بما تظهر به حقيقة ما أنتم عليه ، ويجازيكم على أعمالكم ، خيرها وشرها .

(١) وليجة أى : أصدقاء وبطانة . تطالعونهم على جميع أسراركم وتعتمدون عليهم فى شئونكم قال الراغب فى شرح مفردات غريب القرآن ( الوليجة كل ما يتخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من أهله من قولهم « فلان وليجة فى النوم » إذا لحق بهم وليس منهم ، إنسانا كان أو غيره ) اهـ .

﴿وَمَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

\* يقول تعالى : [ ما كان ] أى ما ينبغى ولا يليق [ للمشركين أن يعمروا مساجد الله ] بالعبادة ، والصلاة ، وغيرها من أنواع الطاعات ، والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر ، بشهادة حالهم وفطرم ، وعلم كثير منهم ، أنهم على الكفر والباطل .

فإذا كانوا [ شاهدين على أنفسهم بالكفر ] وعدم الإيمان ، الذى هو شرط لقبول الأعمال ، فكيف يزعمون أنهم عمّارُ مساجد الله ، والأصل منهم مفقود ، والأعمال منهم باطلة ؟ !! .

ولهذا قال : [ أولئك حبطت أعمالهم ] أى : بطلت وصلت [ وفي النار هم خالدون ] .

ثم ذكر من هم عمار مساجد الله فقال : [ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة ] الواجبة والمستحبة ، بالقيام بالظاهر منها والباطن .

[ وآتى الزكاة ] لأهلها [ ولم يخش إلا الله ] أى قصر خشيته على ربه ، فكف عنه ما حرم الله ، ولم يقصر بحقوق الله الواجبة .

فوصفهم بالإيمان النافع ، وبالقيام بالأعمال الصالحة ، التى أمّها ، الصلاة ، والزكاة ، وبخشية الله ، التى هى أصل كل خير .

وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَمَسَىٰ أُولَٰئِكَ  
أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ  
ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ

فهؤلاء ، عمار المساجد على الحقيقة وأهلها ، الذين هم أهلها .  
[ فمسي أولئك أن يكونوا من المهتدين ] و« عسى » من الله واجبة .  
وأما من لم يؤمن بالله ، ولا باليوم الآخر ، ولا عنده خشية لله ، فهذا  
ليس من عمار مساجد الله ، ولا من أهلها ، الذين هم أهلها ، وإن زعم  
ذلك ، وادعاه .

\* لما اختلف بعض المسلمين ، أو بعض المسلمين وبعض المشركين ، في تفضيل  
عمارة المسجد الحرام ، بالبناء ، والصلاة ، والعبادة فيه ، وسقاية الحاج ،  
على الإيمان بالله ، والجهاد في سبيله — أخبر الله تعالى بالتفاوت بينهما ، فقال :  
[ أجعلتم سقاية الحاج ] أى : سقيهم الماء من زمزم ، كما هو المعروف ،  
إذا أطلق هذا الاسم ، أنه هو المراد [ وعمارة المسجد الحرام ] كمن آمن بالله  
واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ، لا يستوون عند الله ] .

فالجهاد والإيمان بالله ، أفضل من سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام ،  
بدرجات كثيرة ، لأن الإيمان ، أصل الدين ، وبه تقبل الأعمال ، وتزكو  
الخصال .

وأما الجهاد في سبيل الله ، فهو ذروة سنام الدين ، به يحفظ الدين  
الإسلامي ، ويتسع ، وينصر الحق ، ويخذل الباطل .

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا  
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ  
اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ  
مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾

وأما عمارة المسجد الحرام ، وسقاية الحاج ، فهي ، وإن كانت أعمالا  
صالحة ، فهي متوقفة على الإيمان ، وليس فيها من المصالح ، ما في الإيمان  
والجهاد ، فلذلك قال :

[ لا يستون عند الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين ] أى : الذين  
وصفهم الظلم ، الذين لا يصلحون لقبول شيء من الخير ، بل لا يليق بهم  
إلا الشر .

ثم صرح بالفضل فقال : [ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل  
الله بأموالهم ] بالنفقة في الجهاد ، وتجهيز الغزاة [ وأنفسهم ] بالخروج بالنفس  
[ أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ] أى : لا يفوز بالمطلوب ،  
ولا ينجو من المهووب ، إلا من انصف بصفاتهم ، وتخلق بأخلاقهم .

[ يبشرهم ربهم ] رحمة منه ، وكرماً ، وبراً بهم ، واعتناء ومحبة لهم .  
[ برحمة منه ] أزال بها عنهم الشرور ، وأوصل إليهم بها كل خير .  
[ ورضوان ] منه تعالى عليهم ، الذى هو أكبر نعيم الجنة وأجله ،  
فيحل عليهم رضوانه ، فلا يسخط عليهم أبداً .

[ وجنات لهم فيها نعيم مقيم ] من كل ما تشبهه الأنفس ، وتلذ الأعين ،  
مما لا يعلم وصفه ومقداره ، إلا الله تعالى ، الذى منه أن الله أعد للمجاهدين

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ  
أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ

في سبيله ، مائة درجة ، ما بين كل درجتين ، كما بين السماء والأرض ،  
ولو اجتمع الخلق في درجة واحدة منها لوسعتهم .

[ خالدين فيها أبداً ] لا ينتقلون عنها ، ولا ييغون عنها حولاً .

[ إن الله عنده أجر عظيم ] لا تستغرب كثرة على فضل الله ، ولا  
يتعجب من عظمه وحسنه ، على من يقول للشيء كن فيكون .

\* يقول تعالى : [ يا أيها الذين آمنوا ] اعملوا بملتقى الإيمان ، بأن  
توالوا من قام به ، وتعادوا من لم يقم به .

و [ لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم ] الذين هم أقرب الناس إليكم .  
وغيرهم من باب أولى وأخرى ، فلا تتخذوهم [ أولياء إن استحبوا ]  
أى : اختاروا على وجه الرضا والمحبة [ الكفر على الإيمان ] .

[ ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ] لأنهم تجرأوا على معاصي الله ،  
واتخذوا أعداء الله أولياء .

وأصل الولاية : المحبة والنصرة .

وذلك أن اتخاذهم أولياء ، موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله ،  
ومحبتهم على محبة الله ورسوله .

فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ  
وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ  
تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ  
وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ

ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك ، وهو أن محبة الله ورسوله ، يتعين  
تقديمها على محبة كل شيء ، وجعل جميع الأشياء تابعة لها فقال :

[ قل إن كان آباؤكم ] ومثلهم الأمهات [ وأبنائكم وإخوانكم ]  
في النسب والعشيرة [ وأزواجكم وعشيرتكم ] أي : قراباتكم عموما  
[ وأموال اقترفتموها ] أي : اكتسبتموها ، وتعبتم في تحصيلها .

خصها بالذكر ، لأنها أرغب عند أهلها ، وصاحبها أشد حرصا عليها ،  
من تأتبه الأموال من غير تعب ولا كد .

[ وتجارة تخشون كسادها ] أي : رخصها ونقصها ، وهذا شامل لجميع  
أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات ، من الأثمان ، والأواني ،  
والأسلحة ، والأمتعة ، والحبوب ، والحروث ، والأنعام ، وغير ذلك .

[ ومساكن ترضونها ] من حسننها وزخرفتها ، وموافقتها لأهوائكم .

فإن كانت هذه الأشياء [ أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد  
في سبيله ] فأنتم فسقة ظلمة .

[ فتربصوا ] أي : انتظروا ما يحل بكم من العقاب [ حتى يأتي الله  
بأمره ] الذي لا مرد له .

## وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

[ والله لا يهدي القوم الفاسقين ] أى : الخارجين عن طاعة الله ،  
المقدمين على محبة الله ، شيئاً من المذكورات .

وهذه الآية الكريمة ، أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله ، وعلى  
تقديمها على محبة كل شئ .

وعلى الوعيد الشديد<sup>(١)</sup> ولقت الأكيد ، على من كان شئ  
من المذكورات أحب إليه من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله .

وعلاوة ذلك ، أنه إذا عرض عليه أمران ، أحدهما يحبه الله ورسوله ،  
وليس لنفسه فيها هوى .

والآخر ، تحبه نفسه وتشتهيه ، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوباً لله ورسوله ،  
أو ينقصه .

فإنه إن قدم ما تهواه نفسه ، على ما يحبه الله ، دل على أنه ظالم ، تارك  
لما يجب عليه .

---

( ١ ) قوله ( وعلى الوعيد الشديد الخ ) معطوف على قوله السابق ( على  
وجوب ) .

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ  
إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ  
الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ

\* يمتن تعالى ، على عباده المؤمنين ، بنصره إياهم في مواطن كثيرة  
من مواطن اللقاء ، ومواقع الحروب والهجاء ، حتى في يوم « حنين »  
الذى اشتدت عليهم فيه الأزمة ، ورأوا من التغاؤل والفرار ، ما ضاقت  
عليهم به الأرض على رحبها وسعتها .

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لما فتح مكة ، سمع أن هوازن  
اجتمعوا للحربه .

فسار إليهم صلى الله عليه وسلم ، في أصحابه ، الذين فتحوا مكة ، ومن  
أسلم من الطلقاء ، أهل مكة .

فكانوا اثني عشر ألفاً ، والمشركون أربعة آلاف .

فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم ، وقال بعضهم :  
لن تغلب اليوم من قلة .

فلما التقوا ، هم وهوازن ، حملوا على المسلمين حملة واحدة ، فانهزموا ،  
لا يلقى أحد على أحد ، ولم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا نحو  
مائة رجل ، ثبتوا معه ، وجعلوا يقاتلون المشركين .

وجعل النبي صلى الله عليه وسلم ، يركض بقلته نحو المشركين ويقول  
« أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ

ولما رأى من المسلمين ما رأى ، أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادى  
في الأنصار ، وبتية المسلمين ، وكان رفيع الصوت فناداهم :  
يا أصحاب السمرة ، يا أهل سورة البقرة .

فلما سمعوا صوته ، عطفوا عطفة رجل واحد ، فاجتلدوا مع المشركين .  
فهزم الله المشركين ، هزيمة شنيعة ، واستولوا على معسكرهم ، ونسأهم ،  
وأموالهم .

وذلك قوله تعالى [ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين ] وهو  
اسم للمكان الذي كانت فيه الواقعة بين مكة والطائف .

[ إذ أعجبكم كثرتم فلم تغن عنكم شيئاً ] أى : لم تقدم شيئاً ، قليلاً  
ولا كثيراً [ وضائق عليكم الأرض ] بما أصابكم من الهم والغم ، حين  
انهزمت [ بما رحبت ] أى على رحبها وسعتها .  
[ ثم وليتم مدبرين ] أى منهزمين .

[ ثم أنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين ] والسكينة : ما يجعله  
الله في القلوب ، وقت القلاقل والزلازل ، والمفطحات ، ما يثبتها ، ويسكنها ،  
ويجعلها مطمئنة ، وهى من نعم الله العظيمة على العباد .

[ وأنزل جنوداً لم تروها ] وهم الملائكة ، أنزلهم الله معونة للمسلمين  
يوم حنين ، يثبتونهم ، ويشيرونهم بالنصر .

[ وعذب الذين كفروا ] بالهزيمة والقفل ، واستيلاء المسلمين على نسأهم  
وأولادهم وأموالهم .

كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا

الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ مُغْنِيكُمْ اللَّهُ

[ وذلك جزاء الكافرين ] يعذبهم الله في الدنيا ، ثم يردم في الآخرة إلى عذاب غليظ .

[ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ] فتاب الله على كثير ، ممن كانت الوقعة عليهم ، وأتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، مسلمين تائبين ، فرد عليهم نساءهم ، وأولادهم .

[ والله غفور رحيم ] أى : ذو مغفرة واسعة ، ورحمة عامة ، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين ، ويرحمهم — بتوفيقهم للتوبة والطاعة ، والصفح عن جرائمهم ، وقبول توباتهم .

فلا ييأسنَّ أحد من رحمته ومغفرته ، ولو فعل من الذنوب والإجرام ، ما فعل .

\* يقول تعالى [ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ ] بالله الذين عبدوا معه غيره [ نجس ] أى خبثاء فى عقائدهم وأعمالهم .

وأى نجاسة أبلغ ، ممن كان يعبد مع الله آلهة ، لا تنفع ولا تضر ، ولا تغنى عنه شيئاً ؟ !! .

وأعمالهم ما بين محاربة لله ، وصد عن سبيل الله ، ونصر للباطل ، ورد للحق ، وعمل بالنفساد فى الأرض لا فى الصلاح .

مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٨﴾

فعلّيكُم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها ، عنهم .  
[ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ] وهو سنة تسع من الهجرة ،  
حين حج بالناس أبو بكر الصديق .

وبعث النبي صلى الله عليه وسلم ابن عمه ، علياً ، أن يؤذن يوم الحج  
الأكبر بـ « براءة » .

فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .  
وليس المراد هنا ، نجاسة البدن ، فإن الكافر - كغيره - طاهر البدن ،  
بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتانية ومباشرتها ، ولم يأمر بفصل ما  
أصاب منها .

والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار ، ولم ينقل عنهم أنهم  
تقذروا منها ، تَقَذَّرُوهُمْ من النجاسات .

وإنما المراد - كما تقدم - نجاستهم المعنوية ، بالشرك .

فكما أن التوحيد والإيمان ، طهارة ، فالشرك نجاسة .

وقوله [ وإن خفتم ] أيها المسلمون [ عيلة ] أى : فقراً وحاجة ، من منع  
المشركين من قربان المسجد الحرام ، بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم ،  
من الأمور الدنيوية .

[ فسوف يغنيكم الله من فضله ] فليس الرزق مقصوراً على باب واحد ،  
ومحل واحد ، بل لا يغلُق باب ، إلا وفتح غيره أبواب كثيرة ، فإن فضل  
الله واسع ، وجوده عظيم .

خصوصاً لمن ترك شيئاً لوجه الله الكريم ، فإن الله أكرم الأكرمين .  
وقد أنجز الله وعده ، فإن الله قد أغنى المسلمين من فضله ، وبسط لهم  
من الأرزاق ، ما كانوا به من أكبر الأغنياء والملوك .

وقوله : [ إن شاء ] تعليق للإغناء بالمشيئة ، لأن الغنى فى الدنيا ، ليس  
من لوازم الإيمان ، ولا يدل على محبة الله ، فلهذا علقه الله بالمشيئة .  
فإن الله يعطى الدنيا ، من يحب ، ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان  
والدين ، إلا من يحب .

[ إن الله عليم حكيم ] أى : علمه واسع ، يعلم من يليق به الغنى ، ومن  
لا يليق .

ويضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها .

وتدل الآية الكريمة ، وهى قوله [ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم  
هذا ] ، أن المشركين — بعد ما كانوا ، هم الملوك والرؤساء بالبيت ، ثم  
صار بعد الفتح ، الحكم لرسول الله والمؤمنين ، مع إقامتهم فى البيت ، ومكة  
المكرمة ، ثم نزلت هذه الآية .

ولما مات النبي صلى الله عليه وسلم ، أمر أن يجلوا من الحجاز ،  
فلا يبقى فيها دينان .

وكل هذا لأجل بُعد كل كافر عن المسجد الحرام ، فيدخل فى قوله  
[ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ] .

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ  
وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ ﴾

\* هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من [الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر] إيماناً صحيحاً يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم .

[ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله] فلا يتبعون شرعه ، في تحريم المحرمات .

[ولا يدينون دين الحق] أى : لا يدينون بالدين الصحيح ، وإن زعموا أنهم على دين ، فإنه دين ، غير الحق .

لأنه إما دين مبطل ، وهو : الذى لم يشرعه الله أصلاً .

وإما دين منسوخ قد شرعه الله ، ثم غيره بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيبقى التمسك به بعد النسخ ، غير جائز .

فأمره بقتال هؤلاء ، وحث على ذلك ، لأنهم يدعون إلى ما هم عليه ، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس ، بسبب أنهم أهل كتاب .

وغنى ذلك القتال [حتى يعطوا الجزية] أى : المال الذى يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم ، وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم ، بين أظهر المسلمين ، يؤخذ منهم كل عام ، كلٌّ على حسب حاله ، من غنى ، وفقير ، ومتوسط ، كما فعل ذلك أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب وغيره ، من أمراء المؤمنين .

وقوله [عن يد] أى : حتى يبدلوها في حال ذلم ، وعدم اقتدارهم ، ويعطوها بأيديهم ، فلا يرسلون بها خادماً ، ولا غيره ، بل لا تقبل إلا

مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ  
صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾

من أيديهم . هم صاغرون <sup>(١)</sup> ] .

فإذا كانوا بهذه الحال ، وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية ، وهم تحت  
أحكام المسلمين وقهرهم ، وحال الأمن من شرهم وفقتهم ، واستسلموا  
للشروط التي أجراها المسلمون ، بما ينفي عزهم وتكبرهم ، وبوجب ذلم  
وصغارهم ، وجب على الإمام أو نائبه ، أن يعقدها لهم .

وإلا ، بأن لم يفوا ، ولم يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، لم يجز  
إقرارهم بالجزية ، بل يقاتلون حتى يسلموا .

واستدل بهذه الآية ، الجمهور ، الذين يقولون : لا تؤخذ الجزية إلا  
من أهل الكتاب ، لأن الله لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم .  
وأما غيرهم ، فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا .

وألحق بأهل الكتاب - في أخذ الجزية ، وإقرارهم في ديار المسلمين ،  
المجوس .

فإن النبي صلى الله عليه وسلم ، أخذ الجزية من مجوس هجر .

ثم أخذها أمير المؤمنين عمر ، من الفرس المجوس .

وقيل : إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار ، من أهل الكتاب وغيرهم .

لأن هذه الآية ، نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين

(١) صاغرون ، أى : طائعون متقادون .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ  
ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

---

والشروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم ، فيكون هذا القيد إخباراً  
بالواقع ، لا مفهوماً له .

ويدل على هذا ، أن المجوس أخذت منهم الجزية ، وليسوا أهل كتاب .  
ولأنه قد تواتر عن المسلمين ، من الصحابة ومن بعدهم ، أنهم يدعون  
من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث .

إما الإسلام ، أو أداء الجزية ، أو السيف ، من غير فرق بين  
كِتَابِيٍّ وَغَيْرِهِ .

\* لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب ، ذكر من أقوالهم الخبيثة ، ما يهيج  
المؤمنين الذين يغارون لربهم ولدينهم ، على قتالهم ، والاجتهاد وبذل الوسع  
فيه فقال :

[ وقالت اليهود عزيز ابن الله ] وهذه المقالة ، وإن لم تكن مقالة لعامةهم  
فقد قالها فرقة منهم

فيدل ذلك ، على أن في اليهود ، من الخبث والشر ، ما أوصلهم إلى أن  
قالوا هذه المقالة ، التي تجرأوا فيها على الله ، وتنقصوا عظمته وجلاله .

وقد قيل : إن سبب ادعائهم في « عزيز » أنه ابن الله ، أنه لما تسلط  
الملك على بني إسرائيل ، ومرقوهم كل مرق ، وقتلوا حَمَلَةَ التوراة ، وجدوا  
عزيزاً بعد ذلك ، حافظاً لها أو أكثرها ، فأملأها عليهم من حفظه ،  
واستنسخوها ، فادعوا فيه هذه الدعوى الشيعة .

قَبْلُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ  
أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا

[ وقالت النصارى المسيح ] عيسى بن مريم [ ابن الله ] .

قال الله تعالى [ ذلك ] القول الذى قالوه [ قولهم بأفواههم ] لم يقيموا  
عليه حجة ولا برهانا .

ومن كان لا يبالى بما يقول ، لا يستغرب عليه أى قول يقوله ، فإنه  
لادين ولا عقل ، يحجزه ، عما يريد من الكلام .

ولهذا قال : [ يضاهئون ] أى : يشابهون فى قولهم هذا [ قول الذين  
كفروا من قبل ] أى : قول المشركين الذين يقولون : « الملائكة بنات  
الله » تشابهت أقوالهم فى البطلان .

[ قاتلهم الله أَنِّي يُؤْفَكُونَ ] أى : كيف يصرفون على الحق ، الصرف  
الواضح المبين ، إلى القول الباطل المبين .

وهذا - وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة ، أن تتفق على قول -  
يدل على بطلانه ، أدنى تفكير وتسلط للعقل عليه - فإن لذلك سببا وهو أنهم :  
[ اتخذوا أحبارهم ] وهم علماءهم [ ورهبانهم ] أى : العباد المتجردين  
للعباداة .

[ أربابا من دون الله ] يُحِلُّونَ لَهُم مَّحْرَمَ اللَّهِ ، فيحلونه ، ويحرمون لهم  
ما أحل الله فيحرمونه ، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية  
لدين الرسل فيتبعونهم عليها .

وكانوا أيضاً يفعلون فى مشايخهم وعبادهم ، ويعظمونهم ، ويتخذون

إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ  
أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ

---

قبورهم أو ثمانا ، تعبد من دون الله ، وتقصد بالذباح ، والدعاء ،  
والاستغاثة .

[والمسيح بن مريم] اتخذوه إلها من دون الله .

والحال أنهم خالفوا في ذلك ، أمر الله لهم على السنة رسله  
قال الله تعالى :

[وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو] فيخلصون له العبادة  
والطاعة ، ويخصونه بالحبة والدعاء .

فنبذوا أمر الله ، وأشركوا به ، ما لم ينزل به سلطانا .

[وسبحانه] وتعالى [عما يشركون] أى : تنزهه وتقدس ، وتعال  
عظمته عن شركهم وافترائهم ، فإنهم ينتقصونه في ذلك ، ويصفونه بما  
لا يابق بحلاله .

والله تعالى العالى في أوصافه وأفعاله ، عن كل ما نسب إليه ، مما ينافى  
كلمه المقدس .

فلما تبين أنه لاجبة لهم على ما قالوه ، ولا برهان لما أصْلوه ، وإنما  
هو مجرد قول قالوه ، وافتراء افتروه - أخبر أنهم [يريدون] بهذا [أن  
يطفئوا نور الله بأفواههم] .

ونور الله : دينه ، الذى أرسل به الرسل ، وأنزل به الكتب .

وسماه الله نوراً ، لأنه يستنار به في ظلمات الجهل ، والأديان الباطلة .

وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ  
الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

فإنه علم بالحق ، وعمل بالحق ، وما عداه ، فإنه بضده .  
فهؤلاء اليهود والنصارى ، ومن ضاهاهم من المشركين ، يريدون أن  
يطفئوا نور الله ، بمجرد أقوالهم ، التي ليس عليها دليل أصلا .  
[ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ] لأنه النور الباهر ، الذى لا يمكن لجميع  
الخلق ، لو اجتمعوا على إطفائه ، أن يطفئوه .  
والذى أنزله ، جميع نواصى العباد بيده .  
وقد تكفل بحفظه ، من كل من يريده بسوء ، ولهذا قال :  
[ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ] وسعوا ما أمكنهم  
فى رده وإبطاله ، فإن سعيهم ، لا يضر الحق شيئا .  
\* ثم بين تعالى ، هذا النور الذى قد تكفل بإتمامه وحفظه ، فقال :  
[ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ] الذى هو العلم النافع [ ودين الحق ]  
الذى هو العمل الصالح فكان ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ، مشتملا  
على بيان الحق من الباطل ، فى أسماء الله ، وأوصافه ، وأفعاله ، وفى أحكامه  
وأخباره ، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب ، والأرواح ، والأبدان ،  
من إخلاص الدين لله وحده ، ومحبة الله وعبادته ، والأمر بمكارم الأخلاق  
ومحاسن الشيم ، والأعمال الصالحة ، والآداب النافعة ، والنهى عن كل  
ما يضاد ذلك ويناقضه ، من الأخلاق ، والأعمال السيئة ، المضرة للقلوب  
والأبدان ، والدنيا والآخرة .

يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ  
وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ

فأرسله الله بالهدى ودين الحق [ليظهره على الدين كله ولو كره  
المشركون] أى : ليعليه على سائر الأديان ، بالحجة والبرهان ، والسيف  
واللسان .

وإن كره المشركون ذلك ، وبغوا له الفوائد ، ومكروا مكرم ،  
فإن المكر السيء ، لا يضر إلا صاحبه .

فوعده الله ، لا بد أن ينجزه ، وما ضمنه ، لا بد أن يقوم به .

\* هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين ، عن كثير من الأحبار  
والرهبان ، أى : العلماء والعباد ، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ،  
أى : بغير حق ، ويصدون عن سبيل الله .

فإنهم — إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس ، أو بذل الناس  
لهم من أموالهم — فإنه لأجل علمهم وعبادتهم ، ولأجل هدايتهم .  
وهؤلاء يأخذونها ، ويصدون الناس عن سبيل الله ، فيكون أخذهم  
لها ، على هذا الوجه ، سحتا وظلما .

فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم ، إلا ليدلوهم على الطريق  
المستقيم .

ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق ، أن يعطوهم ليفتوهم ، أو يحكموا  
لهم بغير ما أنزل الله .

فهؤلاء الأحبار والرهبان ، ليحذر منهم هاتان الحالتان :

وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتَكْوَىٰ  
بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا  
مَا كَنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

أخذهم لأموال الناس بغير حق ، وصدّهم الناس عن سبيل الله .

\* [ والذين يكنزون الذهب والفضة ] أى : يمسكونها [ ولا ينفقونها في  
سبيل الله ] أى : طرق الخير الموصلة إلى الله ، وهذا هو الكنز المحرم ، أن  
يمسكها عن النفقة الواجبة .

كان يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات ، أو الأقارب ،  
أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت .

[ فبشرهم بعذاب أليم ] . ثم فسر به بقوله [ يوم يحمى عليها ] .  
أى : على أموالهم .

[ في نار جهنم ] فيحمى كل دينار أو درهم على حده .

[ فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ] في يوم القيامة كلما بردت  
أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ويقال لهم توبيخاً ولوماً :

[ هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ] فما ظلمكم  
ولكنكم ظلمتم أنفسكم ، وعذبتموها بهذا الكنز .

وذكر الله في هاتين الآيتين ، انحراف الإنسان في ماله ، وذلك  
بأحد أمرين :

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا  
فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ  
ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ

إما أن ينفقه في الباطل ، الذى لا يجدى عليه نفعاً ، بل لا يناله منه  
إلا الضرر المحض .

وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات ، التى لاتعين على  
طاعة الله ، وإخراجها للصد عن سبيل الله .

وإما أن يمك ماله عن إخراجة في الواجبات ، و« النهى عن الشيء ،  
أمر بضده » .

\* يقول تعالى [ إن عدة الشهور عند الله ] أى فى قضاء الله وقدره .

[ اثنا عشر شهراً ] وهى هذه الشهور المعروفة [ فى كتاب الله ] أى فى  
حكمه القدرى .

[ يوم خلق السموات والأرض ] وأجرى ليها ونهارها ، وقدر أوقاتها  
فقسمها على هذه الشهور الاثنى عشر شهراً .

[ منها أربعة حرم ] وهى : رجب الفرد ، وذو القعدة ، وذو الحجة ،  
والحرم .

وسميت حرماً ، لزيادة حرمتها ، وتحريم القتال فيها .

[ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ] يحتمل أن الضمير يعود إلى الاثنى عشر  
شهراً ، وأن الله تعالى ، بين أنه جعلها مقادير للعباد ، وأن تعمر بطاعته ،

كَافَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ  
الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

ويشكر الله تعالى على مَنِّهِ بها ، وتقييضها لصالح العباد ، فلتحذروا ، ظلم أنفسكم فيها .

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم ، وأن هذا نهى لهم عن الظلم فيها ، خصوصا مع النهى عن الظلم كل وقت ، لزيادة تحريمها ، وكون الظلم فيها أشد منه في غيرها .

ومن ذلك ، النهى عن القتال فيها ، على قول من قال : إن القتال في الأشهر الحرم لم ينسخ تحريمه ، عملا بالنصوص العامة في تحريم القتال فيها . ومنهم من قال : إن تحريم القتال فيها منسوخ ، أخذا بعموم بحوقوله تعالى : [ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ] أى : قاتلوا جميع أنواع المشركين ، والكافرين برب العالمين .

ولا تخصوا أحداً منهم بالقتال دون أحد ، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك ، قد اتخذوا أهل الإيمان أعداء لهم ، لا يألونهم من الشر شيئا .

ويحتمل أن [ كافة ] حال من الواو فيكون معنى هذا : وقاتلوا جميعكم <sup>(١)</sup> المشركين ، فيكون فيها وجوب النفير ، على جميع المؤمنين .

(١) الأولى أن يقال « مجتمعين » كلكم حتى يتضح معنى الاحتمال الأخير ولأن الحال يجب أن تكون مشتقة ، وكلمة ( جميع ) ليست مشتقة فلا يصار إلى التأويل إذا أمكن عدمه .

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ

وقد نسخت على هذا الاحتمال بقوله : [ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ] الآية .

[ واعلموا أن الله مع المتقين ] بعونه ، ونصره ، وتأنيده .  
فلتحرصوا على استعمال تقوى الله ، في سركم ، وعلنكم ، والقيام بطاعته .

خصوصا عند قتال الكفار ، فإنه في هذه الحال ، بما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين .

\* النسيء هو : ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم .

وكان من جملة بدعهم الباطلة ، أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال ، في بعض أوقات الأشهر الحرم ، رأوا - بأرائهم الفاسدة - أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم ، التي حرم الله القتال فيها ، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم ، أو يتقدموه ، ويجعلوا مكانه من أشهر الحل ، ما أرادوا .

فإذا جعلوه مكانه ، أحلوا القتال فيه ، وجعلوا الشهر الحلال حراماً .  
فهذا - كما أخبر الله عنهم - أنه زيادة في كفرهم وضلالهم ، لما فيه من المحاذير .

منها : أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه .

والله ورسوله بريئان منه .

فَيَحِلُّوْا مَا حَرَّمَ اللهُ زِيْنَ لَهُمْ سُوْءَ اَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الْكٰفِرِيْنَ ﴿٣٧﴾

ومنها : أنهم قلبوا الدين ، فجعلوا الحلال حراماً ، والحرام حلالاً .  
ومنها : أنهم مَوَّهوا على الله بزعمهم ، وعلى عباده ، ولبسوا عليهم  
دينهم ، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله .  
ومنها : أن العوائد المخالفة للشرع ، مع الاستمرار عليها ، يزول  
قبحها عن النفوس .  
وربما ظن ، أنها عوائد حسنة ، فصل من الغلط والضلال ،  
ما حصل .  
ولهذا قال : [ يضل به الذين كفروا يحلون له عاماً ويحرمونه عاماً  
ليواطئوا عدة ما حرم الله ] أى : ليوافقوها في العدد ، فيحلوا  
ما حرم الله .  
[ زين لهم سوء أعمالهم ] أى : زينت لهم الشياطين ، الأعمال السيئة ،  
فأرواها حسنة ، بسبب العقيدة المزينة في قلوبهم .  
[ والله لا يهدي القوم الكافرين ] أى : الذين انصبغ الكفر  
والتكذيب في قلوبهم ، فلو جاءتهم كل آية ، لم يؤمنوا .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ  
الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾

اعلم أن كثيراً من هذه السورة الكريمة ، نزلت في غزوة تبوك .  
إذ ندب النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى غزو الروم ، وكان  
الوقت حاراً ، والزاد قليلاً ، والمعيشة عسرة .  
فحصل من بعض المسلمين من التثاقل ، ما أوجب أن يعاتبهم الله  
تعالى عليه ويستنهمهم ، فقال تعالى :

\* [ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ] ألا تعملون بمقتضى الإيمان ، ودواعي اليقين ،  
من المبادرة لأمر الله ، والمصارعة إلى رضا ، وجهاد أعدائه لدينكم .  
ف [ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ]  
أى : تكاسلتم ، وملتم إلى الأرض ، والدعة ، والكون فيها .  
[ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ] أى : ما حالكم إلا حال من  
رضى بالدنيا ، وسعى لها ، ولم يبال بالآخرة ، فكأنه ما آمن بها .  
[ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ] التى مالت بكم ، وقدمتموها على الآخرة  
[ إِلَّا قَلِيلٌ ] .

أفليس قد جعل الله لكم عقولا ، تَرِنُونَ بها الأمور ، وأيهما أحق  
بالإيثار ؟ .

أفليست الدنيا - من أولها إلى آخرها - لا نسبة لها في الآخرة .

إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ  
وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

فما مقدار عمر الإنسان القصير جدا من الدنيا ، حتى يجعله الغاية ، التي لا غاية وراءها .

فيجعل سعيه ، وكده وهمه ، وإرادته ، لا يتعدى الحياة الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار ، المشحونة بالأخطار .

فبأنى رأيي ، رأيتم إشارها على الدار الآخرة ، الجامعة لكل نعم ، التي فيها ما تشبهه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وأتم فيها خالدون .

فوالله ما آثر الدنيا على الآخرة ، من وقر الإيمان في قلبه ، ولا من جزل رأيه ، ولا من عُدَّ من أولى الألباب .

ثم توعدهم على عدم النفي فقال :

[إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً] في الدنيا والآخرة .

فإن عدم النفي في حال الاستنفار ، من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب ، لما فيه من المضار الشديدة .

فإن المتخلف ، قد عصى الله تعالى ، وارتكب لنهيه ، ولم يساعد على نصر دين الله ، ولا ذب عن كتاب الله وشرعه ، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم ، الذي يريد أن يستأصلهم ، ويمحق دينهم .

وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان ، بل ربما فتَّ في أعضاده من قاموا بجهاد أعداء الله .

لحقيق بمن هذا حاله ، أن يتوعده الله بالوعيد الشديد ، فقال :

\* [إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضره شئنا] .

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ

فإنه تعالى متكفل بنصرة دينه وإعلاء كلمته .

فسواء امتثالتم لأمر الله ، أو ألقيتموه وراءكم ظهرياً .

[ والله على كل شيء قدير ] لا يعجزه شيء ، أرادته ، ولا يغالبه أحد .

\* أى : إلا تنصروا رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فالله غنى عنكم ، لا تنصرونه شيئاً .

فقد نصره فى أقل ما يكون [ إذ أخرجه الذين كفروا ] من مكة ، لما هموا بقتله ، وسعوا فى ذلك ، وحرصوا أشد الحرص ، فالتجأوا إلى أن يخرج .

[ ثانى اثنين ] أى : هو وأبو بكر الصديق رضى الله عنه .

[ إذ هما فى الغار ] أى : لما هربا<sup>(١)</sup> من مكة ، لجأ إلى غار ثور ، فى أسفل

( ١ ) قوله ( لما هربا ) تعبير فيه ما فيه من التواخظات .

والذى يتتبع كتب السيرة وتمهيدات الهجرة النبوية ، يعلم يقيناً ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، لم يحرك ساكناً ، ولم يأت بعمل ، إلا بأمر الله تعالى ، وقد تحمل صلى الله عليه وسلم ، من أذى قريش ، ما لا يتحملة إلا أشد الناس ، وأشجع من خلق الله تعالى .

ولا يستغرب ذلك منه ، عليه الصلاة والسلام ، لأنه سيد أولى العزم من الرسل وأشجعهم .

فلو كان خروجه هرباً من المشركين ، لهام على وجهه ، ولم يلبث بمكة =

. . . . .

= ولا ما بقربها من الأماكن ، لحظة واحدة ، كما هو شأن الهاربين .  
ولم يكن مكثه في الغار ، تلك الأيام ، إلا تشريعاً للأمة ، وتعليماً لهم ،  
بأخذ الحيطة في الأمور المتأزمة .

تصفح معى كتب السيرة ، تعلم تماماً ، أن تحركات النبي كلها ، لم تكن  
إلا بالوحي الإلهي .

وذلك أنه لما تأمرت قريش على قتله ، وانتدبت من كل قبيلة شاباً  
جلداً ، في يد كل واحد سيف صارم تنزل عليه تلك السيوف دفعة واحدة ،  
فيتفرق دمه في القبائل .

فلا يستطيع بنو هاشم محاربة كل العرب ، فتقدم ديتهم إليهم وينتفضي  
الأمر .

ودخلت المسألة في دور التنفيذ .

فحاصر هؤلاء الشبان ، بيت النبي ، وأحاطوا به ، إحاطة الهالة بالقمر ،  
والأكام بالتمر .

ومع هذا فهو ثابت الجأش ، رابط القلب .

فنزّل عليه جبريل يبلغه أمر الله إياه بالهجرة فامتلأ الأمر ، وخرج شاقاً  
وسط تلك الجموع ذاراً فوق رؤوسهم حفنة من رمل وهو يقول قوله تعالى :

« وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون »

فاجتاز تلك الصفوف ، ولم يره أحد .

= أيكون هذا العمل هرباً ؟ اللهم لا .

= أَيْكون اختباؤه خوفاً من المشركين ؟ اللهم لا ، بل تعليم للأمة في أخذ الحيلة في الأزمات ، وليقف على حركات قريش ، ويعلم مقاصدهم ، وليتكشف ما اعتزموا عليه .

وما قول الله [إِذْ أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا] إِلَّا مِنْ إِطْلَاقِ السَّبَبِ عَلَى الْمَسَبِّ .

وذلك أنه لما تفاقم إيذاء قريش للنبي وأصحابه ولم يبق ثمة علاج ، واستعصى الداء على الدواء ، ولم ينجع أى دواء ، وانتشرت الدعوة الإسلامية في المدينة المنورة .

حينذاك أمره الله بالهجرة إلى دار صالحة التربة ، لبذر بذور الإسلام .  
نخرج صلى الله عليه وسلم ، امثالاً لأمر الله ، واستقر في المدينة .

فأخضبت الدعوة الإسلامية فيها ، وضربت جذور الدعوة في أعماق الأرض ، وأخذت أصولها وفروعها في السموق إلى السماء ، كما قال تعالى :  
( أَصْلَها ثابِتٌ وَفَرعُها في السَّماءِ ، تُؤْتى أَكلُها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها ) .  
فتكونت الدولة الإسلامية ، وخرجت جيوشها المظفرة ، ففتحت البلاد ، ومصرت الأمصار ، وحطمت دول الكفر ، وأتت على بنيان الطغيان من القواعد فهدمته ، وجعلته هشماً تذروه الرياح .

وما إضافة الله إخراج النبي إلى الذين كفروا ، إِلَّا مِنْ إِضافة السَّبَبِ إلى الْمَسَبِّ كما قلنا ، لأنهم ركبوا رموسهم في العناد ، وبلغ إيذاؤهم للنبي وأصحابه ، نهايقه ، وظهر لكل ذى عينين أن مكة يومئذ غير صالحة لنشر الدعوة الإسلامية فيها ، وبلغ السيل الزبى .

إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا

مكة ، فكثا فيه ليرد عنهما الطلب .

فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة ، حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما فأنزل الله عليهما ، من نصره ، مالا يخطر على البال .

[ إذ يقول ] النبي صلى الله عليه وسلم [ لصاحبه ] أبى بكر لما حزن واشتد قلته .

[ لا تحزن إن الله معنا ] بعونه ونصره وتأيدده .

[ فأنزل الله سكينته عليه ] أى : الثبات والطمأنينة ، والسكون المثبتة للفؤاد .

= فاقترض عدالة الله وحكمته ، أن أذن لرسوله بالهجرة من مكة ، ونسب هذا الخروج لمن تسبب فيه ، وهم المشركون .

فهذه الإجراءات كلها ، تلقى أسطق الأنوار على حقيقة تحركات النبي ، وأنها كلها كانت بأمر من الله ، أ يكون عمر بن الخطاب أشجع من رسول حينما أعلن على ملاء من قريش أنه اعتزم على الهجرة وقال لهم كلمته التي تداولتها كتب السيرة ( من أراد أن يتم أطفاله ويرمل امرأته فليلقني في موضع كذا ) فلم يتجرأ منهم أحد على ملاقاته ولا على منعه من الهجرة .

ومما بسطناه من الكلام ، يعلم القارىء أن قول المؤلف ( لما هربا ) تعبير غير لائق بالجنان النبوى ، فعاذ الله أن يوصف الرسول بالهرب الذى هو من أخس الصفات .

وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الَّتِي هِيَ

ولهذا لما قلق صاحبه سكنه و« قال لا تحزن إن الله معنا » .

[ وأيده بجنود لم تروها ] وهى الملائكة الكرام ، الذين جعلهم الله حرساً له .

[ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ] أى : الساقطة الخذولة .

فإن الذين كفروا ، كانوا على حرد قادرين ، فى ظنهم أنهم يقدرون على قتل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخذه ، خنقين عليه ، فعملوا غاية مجهودهم فى ذلك .

فخذلهم الله ، ولم يتم لهم مقصودهم ، بل ولا أدر كوا شيئاً منه .  
ونصر الله رسوله ، بدفعه عنه .

وهذا هو النصر المذكور فى هذا الموضع .

فإن النصر على قسمين ، نصر المسلمين إذا طمعوا فى عدوهم ، بأن يتم الله لهم ما طلبوا ، وقصدوا ، ويستولوا على عدوهم ، ويظهروا عليهم .  
والثانى نصر المستضعف ، الذين طمع فيه عدوه القادر .

فنصر الله إياه ، أن يرد عنه عدوه ، ويدافع عنه ، ولعل هذا النصر أنفع النصرين .

ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثمانى أميين من هذا النوع .  
وقوله [ وكلمة الله هى العليا ] أى كلماته القدريه ، وكلماته الدينيه ، هى العاليه على كلمة غيره ، التى من جملتها قوله :

( وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ) ، ( إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا )

## عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ) ، ( وإن جندنا لهم الغالبون ) .  
فدين الله ، هو الظاهر العالى ، على سائر الأديان ، بالحجج الواضحة ،  
والآيات الباهرة والسلطان الناصر .

[ والله عزيز ] لا يغالبه مغالب ، ولا يفوته هارب .

[ حكيم ] يضع الأشياء مواضعها ، وقد يؤخر نصر حزبه ، إلى وقت  
آخر ، اقتضته الحكمة الإلهية .

وفى هذه الآية الكريمة ، فضيلة أبى بكر الصديق ، بخصيصة لم تكن  
لغيره من هذه الأمة ، وهى الفوز بهذه المنقبة الجليلة ، والصحة الجميلة .

وقد أجمع المسلمون ، على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة .

ولهذا عدوا من أنكر صحة أبى بكر للنبي صلى الله عليه وسلم ، كافراً  
لأنه منكر للقرآن الذى صرح بها .

وفىها فضيلة السكينة ، وأنها من تمام نعمة الله على العبد ، فى أوقات  
الشدائد والمخاوف ، التى تطيش لها الأفئدة ، وأنها تكون على حسب  
معرفة العبد بربه ، وثقته بوعده الصادق ، وبحسب إيمانه وشجاعته .

وفىها: أن الحزن قد يعرض لخواص عباده الصديقين ، مع أن الأولى -  
إذا نزل بالعبد - أن يسعى فى ذهابه عنه ، فإنه مضعف للقلب ، موهن  
للعزيمة .

﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١١) لَوْ كَانَ  
عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبِعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ

\* يقول تعالى ، لعباده المؤمنين — مهيجاً لهم على النفير في سبيله : —  
[ انفروا خفافا وثقالا ] في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، والحر والبرد ،  
وفي جميع الأحوال .

[ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ] أى : ابدلوا جهدكم  
في ذلك ، واستفرغوا وسعكم ، في المال والنفس .  
وفي هذا دليل ، على أنه — كما يجب الجهاد في النفس — يجب في المال ،  
حيث اقتضت الحاجة ، ودعت لذلك .

ثم قال [ ذلکم خير لکم إن كنتم تعلمون ] أى : الجهاد في النفس  
والمال ، خير لکم من التقاعد عن ذلك ، لأن فيه رضا الله تعالى ، والنور  
بالدرجات العاليات عنده ، والنصر لدين الله ، والدخول جملة جنده وحزبه .  
[ لو كان ] خروجهم [ عرضاً قريباً ] أى : لطلب عرض قريب ، ومنفعة  
دنيوية ، سهلة التناول [ و ] كان السفر [ سفراً قاصداً ] أى : قريباً سهلاً .  
[ لاتبعوك ] لعدم المشقة الكثيرة .

[ ولكن بعدت عليهم الشقة ] أى : طالت عليهم المسافة ، وصعب  
عليهم السفر ، فلذلك تناقلوا عنك .

وليس هذا من أمارات العبودية ، بل العبد حقيقة ، هو المتعبد لربه  
في كل حال ، القائم بالعبادة السهلة والشاقة ، فهذا العبد لله على كل حال .

وَسَيُخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ  
وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾

[ وسيخلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ] أى : سيخلفون لتخلفهم  
عن الخروج — أن لهم عذراً ، وأنهم لا يستطيعون ذلك .

[ يهلكون أنفسهم ] بالعود والكذب ، والإخبار بغير الواقع .  
[ والله يعلم إنهم لكاذبون ] .

وهذا العتاب ، إنما هو للمنافقين ، الذين تخلفوا عن النبي صلى الله عليه  
وسلم ، فى « غزوة تبوك » وأبدوا من الأعذار الكاذبة ما أبدوا .

فعفا النبي صلى الله عليه وسلم عنهم بمجرد اعتذارهم ، من غير أن  
يتمتعهم ، فيتبين له الصادق من الكاذب ، ولهذا عاتبه الله على هذه المسارعة  
إلى قبول اعتذارهم فقال : ( عفا الله عنك ) إلى قوله ( فى ريبهم يترددون )

﴿٤٣﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

\* يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم [عفا الله عنك] أى : سامحك ، وغفر لك ما أجريت .

[لم أذنت لهم] فى التخلف [حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين] . بأن تمنحهم ، ليتبين لك الصادق من الكاذب ، فتعذر من يستحق العذر ، ممن لا يستحق ذلك .

ثم أخبر ، أن المؤمنين بالله واليوم الآخر ، لا يستأذنون فى ترك الجهاد ، بأموالهم وأنفسهم ، لأن ما معهم من الرغبة فى الخير والإيمان ، يحملهم على الجهاد ، من غير أن يمنهم عليه حاث ، فضلا عن كونهم يستأذنون فى تركه من غير عذر .

[والله عليم بالمتقين] فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه . ومن علمه بالمتقين ، أنه أخبر ، أن من علاماتهم ، أنهم لا يستأذنون فى ترك الجهاد .

[إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم] أى : ليس لهم إيمان تام ، ولا يقين صادق ، فلذلك قلت رغبته فى الخير ، وجبنوا عن القتال ، واحتاجوا أن يستأذنوا فى ترك القتال . [فهم فى ريبهم يترددون] أى : لا يزالون فى الشك والحيرة .

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَوُا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ

\* يقول تعالى : مبيناً أن المتخلفين من المنافقين ، قد ظهر منهم من القرائن ، ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج بالكلية ، وأن أعداؤهم التي اعتذروها ، باطلة ، فإن العذر ، هو المانع الذي يمنع ، إذا بذل العبد وسعه ، وسعى في أسباب الخروج ، ثم منعه مانع شرعى ، فهذا الذى يعذر .

[ و ] أما هؤلاء المنافقون [ لو أرادوا الخروج ، لأعدوا له عدة ] أى : لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب .

ولكن لما لم يعدوا له عدة ، علم أنهم ما أرادوا الخروج .

[ ولكن كره الله انبعاثهم ] معكم في الخروج للغزو [ فثبطهم ] قدراً وقضاء ، وإن كلن قد أمرهم ، وحثهم على الخروج ، وجعلهم مقتدرين عليه . ولكن بحكمته ما أراد إغاثتهم ، بل خذلهم وثبطهم [ وقيل اقموا مع القاعدین ] من النساء والمعدورين .

ثم ذكر الحكمة في ذلك فقال [ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ] أى : نقصاً .

[ ولأضعوا خلالكم ] أى : ولسعوا في الفتنة والشر بينكم ، وفرقوا جماعتكم المجتمعين .

[ يبغونكم الفتنة ] أى : هم حريصون على فتنكم ، وإلقاء المداوة بينكم .

وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ  
مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ  
كَرِهُونَ ﴿٤٨﴾

[ وفيكم ] أناس ضعفاء العقول [ سماعون لهم ] أى : مستجيبون  
لدعوتهم ، يفترون بهم .

فإذا كانوا حريصين على خذلانكم ، وإلقاء الشر بينكم ، وتبسيطكم  
عن أعدائكم ، وفيكم من يقبل منهم ، ويستنصحبهم .

فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين ، والنقص الكثير منهم ؟  
فله ما أتم الحكمة حيث ثبطهم ، ومنهم من الخروج مع عباده المؤمنين  
رحمة بهم ، ولطفاً من أن يداخلهم ، مالا ينفعهم ، بل يضرهم .

[ والله عليم بالظالمين ] فيعلم عباده كيف يحذرونهم ، ويبين لهم من  
المفاسد الناشئة من مخالطتهم .

ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشر فقال :

\* [ لقد ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ ] أى : حين هاجرتكم إلى المدينة ،  
فبذلوا الجهد .

[ وقلبوا لك الأمور ] : أى : أداروا الأفكار ، وأعملوا الحيل ،  
فى إبطال دعوتكم ، وخذلان دينكم ، ولم يقصروا فى ذلك .  
[ حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كافرون ] فبطل كيدهم واضمحل  
باطلهم .

لختمى بمثل هؤلاء ، أن يحذر الله عباده المؤمنين منهم ، وأن لا يبالى  
المؤمنين ، بتخلفهم عنهم .

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أُذْنٌ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩)

\* أى : ومن هؤلاء المنافقين ، من يستأذن فى التخلف ، ويعتذر بعذر آخر عجيب .

فيقول : [ ائذن لى ] فى التخلف [ ولا تفتنى ] فى الخروج .

فإنى إذا خرجت ، فرأيت نساء بين الأصفر ، لا أصبر عنهن ، كما قال ذلك « الجدل بن قيس » .

ومقصوده فى قلبه — قبحه الله — الرياء والنفاق ويعبر بلسانه بأن مقصودى مقصود حسن ، فإن فى خروجى فتنة وتعرضاً للشر ، وفى عدم خروجى ، عافية ، وكفأ عن الشر .

قال الله تعالى — مبيناً كذب هذا القول — [ ألا فى الفتنة سقطوا ] . فإنه على تقدير صدق هذا القائل فى قصده ، فإن فى التخلف مفسدة كبرى ، وفتنة عظيمة ، محققة ، وهى : معصية الله ، ومعصية رسوله ، والتجربى على الإثم الكبير ، والوزر العظيم .

وأما الخروج ، ففسدة قليلة بالنسبة للتخلف ، وهى متوهمة .

مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير ، ولهذا توعدهم الله بقوله : [ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ] ليس لهم عنها مفر ولا مناص ، ولا فسكك ، ولا خلاص .

﴿٥٠﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

\* يقول تعالى — مبيناً أن المنافقين ، هم الأعداء ، حقاً ، المبغضون للدين صرفاً .

[ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ ] كنصر وإدالة<sup>(١)</sup> على العدو [ تَسُؤْهُمْ ] أى : تمزئهم وتغمهم .

[ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ ] كإدالة العدو عليك [ يَقُولُوا ] متبجحين بسلامتهم من الحضور معك .

[ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ ] أى : قد حذرنا وعملنا ، بما ينجنينا من الوقوع فى مثل هذه المصيبة .

[ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ] بمصيبتك ، وبعدم مشاركتهم إياك فيها .

قال تعالى - راداً عليهم فى ذلك - [ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ] أى : ما قدره وأجراه فى اللوح المحفوظ .

[ هُوَ مَوْلَانَا ] أى : متولى أمورنا الدينية والدنيوية ، فعلينا الرضا بأقداره ، وليس فى أيدينا من الأمر شئ .

[ وَعَلَى اللَّهِ ] وحده [ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ] أى : ليعتمدوا عليه ، فى جلب

(١) إدالة على العدو . أى : انتصار على العدو .

﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ  
نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا  
فَتَرَبُّوْا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ﴾ (٥٢)

مصالحهم ، ودفع المضار عنهم ، وليتقوا به في تحصيل مطلوبهم ، فلا خاب  
من توكل عليه .

وأما من توكل على غيره ، فإنه مخذول ، غير مدرك لما أمل .

\* أى : قل للمنافقين ، الذين يتربصون بكم الدوائر : أى شئ تربصون بنا ؟

فإنكم لا تربصون بنا ، إلا أمراً ، فيه غاية نفعنا ، وهو إحدى الحسينين .

إما الظفر بالأعداء ، والنصر عليهم ، ونيل الثواب الأخرى  
والدنيوى .

وإما الشهادة التى هى من أعلى درجات الخلق ، وأرفع المنازل عند الله .

وأما تربصنا بكم — يا معشر المنافقين — فنحن نتربص بكم ، أن  
يصيبكم الله بعذاب من عنده ، لا سبب لنا فيه ، أو بأيدينا ، بأن يسلطنا  
عليكم فنقتلكم .

[ فتربصوا ] بنا الخير [ إنا معكم متربصون ] بكم الشر .

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾

\* يقول تعالى - مينا بطلان نفقات المنافقين ، وذا كراً السبب في ذلك -  
[ قل ] لم [ أنفقوا طوعاً ] من أنفسكم [ أو كرها ] على ذلك ،  
بغير اختياركم .

[ لن يتقبل منكم ] شيء من أعمالكم [ إنكم كنتم قوماً فاسقين ]  
خارجين عن طاعة الله .

ثم بين صفة فسقهم وأعمالهم بقوله :

[ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ]  
والأعمال كلها ، شرط قبولها ، الإيمان ، فهو لاء ، لا إيمان لهم ، ولا عمل  
صالح .

حتى إن الصلاة ، التي هي أفضل أعمال البدن ، إذا قاموا إليها ، قاموا  
كسالى ، وقد بين الله ذلك فقال :

[ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ] أى : متشاقلون ، لا يكادون  
يفعلونها ، من ثقلها عليهم .

[ ولا ينفقون إلا وهم كارهون ] من غير انشراح صدر ، وثبات نفس .

ففي هذا ، غاية الذم ، لمن فعل مثل فعلهم .

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٥٥)

---

وأنه ينبغي للعبد ، أن لا يأتى الصلاة ، إلا وهو نشيط البدن ، والقلب إليها .

ولا ينفق ، إلا وهو منشرح الصدر ، ثابت القلب ، يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده ، ولا يتشبه بالمنافقين .

\* يقول تعالى : فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم ، فإنه لا غبطة فيها .

وأول بركاتهما عليهم ، أن قدموها على مراضى ربهم ، وعصوا الله لأجلها [ إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ] .

والمراد بالعذاب هنا ، ما ينالهم من المشقة فى تحصيلها ، والسعى الشديد فى ذلك ، وهم القلب فيها ، وتعب البدن .

فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم ، لم يكن لها نسبة إليها ، فهى - لما ألهمهم عن الله وذكره - صارت وبالا عليهم ، حتى فى الدنيا .

ومن وبالها العظيم الخطر ، أن قلوبهم تتعلق بها ، وإرادتهم لاتعدها فتكون منتهى مطلوبهم ، وغاية مرغوبهم ولا يبقى فى قلوبهم للآخرة نصيب ، فيوجب ذلك ، أن ينتقلوا من الدنيا [ وتزهق أنفسهم وهم كافرون ] .

فأى : عقوبة أعظم من هذه العقوبة ، الموجبة للشقاء الدائم ، والحسرة الملائمة .

وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ  
يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا  
إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

[ويخلفون بالله إنهم لمنكم ، وما هم منكم ولكنهم] قصدهم في حلفهم  
هذا أنهم [قوم يفرقون] أى : يخافون الدوائر ، وليس في قلوبهم شجاعة  
تحملهم على أن يبينوا أحوالهم .

فيخافون إن أظهروا حالهم منكم ، ويخافون أن تتبرأوا منهم ،  
فيمخطفهم الناس من كل جانب .

وأما حال قوى القلب ، ثابت الجنان ، فإنه يحمله ذلك ، على بيان حاله ،  
حسنة كانت أو سيئة .

ولكن المنافقين خلع عليهم خامة الجبن ، وحلوا بحلية الكذب .

ثم ذكر شدة جبنهم فقال : [ لو يجدون ملجأ ] يلجأون إليه عندما  
تنزل بهم الشدائد .

[ أو مغارات ] يدخلونها ، فيستقرون فيها [ أو مدخلا ] أى : محلا  
يدخلونه فيتحصنون فيه [ لولوا إليه وهم يجمحون ] أى : يسرعون ويهرعون .  
فليس لهم ملركة ، يقتدرون بها على الثبات .

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَّمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

\* أى : ومن هؤلاء المنافقين ، من يعيبك في قسمة الصدقات ، وينتقد عليك فيها .

وليس انتقادهم فيها وعييبهم ، لقصد صحيح ، ولا لرأى رجيح ، وإنما مقصودهم أن يعطوا منها .

[ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا ، وَإِنْ لَّمْ يُعْطُوا مِنْهَا ، إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ] وهذه حالة ، لا ينبغى للعبد أن يكون رضاء وغضبه ، تابعاً لهوى نفسه الدنيوى ، وغرضه الفاسد .

بل الذى ينبغى ، أن يكون لمرضاء ربه ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ، « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

وقال هنا : [ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ] أى : أعطاهم من قليل وكثير .

[ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ] أى : كافينا الله ، فترضى بما قسمه لنا .

وليؤمنوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا : [ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ] أى : متضرعون في جلب منافعنا ، ودفع مضارنا .

ثم بين تعالى كيفية قسمة الصدقات الواجبة فقال : [ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ ] إلى [ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ] .

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا ﴾

\* يقول تعالى : [ إنما الصدقات ] أى : الزكوات الواجبة ، بدليل أن الصدقة المستحبة لكل أحد ، لا يخص بها أحد دون أحد .

إنما الصدقات - هؤلاء المذكورين ، دون من عداهم ، لأنه حصرها فيهم ، وهم ثمانية أصناف .

الأول والثانى . الفقراء ، والمساكين ، وهم فى هذا الموضع ، صنفان متفاوتان .

فالفقير ، أشد حاجة من المسكين ، لأن الله بدأ بهم ، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم ، ففسر الفقير ، بأنه الذى لا يجد شيئاً ، أو يجد بعض كفايته دون نصفها .

والمسكين : هو الذى يجد نصفها فأكثر ، ولا يجد تمام كفايته ، لأنه لو وجدها لكان غنياً ، فيعطون من الزكاة ، ما يزول به فقرهم ومسكنتهم .  
والثالث : العاملون على الزكاة ، وهم : كل من له عمل وشغل فيها ، من حافظ لها ، وجاب لها من أهلها ، أو راع ، أو حامل لها ، أو كاتب ، أو نحو ذلك .

فيعطون لأجل عمالتهم ، وهى أجرة لأعمالهم فيها .

والرابع : المؤلفون قلوبهم .

والمؤلفة قلبه هو : السيد المطاع فى قومه ، ممن يرجى إسلامه ، أو يخشى شره أو يرجى بعطيته ، قوة إيمانه ، أو إسلام نظيره ، أو جبايتها ممن لا يعطيها .

فيعطى ، ما يحصل به التأليف والمصلحة .

وَأَمْوَالُهُمْ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ

الخامس : الرقاب ، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم .

فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم ، فيعانون على ذلك من الزكاة . وفك الرقبة المسلمة التي في حبس الكفار ، داخل في هذا ، بل أولى . ويدخل في هذا ، أنه يجوز أن يمتق الرقاب استقلالاً ، لدخوله في قوله « وفي الرقاب » .

السادس ، الغارمون ، وهم قسمان :

أحدهما : الغارمون لإصلاح ذات البين ، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس ، شر وفتنة ، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهما ، بما يبذله لأحدهم أو لهم كلهم .

فجعل له نصيب من الزكاة ، ليكون أنشط له ، وأقوى لعزمه ، فيعطى ، ولو كان غنياً .

والثاني : من غرم لنفسه ، ثم أعسر ، فإنه يعطى ما يؤق به دينه .

والسابع : الغازى في سبيل الله ، وهم : الغزاة المتطوعة ، الذين لا ديوان لهم .

فيعطون من الزكاة ، ما يعينهم على غزوهم ، من ثمن سلاح ، أو دابة ، أو نفقة له ولعيله ، ليتوفر على الجهاد ، ويطمئن قلبه .

وقال كثير من الفقهاء : إن تفرغ القادر على الكسب لطلب العلم ، أعطى من الزكاة ، لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل الله .

## فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

وقالوا أيضاً: يجوز أن يعطى منها الفقير ، لحج فرضه ، وفيه نظر .  
والثامن : ابن السبيل ، وهو : الغريب المنتقطع به في غير بلده .  
فيعطى من الزكاة ، ما يوصله إلى بلده .  
فهؤلاء الأصناف الثمانية ، الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم .  
[فريضة من الله] فرضها وقدرها ، تابعة لملكه وحكمه [والله عليم حكيم] .  
واعلم أن هذه الأصناف الثمانية ، ترجع إلى أمرين .  
أحدهما : من يعطى لحاجته ونفعه ، كالفقير ، والمساكين ، ونحوهما .  
والثاني : من يعطى للحاجة إليه ، وانتفاع الإسلام به .  
فأوجب الله هذه الحصة ، في أموال الأغنياء ، لسد الحاجات الخاصة  
والعامة ، للإسلام والمسلمين .  
فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم ، على الوجه الشرعى ، لم يبق فقير  
من المسلمين .  
ولحصل من الأموال ، ما يسد الثغور ، ويجهاد به الكفار ، وتحصل  
به جميع المصالح الدينية .

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ  
أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا

\* أى : من هؤلاء المنافقين [ الذين يؤذون النبي ] بالأقوال الردية ،  
والعيب له ولدينه .

[ ويقولون هو أذن ] أى : لا يبالون بما يقولون من الأذية للنبي .

ويقولون : إذا بلغه عنا بعض ذلك ، جئنا نعتذر إليه ، فيقبل منا ،  
لأنه أذن ، أى : يقبل كل ما يقال له ، لا يميز بين صادق وكاذب .

وقصدهم — قبحهم الله — فيما بينهم ، أنهم غير مكترئين بذلك ،  
ولا مهتمين به .

لأنه إذا لم يبلغه ، فهذا مطلوبهم ، وإن بلغه ، اكتفوا بمجرد  
الاعتذار الباطل .

فأساءوا كل الإساءة ، من أوجه كثيرة ، أعظمها أذية نبيهم ،  
الذى جاء لهدايتهم ، وإخراجهم من الشقاء والهلاك ، إلى الهدى  
والسعادة .

ومنها : عدم اهتمامهم أيضاً بذلك ، وهو قدر زائد على مجرد  
الأذية .

ومنها : قذحهم في عقل النبي صلى الله عليه وسلم ، وعدم إدراكه ،  
وتفريقه بين الصادق والكاذب .

وهو أكل الخلق عقلا ، وأتمهم إدراكا ، وأتقهم رأيا وبصيرة ،  
ولهذا قال تعالى :

مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَخْلِفُونَ  
بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا

---

[ قل أذن خير لكم ] أى : يقبل من قال له خيراً وصدقا .

وأما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار  
الكاذبة ، فلسعة خلقه ، وعدم اهتمامه بشأنهم ، وامتناله لأمر الله  
في قوله :

[ سيخلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ، فأعرضوا عنهم  
إنهم رجس ] .

وأما حقيقة ما في قلبه ورأيه ، فقال عنه : [ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ]  
الصادقين المصدقين ، ويعلم الصادق من الكاذب ، وإن كان كثيرا ما يعرض  
عن الذين يعرف كذبهم وعدم صدقهم .

[ ورحمة للذين آمنوا منكم ] فإنهم به يهتدون ، وبأخلاقه  
يقتدون .

وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة ، بل ردوها ، ففسدوا  
دنياهم وآخرتهم .

[ والذين يؤذون رسول الله ] بالقول والفعل [ لهم عذاب أليم ] في  
الدنيا والآخرة .

ومن العذاب الأليم ، أنه يتحتم قتل مؤذيه وشاتمه .

[ يخلفون بالله لكم ليرضوكم ] فيتبرأوا مما صدر منهم من  
الأذية وغيرها .

مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنِ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ  
جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ أَخْزَىٰ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٢﴾

---

فغايبتهم أن يرضوا عليهم .

[ والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ] لأن المؤمن  
لا يقدم شيئاً على رضا ربه .

فدل هذا ، على انتفاء إيمانهم ، حيث قدموا رضا غير الله ورسوله .

وهذا محادة لله ، ومشاقة له ، وقد توعد من حاده بقوله :

[ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله ] بأن يكون في حد وشق مبعّد  
عن الله ورسوله بأن تهاون بأوامر الله ، وتجراً على محارمه .

[ فإن له نار جهنم خالدين فيها وذلك أخزى العظيم ] الذى لا خزى  
أشنع ولا أفظع منه ، حيث فاتهم النعيم المقيم ، وحصلوا على عذاب المجيم  
عياذا بالله من حالهم .

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ  
بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

\* كانت هذه السورة الكريمة ، تسمى « الفاضحة » لأنها بينت أسرار المنافقين ، وهتكت أستارهم .

فما زال الله يقول : ومنهم ومنهم ، ويذكر أوصافهم ، إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفائدتين .

إحداها : أن الله سَتِيرٌ ، يحب السر على عباده .

والثانية : أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين ، الذين توجه إليهم الخطاب وغيرهم إلى يوم القيامة .

فكان ذكر الوصف ، أعم وأنسب ، حتى خافوا غاية الخوف .

قال الله تعالى « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا \* ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا » .

وقال هنا [ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم ]  
أى : تخبرهم وتفضحهم ، وتبين أسرارهم ، حتى تكون علانية لعباده ، ويكونوا عبرة للمعتبرين .

[ قل استهزئوا ] أى : استمروا على ما أنتم عليه ، من الاستهزاء والسخرية .

[ إن الله مخرج ما تحذرون ] وقد وفى تعالى بوعده ، فأنزل هذه السورة التى بينتهم وفضحتهم ، وهتكت أستارهم .

وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَءَايَاتِهِ  
وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ

\* [ولئن سألتهم] عما قالوه من الطعن في المسلمين ، وفي دينهم ، يقول  
طائفة منهم في غزوة تبوك « ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء - يعنون النبي  
صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه - أرغب بطونا ، وأكذب ألسنا ، وأجبن  
عند اللقاء ونحو ذلك » .

ولما بلغهم أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قد علم بكلامهم ، جاءوا  
يعتذرون إليه ويقولون :

[إنما كنا نخوض ونلعب] أى : فتكلم بكلام ، لا قصد لنا به ،  
ولا قصدنا الطعن والعيب .

قال الله تعالى — مبينا عدم عذرهم وكذبهم فى ذلك : —

[قل] لهم [أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون] \* قد كفرتم بعد  
إيمانكم] .

فإن الاستهزاء بالله ورسوله ، كفر مخرج عن الدين .

لأن أصل الدين ، مبنى على تعظيم الله ، وتعظيم دينه ورسوله .

والاستهزاء بشيء من ذلك ، مناف لهذا الأصل ، ومناقض له أشد  
المناقضة .

ولهذا لما جاءوا إلى الرسول ، يعتذرون بهذه المقالة ، والرسول لا يزيدهم  
على قوله [أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون] \* لا تعتذروا قد كفرتم  
بعد إيمانكم] .

إِيْمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا  
مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

وقوله [ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ ] لتوبتهم واستغفارهم وندمهم .

[ نَعَذِّبْ طَآئِفَةً ] منكم [ بِأَنَّهُمْ ] أى بسبب أنهم [ كَانُوا مُجْرِمِينَ ]  
مقيمين على كفرهم ونفاقهم .

وفى هذه الآيات ، دليل على أن من أسر سريرة ، خصوصا السريرة ،  
التي يُمَكِّر فيها بدينه ، ويستهنىء به وبآياته ورسوله ، فإن الله تعالى يظهرها  
ويفضح صاحبها ، ويعاقبه أشد العقوبة .

وأن من استهنأ بشيء من كتاب الله وسنة رسوله الثابتة عنه ، أو سخر  
بذلك ، أو تنقصه ، أو استهنأ بالرسول ، أو تنقصه ، فإنه كافر بالله العظيم ،  
وأن التوبة مقبولة من كل ذنب ، وإن كان عظيما .

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ  
بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ  
فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ

\* يقول تعالى : [ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ] لأنهم اشتركوا  
في النفاق ، فاشتركوا في تولي بعضهم بعضا ، وفي هذا قطع للمؤمنين  
من ولايتهم .

ثم ذكر وصف المنافقين العام ، الذي لا يخرج منه صغير منهم  
ولا كبير ، فقال :

[ يأمرون بالمنكر ] وهو : الكفر ، والفسوق ، والعصيان .

[ وينهون عن المعروف ] وهو : الإيمان ، والأخلاق الفاضلة ، والأعمال  
الصالحة ، والآداب الحسنة .

[ ويقبضون أيديهم ] عن الصدقة ، وطرق الإحسان ، فوصفهم البخل  
[ نسوا الله ] فلا يذكرونه إلا قليلا .

[ فنسيهم ] من رحمته ، فلا يوفقهم لخير ، ولا يدخلهم الجنة ، بل  
يتركهم في الدرك الأسفل من النار ، خالدين فيها ، مخلدين .

[ إن المنافقين هم الفاسقون ] حصر الفسق فيهم ، لأن فسقهم ، أعظم  
من فسق غيرهم ، بدليل أن عذابهم ، أشد من عذاب غيرهم ، وأن  
المؤمنين قد ابتلوا بهم ، إذ كانوا بين أظهرهم ، والاحتراز منهم  
شديد .

[ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار ، نار جهنم خالدين فيها ، هي

وَالْمُنْفِقَتِ وَالْكَفَّارِ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَمُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَمُ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضُّمٌ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾

حسبهم ، ولعنهم الله ، ولهم عذاب مقيم [ جمع المنافقين والكفار ، في نار جهنم ، واللعنة والخلود في ذلك ، لاجتماعهم في الدنيا على الكفر ، والمعاداة لله ورسوله ، والكفر بآياته .

\* يقول تعالى واصفاً حال المنافقين : إن حالكم — أيها المنافقون — كحال أمثالكم ممن سبقكم إلى النفاق والكفر ، وقد كانوا أقوى منكم وأكثر أموالاً وأولاداً ، استمتعوا بما قدر لهم ، من حظوظ الدنيا ، وأعرضوا عن ذكر الله وتقواه ، وقابلوا أنبياءهم بالاستخفاف ، وسخروا منهم فيما بينهم وبين أنفسهم .

وقد استمتعتم بما قدر لكم ، من ملاذ الدنيا كما استمتعوا ، وخضتم فيما خاضوا فيه ، من المنكر والباطل .

إنهم قد بطلت أعمالهم ، فلم تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة ، وكانوا هم الخاسرين .

وأنتم مثلهم في سوء الحال والمآل ، والعاقبة الوخيمة .

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ  
إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُوثَقَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا

\* يقول تعالى - محذراً للمنافقين ، أن يصيبهم ما أصاب مَنْ قبلهم من  
الأمم المكذبة .

قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤثقات [  
أى : قرى قوم لوط .

فكلهم] أتهم رسلهم بالبينات [ أى : بالحق الواضح الجلى ، المبين  
لحقائق الأشياء ، فكذبوا بها ، فجرى عليهم ، ما قص الله علينا فأتهم أعمالكم  
شبيهة بأعمالهم .

[ استمتعتم بخلاقكم ] أى : بنصيبكم من الدنيا ، فتناولتموه على  
وجه اللذة والشهوة ، معرضين عن المراد منه .

واستمتعتم به على معاصى الله ، ولم تقعد همتكم وإرادتكم ، ما خولتم  
من النعم ، كما فعل الذين من قبلكم [ وخضتم كالذى خاضوا ] أى : وخضتم  
بالباطل والزور ، وجادتم بالباطل ، لتدحضوا به الحق .

فهذه أعمالهم وعلومهم ، استمتعتم بالخلاق ، وخوض بالباطل .  
فاستحقوا من العقوبة والإهلاك ، ما استحق من قبلهم ، ممن فعلوا  
كفعلهم .

وأما المؤمنون منهم — وإن استمتعوا بنصيبهم ، وما خولوا من  
الدنيا — فإنه على وجه الاستعانة به على طاعة الله .

وأما علومهم فهى علوم الرسل ، وهى الوصول ، إلى اليقين فى جميع  
المطالب العالية ، والمجادلة بالحق ؛ لإدحاض الباطل .

كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾  
 وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ  
 يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ  
 وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ

قوله [ فما كان الله ليظلمهم ] إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع .

[ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ] حيث تجرأوا على معاصيه ، وعصوا  
 رسلم ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد .

\* لما ذكر أن المنافقين ، بعضهم من بعض ، ذكر أن المؤمنين ،  
 بعضهم أولياء بعض ، ووصفهم بضد ما وصف به المنافقين فقال :

[ والمؤمنون والمؤمنات ] أى : ذكورهم وإناثهم [ بعضهم أولياء  
 بعض ] فى المحبة والموالاتة ، والائتماء والنصرة .

[ يأمرسون بالمعروف ] وهو اسم جامع ، لكل ما عرف حسنه ، من  
 العقائد الحسنة ، والأعمال الصالحة ، والأخلاق الفاضلة ، وأول من يدخل  
 فى أمرهم أنفسهم .

[ وينهون عن المنكر ] وهو : كل ما خالف المعروف وناقضه ، من  
 العقائد الباطلة ، والأعمال الخبيثة ، والأخلاق الرذيلة .

[ ويطيعون الله ورسوله ] أى لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله  
 على الدوام .

[ أولئك سيرحمهم الله ] أى : يدخلهم فى رحمته ، ويشملهم بإحسانه .

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ  
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ

[إن الله عزيز حكيم] أى : قوى قاهر ، ومع قوته ، فهو حكيم ،  
يضع كل شىء موضعه اللائق به ، الذى يحمد على ما خلقه وأمر به .

ثم ذكر ما أعد الله لهم من الثواب فقال :

\* [وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار] جامعة  
لكل نعيم وفرح ، خالية من كل أذى وترح ، تجري من تحت قصورها ،  
ودورها ، وأشجارها — الأنهار الغزيرة ، المروية للبساتين الأنيقة ، التى  
لا يعلم ما فيها من الخيرات ، إلا الله تعالى .

[خالدين فيها] لا ينفون عنها حَوْلًا [ومساكن طيبة فى جنات عدن]  
قد زخرت ، وحسنت ، وأعدت لعباد الله المتقين .

قد طاب مرآها ، وطاب منزلها ومقيلها ، وجمعت من آلات المساكن  
العالية ، مالا يتمنى فوقه الثمنون ، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرفا فى  
غاية الصفاء والحسن ، يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها .

فهذه المساكن الأنيقة ، التى حقيق بأن تسكن إليها النفوس ، وتنزع  
إليها القلوب ، وتشتاق لها الأرواح ، لأنها فى جنات عدن ، أى : إقامة  
لا يظعنون عنها ، ولا يتحولون منها .

فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ  
الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

يَسَاءُهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ

---

[ ورضوان من الله ] يحله على أهل الجنة [ أكبر ] مما هم فيه  
من النعيم .

فإن نعيمهم لم يطب ، إلا برؤية ربهم ، ورضوانه عليهم .  
ولأنه الغاية ، التي أمّاها العابدون ، والنهاية ، التي سعى نحوها  
المحبون .

فرضا رب الأرض والسموات ، أكبر من نعيم الجنات .

[ ذلك هو الفوز العظيم ] حيث حصلوا على كل مطلوب ، واتفق عنهم  
كل محذور ، وحسنت وطابت منهم جميع الأمور ، فنسأل الله أن يجعلنا  
مهمم بمجوده .

\* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم [ يا أيها النبي جاهد الكفار  
والمنافقين ] أي : بالغ في جهادهم [ واغلظ عليهم ] حيث اقتضت الحال  
الغلظة عليهم .

وهذا الجهاد يدخل فيه ، الجهاد باليد ، والجهاد بالحجة واللسان .

فن بارز منهم بالحاربة فيجاهد باليد ، واللسان ، والسيف  
واللسان .

عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ هُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا تَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا

ومن كان مدعنا للإسلام ، بذمة أو عهد ، فإنه يجاهد بالحجة والبرهان وبيِّن له محاسن الإسلام ، ومساوى الشرك والكفران ، فهذا ما لهم في الدنيا .

[ و ] أما في الآخرة ، فإن [ مأواهم جهنم ] أى : مقرهم الذى لا يخرجون منه [ وبئس المصير <sup>(١)</sup> ] .

\* [ يخلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ] أى : إذا قالوا قولا ، كقول من قال منهم « ليخرجن الأعز منها الأذل » والكلام الذى يتكلم به ، الواحد بعد الواحد ، فى الاستهزاء بالدين ، وبالرسول .

فإذا بلغهم أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قد بلغه شئ من ذلك ، جاءوا إليه يخلفون بالله ، ما قالوا .

قال تعالى مكذباً لهم [ ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم ] .  
فإسلامهم السابق — وإن كان ظاهره ، أنه أخرجهم من دائرة الكفر — فكلامهم الأخير ، ينقض إسلامهم ، ويدخلهم بالكفر .

[ وهما بما لم ينالوا ] وذلك حين هما بالفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى غزوة تبوك .

فقص الله عليه نبأهم ، فأمر من يصددهم عن قصدهم .

(١) أى ما أسوأ هذه العاقبة ، وما أفظعها عذاباً وألماً ؟ !!

يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

[ و ] الحال أنهم [ ما تقموا ] وعابوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم [ إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ] بعد أن كانوا فقراء معوزين .

وهذا من أعجب الأشياء ، أن يستهينوا بمن كان سببا لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ومغنياً لهم بعد الفقر .

وهل حقه عليهم إلا أن يعظموه ، ويؤمنوا به ويجلوه ؟ !!  
ثم عرض عليهم التوبة فقال : [ فإن يتوبوا يك خيرا لهم ] لأن التوبة ، أصل لسعادة الدنيا والآخرة .

[ وإن يتولوا ] عن التوبة والإنابة [ يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ] في الدنيا ، بما ينالهم من الهم ، والغم ، والحزن على نصرة الله لدينه ، وإعزاز نبيه ، وعدم حصولهم على مطلوبهم ، وفي الآخرة ، في عذاب السعير .

[ وما لهم في الأرض من ولي ] يتولى أمورهم ، ويحصل لهم المطلوب .  
[ ولا نصير ] يدفع عنهم المكروه .

وإذا انقطعوا من ولاية الله تعالى ، فتم أصناف الشر والخسران ، والشقاء والحرمان .

وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰهَدَ اللّٰهَ لَئِنْ اٰتٰنَا مِنْ فَضْلِهٖ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنَنَّ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ اٰتٰهُمْ مِّنْ فَضْلِهٖ بَخِلُوْا بِهٖ

\* أى : ومن هؤلاء المنافقين ، من أعطى الله عهده وميثاقه [ لئن آتانا من فضله ] من الدنيا فبسطها لنا ووسعها [ لنصدقن ولنكونن من الصالحين ] .

فصل الرحم ، ونقرى الضيف ، ونعين على نوائب الحق ، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة .

[ فلما آتاهم من فضله ] لم يفوا بما قالوا ، بل [ بخلوا به وتولوا ] عن الطاعة والالتقاد [ وهم معرضون ] أى : غير ملتفتين إلى الخير .

فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه ، عاقبهم و [ أعقبهم نفاقا فى قلوبهم ] مستمراً [ إلى يوم يلقونه ، بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ] .

فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع ، أن يعاهد ربه ، إن حصل مقصوده الفلانى ، ليفعلن كذا وكذا ، ثم لا يفي بذلك ، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثابت فى الصحيحين .

« آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف » .

فهذا المنافق الذى وعد الله وعاهده ، لئن أعطاه الله من فضله ، ليصدقن ، وليكونن من الصالحين ، حدث فكذب ، وعاهد فغدر ، ووعد فأخلف .

وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِقَافًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ  
يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾  
أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ  
الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

ولهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع ، بقوله :

[ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ] .

وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال ، التي يعلمها الله تعالى :

وهذه الآيات ، نزلت في رجل من المنافقين يقال له « ثعلبة » .

جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وسأله أن يدعو الله له ، أن يعطيه  
من فضله ، وأنه إن أعطاه ، ليتصدقن ، ويصل الرحم ، ويمين على نوائب  
الحق ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم له .

فكان له غنم ، فلم تزل تنامي ، حتى خرج بها عن المدينة ، فكان  
لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس .

ثم أبعد ، فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة .

ثم كثرت فأبعدها ، فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة .

ففقده النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبر بحاله ، فبعث من يأخذ الصدقات  
من أهلها . فمروا على ثعلبة ، فقال ماهذه إلا جزية ، ماهذه إلا أخت الجزية .

فلما لم يعطهم ، جاءوا ، فأخبروا بذلك ، النبي صلى الله عليه وسلم ،  
فقال « يا ويح ثعلبة » ثلاثا .

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾

فلما نزلت هذه الآية فيه ، وفي أمثاله ، ذهب بها بعض أهله ، فبلغه إياها .

فجاء بركاته ، فلم يقبلها النبي صلى الله عليه وسلم .  
ثم جاء بها إلى أبي بكر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها .  
ثم جاء بها بعد أبي بكر إلى عمر فلم يقبلها .  
فيقال : إنه هلك في زمن عثمان .

\* وهذا أيضاً من مخازي المنافقين ، فكانوا — قبحهم الله — لا يدعون شيئاً من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالا ، إلا قالوا وطعنوا ، بغيا وعدوانا .

فلما حثَّ الله ورسوله على الصدقة ، بادر المسلمون إلى ذلك ، وبذلوا من أموالهم ، كل على حسب حاله ، منهم الكثير ، ومنهم القليل .  
فيلمزون الكثير منهم ، بأن قصده بنفقتة ، الرياء والسمة .  
وقالوا للقل الفقير : إن الله غنى عن صدقة هذا .

فأنزل الله تعالى [ الذين يلزمون ] أى يعيبون ، ويطعنون [ المطوعين من المؤمنين في الصدقات ] فيقولون : مرأون ، قصدهم الفخر والرياء .

[ و ] [ يلزمون ] الذين لا يجدون إلا جهدهم [ فيخرجون ما استطاعوا ويقولون : الله غنى عن صدقاتهم ] فيسخرون منهم [ .

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

فقولوا على صنيعهم بأن [ سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ] فإنهم جمعوا في كلامهم هذا ، بين عدة محاذير .

منها : تتبعهم لأحوال المؤمنين ، وحرصهم على أن يجدوا مقالا يقولونه فيهم .

والله يقول [ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم ] .

ومنها : طعنهم بالمؤمنين ، لأجل إيمانهم ، كفرا بالله تعالى ؛ وبغضا للدين .

ومنها : أن اللز محرم ، بل هو من كبائر الذنوب ، في أمور الدنيا .

وأما اللز في أمر الطاعة ، فأقبح وأقبح .

ومنها : أن من أطاع الله ، وتطوع بخصلة من خصال الخير ، فإن الذي ينبغى ، هو إعاقته ، وتنشيطه على عمله .

وهؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم ، وعابوهم عليه .

ومنها : أن حكمهم على من أنفق مالا كثيراً بأنه سراء ، غلط فاحش ، وحكم على الغيب ، ورجم بالظن ، وأى شر أكبر من هذا ؟ ! !

ومنها : أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة « الله غنى عن صدقة هذا » .  
كلام مقصوده باطل ، فإن الله غنى عن صدقة المتصدق ، بالقليل ،  
والكثير ، بل وغنى عن أهل السموات والأرض .  
ولكنه تعالى ، أمر العباد ، بما هم مفقرون إليه .

فالله - وإن كان غنياً عنهم - فهم فقراء إليه « فن يعمل مثقال ذرة  
خيراً يره » .

وفى هذا القول ، من التثبيط عن الخير ، ما هو ظاهر بين .  
ولهذا كان جزاؤهم ، أن يسخر الله منهم ، ولهم عذاب أليم .  
\* [ استغفر لهم أولاً تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة ] على وجه المبالغة .  
وإلا ، فلا مفهوم لها .

[ فلن يغفر الله لهم ] كما قال فى الآية الأخرى « سواء عليهم أستغفرت  
لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم » .  
ثم ذكر السبب المانع لمغفرة الله لهم فقال : [ ذلك بأنهم كفروا بالله  
ورسوله ] .

والكافر ، لا ينفعه الاستغفار ، ولا العمل ، ما دام كافراً .  
[ والله لا يهدى القوم الفاسقين ] أى : الذين صار الفسق لهم وصفاً ،  
بحيث لا يختارون عليه سواء ولا ييغون به بدلا ، يأتيهم الحق الواضح ،  
فيردونه .

فيعاقبهم الله تعالى ، بأن لا يوقفهم له بعد ذلك .

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا

\* يقول تعالى - مبينا تبجح المنافقين ، بتخلفهم ، وعدم مبالاتهم بذلك ، الدال على عدم الإيمان ، واختيار الكفر على الإيمان .  
[ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ] .

وهذا قدر زائد على مجرد التخلف ، فإن هذا تخلف محرم ، وزيادة رضا بفعل المعصية ، وتبجح به .

وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله .  
وهذا بخلاف المؤمنين ، الذين إذا تخلفوا — ولو لعذر — حزنوا على تخلفهم ، وتأسفوا غاية الأسف ، ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، لما في قلوبهم من الإيمان ، ويرجون من فضل الله وإحسانه ، وبره وامتنانه .

[ وقالوا ] أى : المنافقون لا تنفروا في الحر [ أى : قالوا إن النفير مشقة علينا ، بسبب الحر .

فقدموا راحة قصيرة منقضية ، على الراحة الأبدية التامة .  
وحذروا من الحر الذى تقى منه الظلال ، وتذهب البكور والآصال ، على الحر الشديد ، الذى لا يقادر قدره ، وهو النار الحامية .  
ولهذا قال : « قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون » لما آثروا ، ما يفنى ، على ما يبقى ، ولما فروا من المشقة الخفيفة المنقضية ، إلى المشقة الشديدة الدائمة .

قَلِيلًا وَلْيُنْكَوْا كَثِيرًا جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾

\* قال تعالى: [فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً] أى : فليتمتعوا فى هذه الدار المنقضية ، ويفرحوا بلذاتها ، ويلهوا بلعبها .

فسبكون كثيراً فى عذاب أليم [ جزاء بما كانوا يكسبون ] من الكفر والنفاق ، وعدم الاتقياء لأوامر ربهم .

\* [ فإن رجعت الله إلى طائفة منهم ] وهم الذين تخلفوا من غير عذر ، ولم يحزنوا على تخلفهم .

[ فاستأذنوك للخروج ] لغير هذه الغزوة ، إذا رأوا السهولة .

[ فقل ] لهم عقوبة [ لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوا ] فسيغنى الله عنكم .

[ إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ] وهذا كما قال تعالى « وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة » .

فإن المتشاغل بالتخلف عن الأمور به عند انتهاز الفرصة ، لن يوفق له بعد ذلك ، ويحال بينه وبينه .

وفيه أيضاً تعزير لهم ، فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من المنوعين من الخروج إلى الجهاد ، لمعصيتهم ، كان ذلك توبيخاً لهم ، وعاراً عليهم ونكالا ، أن يفعل أحد كنفعلهم .

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾  
﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٨٤)

---

\* يقول تعالى [ ولا تصل على أحد منهم مات ] من المنافقين [ ولا تقم على قبره ] بعد الدفن ، لتدعوه له ، فإن صلاته ، ووقوفه على قبورهم ، شفاعته منه لهم ، ولا تنفع فيهم الشفاعة .

[ إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ] ومن كان كافراً ومات على ذلك ، فما تنفعه شفاعته الشافعين .

وفي ذلك عبرة لغيرهم ، وزجر ، ونكال لهم .

وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق ، فإنه لا يصلى عليه .

وفي هذه الآية ، دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين ، والوقوف عند قبورهم ، للدعاء لهم ، كما كلن النبي صلى الله عليه وسلم ، يفعل ذلك في المؤمنين .

فإن تقييد الله بالمنافقين ، يدل على أنه قد كان متقدراً في المؤمنين .

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ  
يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

---

\* أى : لا تغتر بما أعطاهم الله فى الدنيا ، من الأموال والأولاد .

فليس ذلك لكرامتهم عليه ، وإنما ذلك ، إهانة منه لهم .

[ إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا ] فيتعبون فى تحصيلها ،  
ويخافون من زوالها ، ولا يتهنثون بها .

بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها ، وتلهيهم عن الله والدار  
الآخرة ، حتى ينتقلوا من الدنيا [ وتزهق أنفسهم وهم كافرون ] قد سلبهم  
حبها كل شيء ، فاتوا ، وقلوبهم بها متعلقة ، وأفئدتهم عليها متحركة .

﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولَؤُلَا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾

\* يقول تعالى — في بيان استمرار المنافقين على التثاقل عن الطاعات ، وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات .

[وإذا أنزلت سورة] يؤمرون فيها بالإيمان بالله ، والجهاد في سبيل الله . [استأذنتك أولوا الطول منهم] يعني : أولى الغنى والأموال ، الذين لا عذر لهم . وقد أمدهم الله بأموال وبنين ، أفلا يشكرون الله ويحمدونه ، ويقومون بما أوجبه عليهم ، وسهل عليهم أمره<sup>(١)</sup> . ولكن أبوا إلا التكاسل ، والاستئذان في القعود [وقالوا ذرنا نكن مع القاعد] .

قال تعالى [رضوا بأن يكونوا مع الخوالف] كيف : رضوا لأنفسهم ، أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد . هل معهم فقه أو عقل ، دلهم على ذلك ؟ .

أم [طبع الله على قلوبهم] فلا تعى الخير ، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح ؟ .

(١) قوله (بما أوجب عليهم وسهل عليهم أمره) تعبير فيه ما فيه من ناحية السبك والصياغة الإنشائية .

ولو قال (ويقومون بما أوجب الله عليهم من الإنفاق في مرضاته وبما سهل لهم من السبل الموصلة إلى الغنى والسعة ، في الأرزاق) لكان أوضح .

لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ  
وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾  
أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ  
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

فهم لا يفتقون مصالحهم .  
فلو فقهوا حقيقة الفقه ، لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال ، التي تحطمهم  
عن منازل الرجال .  
\* يقول تعالى : إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد ، فإني سيفنى عنهم .  
ولله عباد وخواص من خلقه ، اختصهم بفضله ، يقومون بهذا الأمر .  
وهم [ الرسول ] محمد صلى الله عليه وسلم ، [ والذين آمنوا معه جاهدوا  
بأموالهم وأنفسهم ] غير متثاقلين ولا كسلين ، بل هم فرحون مستبشرون .  
[ وأولئك لهم الخيرات ] الكثيرة في الدنيا والآخرة .  
[ وأولئك هم المفلحون ] الذين ظفروا بأعلى المطالب ، وأكمل  
الغائب .  
\* [ أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك  
الفوز العظيم ] .  
فتباً لمن لم يرغب بما رغبوا فيه ، وخسر دينه ، ودنياه ، وأخراه .  
وهذا نظير قوله تعالى « قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا  
العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذان سجداً » .  
وقوله [ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين ] .

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ  
الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ  
أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ

\* يقول تعالى [ وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم ].

أى : جاء الذين تهاونوا ، وقصروا منهم فى الخروج ، لأجل أن يؤذن  
لهم فى ترك الجهاد ، غير مباليين فى الاعتذار ، لجفائهم ، وعدم حياتهم ،  
وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف .

وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم ، ففقدوا وتركوا الاعتذار بالكلية .  
ويحتمل أن معنى قوله [ المعذرون ] أى : الذين لهم عذر ، أتوا إلى الرسول  
صلى الله عليه وسلم ، ليعذرهم ، ومن عادته ، أن يعذر من له عذر .

[ وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ] فى دعواهم الإيمان ، المقتضى للخروج ،  
وعدم علمهم بذلك .

ثم توعدهم بقوله [ سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ] فى الدنيا  
والآخرة .

لما ذكر المعتذرين ، وكانوا على قسمين ، قسم معذور فى الشرع ،  
وقسم غير معذور ، ذكر ذلك بقوله :

[ ليس على الضعفاء ] فى أبدانهم وأبصارهم ، الذين لا قوة لهم على  
الخروج والقتال .

[ ولا على المرضى ] وهذا شامل لجميع أنواع المرض ، الذى لا يقدر  
صاحبه على الخروج والجهاد ، من عرج ، وعوى ، وحى ذات الجنب ،  
والفالج ، وغير ذلك .

لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى  
الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا

[ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون] أى : لا يجدون زادا ، ولا  
راحة يتبلغون بها في سفرهم .

فهؤلاء ، ليس عليهم حرج ، بشرط أن ينصحوا الله ورسوله ، بأن  
يكونوا صادقي الإيمان ، وأن يكون من نيتهم ، وعزمهم ، أنهم لو قدروا  
لجاهدوا ، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه ، من الحث ، والترغيب ، والتشجيع  
على الجهاد .

[ما على المحسنين من سبيل] أى : من سبيل يكون عليهم فيه تبعة ،  
فإنهم - بإحسانهم ، فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد - أسقطوا توجه  
اللوم عليهم .

وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه ، سقط عنه مالا يقدر عليه .  
ويستدل بهذه الآية على قاعدة .

وهى : أن من أحسن على غيره ، فى نفسه ، أو فى ماله ، ونحو ذلك ،  
ثم ترتب على إحسانه ، نقص أو تلف ، أنه غير ضامن لأنه محسن ، ولا  
سبيل على المحسنين .

كما أنه يدل ، على أن غير المحسن - وهو المسىء - كالمفرط ؛ أن  
عليه الضمان .

[والله غفور رحيم] ومن مغفرته ورحمته ، عفا عن العاجزين ، وأثابهم  
بنيتهم الجازمة ، ثواب القادرين الفاعلين .

مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ  
تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ  
عَلَى الَّذِينَ يَسْتَغْنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ  
الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

[ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم] فلم يصادفوا عندك شيئا [قلت] لهم  
معتذراً [لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً  
أن لا يجدوا ما ينفقون] فإنهم عاجزون ، باذلون لأنفسهم ، وقد صدر منهم  
من الحزن والمشقة ، ما ذكره الله عنهم .

فهؤلاء لا حرج عليهم ، وإذا سقط الحرج عنهم ، عاد الأمر إلى أصله ،  
وهو . أن من نوى الخير ، واقترب بنيتة الجازمة ، سعى فيما يقدر عليه ،  
ثم لم يقدر ، فإنه ينزل منزلة الفاعل التام .

[إنما السبيل] يتوجه واللوم يتأكد [على الذين يستأذنونك وهم  
أغنياء] قادرون على الخروج ، ولا عذر لهم .

فهؤلاء [رضوا] لأنفسهم ومن دينهم [أن يكونوا مع الخوالف]  
كالنساء والأطفال ونحوهم .

[و] [إنما رضوا بهذه الحال لأن الله] [طبع على قلوبهم] أى . ختم  
عليها ، فلا يدخلها خير ، ولا يحسون بمصالحهم الدينية والدنيوية .

[فهم لا يعلمون] عقوبة لهم ، على اقترافها .

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا  
لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ  
وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ

\* لما ذكر تخلف المنافقين الأغنياء ، وأنهم لا عذر لهم ، أخبر أنهم  
سوف [ يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم ] من غزائكم .

[ قل ] لهم [ لا تعتذروا لن تؤمن لكم ] أى : لن نصدقكم في  
اعتذاركم الكاذب .

[ قد نبأنا الله من أخباركم ] وهو الصادق في قوله ، فلم يبق للاعتذار  
فائدة ، لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر الله عنهم ، ومحال أن يكونوا  
صادقين فيما يخالف خبر الله الذي ، هو أعلى مراتب الصدق .

[ وسيرى الله عملكم ورسوله ] في الدنيا ، لأن العمل هو ميزان الصدق  
من الكذب .

وأما مجرد الأقوال ، فلا دلالة فيها على شيء من ذلك .

[ ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ] الذي لا تخفى عليه خافية .

[ فينبئكم بما كنتم تعملون ] من خير وشر ، ويجازيكم بعهده أو بفضله ،  
من غير أن يظلمكم مثقال ذرة .

واعلم أن المسمى المذنب له ثلاث حالات .

إما أن يقبل قوله وعذره ، ظاهراً وباطناً ، ويعفى عنه ، بحيث يبقى  
كأنه لم يذنب .

تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَخْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ

وإما أن يعاقبوا بالعقوبة والتميزير الفعلى ، على ذنبهم .

وإما أن يعرض عنهم ، ولا يقابلوا بما فعلوا ، بالعقوبة الفعالية .

وهذه الحال الثالثة ، هى التى أمر الله بها فى حق المناقين .

ولهذا قال :

[ سيخلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ، فأعرضوا عنهم ] .

أى : لا تؤنبوهم ، ولا تجلدوهم أو تقتلوه .

[ إنهم رجس ] أى : إنهم قدر خبثاء ، ليسوا بأهل لأن يبالى بهم ، وليس التوبيخ والعقوبة مفيدا فيهم .

[ و ] يكفيهم أن [ مأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ] .

\* وقوله : [ يخلفون لكم لترضوا عنهم ] أى : ولهم أيضاً هذا المقصد الآخر منكم ، غير مجرد الإعراض ، بل يحبون أن ترضوا عنهم ، كأنهم ما فعلوا شيئاً .

[ فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ] أى : فلا ينبغي

لكم — أيها المؤمنون — أن ترضوا عن من لم يرض الله عنه ، بل عليكم أن توافقوا ربكم ، فى رضاه وغضبه .

فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

وتأمل كيف قال : [ فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ] ولم يقل « فإن الله لا يرضى عنهم » ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح ، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم ، فإن الله يتوب عليهم ، ويرضى عنهم .  
وأما ماداموا فاسقين ، فإن الله لا يرضى عليهم ، لوجود المانع من رضاه .

وهو : خروجهم عن ما رضىه الله لهم ، من الإيمان والطاعة ، إلى ما يفضيه من الشرك ، والنفاق ، والمعاصي .

وحاصل ما ذكره الله ، أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد ، من غير عذر ، إذا اعتذروا للمؤمنين ، وزعموا أن لهم أعذارا في تخلفهم ، فإن المنافقين يريدون بذلك ، أن تعرضوا عنهم ، وترضوا ، وتقبلوا عذرهم .  
فأما قبول العذر منهم ، والرضا عنهم ، فلا حبا ، ولا كرامة لهم .  
وأما الإعراض عنهم ، فيعرض المؤمنون عنهم ، لإعراضهم عن الأمور الردية والرجس .

وفي هذه الآيات ، إثبات الكلام لله تعالى في قوله [ قد نبأنا الله من أخباركم ] .

وإثبات الأفعال الاختيارية لله ، الواقعة بمشيئته تعالى وقدرته ، في هذا ، وفي قوله :

[ وسيرى الله عملكم ورسوله ] أخبر أنه سيراه بعد وقوعه .

وفيها إثبات الرضا لله عن المحسنين ، والغضب والسخط ، على الفاسقين .

﴿٩٧﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا  
حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ  
الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَارِ عَلَيْهِمْ

\* يقول تعالى [الأعراب] وهم سكان البادية والبرارى [أشد كفرة  
ونفاقاً] من الحاضرة ، الذين فيهم كفر ونفاق ، وذلك لأسباب كثيرة .  
منها : أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية ، والأعمال  
والأحكام .

فهم أخرى [وأجدد أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ]  
من أصول الإيمان ، وأحكام الأوامر والنواهي .  
بخلاف الحاضرة ، فإنهم أقرب ، لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على  
رسوله ، فيحدث لهم — بسبب هذا العلم — تصورات حسنة ، وإرادات  
للخير ، الذى يعلمون منه ، مالا يكون فى البادية .

وفيه من لطافة الطبع ، والالتقياد للداعى ، ما ليس فى البادية .  
وبخالسون أهل الإيمان ، وبخالطونهم أكثر من أهل البادية .  
فلذلك كانوا أخرى للخير من أهل البادية ، وإن كان فى البادية  
والحاضرة ، كفار ومناقون ، فى البادية أشد وأغلظ ، مما فى الحاضرة .  
ومن ذلك ، أن الأعراب أحرص على الأموال ، وأشح فيها .

فمنهم [ من يتخذ ما ينفق ] من الزكاة والنفقة فى سبيل الله وغير ذلك .  
[ مغرماً ] أى : يراها خسارة ونقصاً ، لا يحتسب فيها ، ولا يريد بها  
وجه الله ، ولا يكاد يؤديها إلا كرها .

دَارَةُ السَّوِّءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ  
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَّاتِ  
الرَّسُولِ إِلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ

[ ويتبرص بكم الدوائر ] أى : من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم ،  
أنهم يودون وينتظرون فيهم ، دوائر الدهر ، ولجائع الزمان .  
وهذا سينمكس عليهم فتكون [ عليهم دائرة السوء ] .  
وأما المؤمنون ، فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم ، ولهم العقبى الحسنة .  
[ والله عليم حكيم ] يعلم نيات العباد ، وما صدرت عنه الأعمال ، من  
إخلاص وغيره وليس الأعراب كلهم مذمومين .  
بل منهم [ من يؤمن بالله واليوم الآخر ] فيسلم بذلك من الكفر والتفارق  
ويعمل بمقتضى الإيمان .

[ ويتخذ ما ينفق قربات عند الله ] أى : يحتسب نفقته ، ويقصد بها  
وجه الله تعالى ، والتقرب منه [ و ] يجعلها وسيلة إلى [ صلوات الرسول ]  
أى : دعائه لهم ، وتبريكه عليهم .  
قال تعالى — مبينا لنفع صلوات الرسول :

[ ألا إنها قربة لهم ] تقرّبهم إلى الله ، وتنمى أموالهم ، وتحل فيها البركة .  
[ سيدخلهم الله في رحمته ] فى جملة عباده الصالحين [ إنه غفور رحيم ] .  
فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه ، ويعم عباده برحمته ، التى وسعت  
كل شئ . ، ويخص عباده المؤمنين ، برحمة يوقفهم فيها إلى الخيرات ،  
ويمحيهم فيها من المخالفات ، ويميز لهم فيها أنواع الثوبات .

## عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

وفي هذه الآية ، دليل على أن الأعراب ، كأهل الحاضرة ، منهم المدوح ومنهم المذموم .

فلم يذمهم الله ، على مجرد تعريضهم وبإديتهم ، وإنما ذمهم ، على ترك أوامر الله ، وأنهم في مظنة ذلك .

ومنها : أن الكفر والنفاق ، يزيد وينقص ، ويغلظ ويخفف ، بحسب الأحوال .

ومنها : فضيلة العلم ، وأن فاقده أقرب إلى الشر ممن يعرفه ، لأن الله ذم الأعراب ، وأخبر أنهم أشد كفراً ونفاقاً ، وذكر السبب الموجب لذلك ، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

ومنها : أن العلم النافع ، الذي هو أنفع العلوم ، معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ، من أصول الدين وفروعه ، كمعرفة حدود الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ، والتقوى ، والفلاح ، والطاعة ، والبر ، والصلة ، والإحسان ، والكفر ، والنفاق ، والفسوق ، والعصيان ، والزنا ، والخمر ، والربا ، ونحو ذلك .

فإن في معرفتها ، يتمكن العارف من فعلها ، إن كانت مأموراً بها ، أو تركها ، إن كانت محظورة ومن الأمر بها أو النهي عنها .

ومنها : أنه ينبغي للمؤمن ، أن يؤدي ما عليه من الحقوق ، منشراح الصدر ، مطمئن النفس ، ويحرص أن تكون مغنماً ، ولا تكون مغرمًا .

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ  
اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ  
جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ  
الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

\* [ السابقون الأولون ] هم : الذين سبقوا هذه الأمة وبدورها للإيمان  
والهجرة ، والجهاد ، وإقامة دين الله .

[ من المهاجرين ] الذين ، أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون  
فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون .

[ و ] من [ الأنصار ] الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ،  
يحبون من هاجر إليهم ، ولا يمدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون  
على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة .

[ والذين اتبعوهم بإحسان ] بالاعتقادات ، والأقوال ، والأعمال .  
فهؤلاء ، هم الذين سلموا من الذم ، وحصل لهم نهاية المدح ، وأفضل  
الكرامات من الله .

[ رضى الله عنهم ] ورضاه تعالى ، أكبر من نعيم الجنة .  
[ ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار ] الجارية ، التي  
تساق إلى سقي الجنان ، والحدائق الزاهية الزاهرة ، والرياض الفاخرة .  
[ خالدين فيها أبداً ] لا ينفون عنها حولا ، ولا يطلبون منها بدلا .  
لأنهم مهما تمنوه ، أدركوه ، ومهما أرادوه ، وجدوه .

[ ذلك الفوز العظيم ] الذى حصل لهم فيه ، كل محبوب للنفوس ، ولذة

وَمِنْ حَوْلِكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ  
الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا يَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ  
ثُمَّ يَرْدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

للأرواح ، ونعيم للقلوب ، وشهوة للأبدان ، واندفع عنهم كل محذور .  
\* يقول تعالى : [ ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة ]  
أيضا منافقون [ مردوا على النفاق ] أى : تمرنوا عليه ، وازدادوا  
فيه طغيانا .

[ لا تعلمهم ] بأعيانهم ، فتعاقبهم ، أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم ، لما لله  
فى ذلك من الحكمة الباهرة .

[ نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ] يحتمل أن التثنية على بابها ، وأن  
عذابهم عذاب فى الدنيا ، وعذاب فى الآخرة .

فى الدنيا ، ما ينالهم من الهم والنغم ، والكراهة ، لما يصيب المؤمنين ،  
من الفتح والنصر .

وفى الآخرة عذاب النار ، وبئس القرار .

ويمحتمل أن المراد ، سنغلظ عليهم العذاب ، ونضاعفه عليهم ،  
ونكرره .

﴿وَأَخْرَجُوا مِنْ دُونِهَا زُرَّارًا﴾  
وَأَخْرَجَ سَيِّئًا عَنِ اللَّهِ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

\* يقول تعالى : [ وآخرون ] ممن بالمدينة : ومن حولها ، بل ومن سائر البلاد الإسلامية .

[ اعترفوا بذنوبهم ] أى : أقروا بها ، وندموا عليها ، وسعوا في التوبة منها ، والتطهر من أدرانها .

[ خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ] ، ولا يكون العمل صالحاً ، إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان ، المخرج عن الكفر والشرك ، الذى هو شرط لكل عمل صالح .

فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة ، بالأعمال السيئة ، من التجرى على بعض المحرمات ، والتقصير فى بعض الواجبات ، مع الاعتراف بذلك والرجاء ، بأن يغفر الله لهم .

فهؤلاء [ عسى الله أن يتوب عليهم ] وتوبته على عبده نوعان .

الأول : التوفيق للتوبة والثانى : قبولها بعد وقوعها منهم .

[ إن الله غفور رحيم ] أى : وصفه المغفرة والرحمة ، اللتان لا يخلو مخلوق منهما .

بل لا بقاء للعالم العلوى والسفلى إلا بهما .

فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ، ما ترك على ظهرها من دابة .

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا ، إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليما غفورا » .

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ  
إِنَّ صَلَاتَكَ مَكْنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾

ومن مغفرته : أن المفسرين على أنفسهم ، الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال السيئة ، إذا تابوا إليه وأنابوا ، ولو قبيل موتهم بأقل القليل ، فإنه يعفو عنهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم .

فهذه الآية ، دالة على أن الخلط المعترف النادم ، الذي لم يبق توبة نصوحا ، أنه تحت الخوف والرجاء ، وهو إلى السلامة أقرب .

وأما الخلط الذي لم يعترف ، ولم يندم على ما مضى منه ، بل لا يزال مصراً على الذنوب ، فإنه يخاف عليه أشد الخوف .

قال تعالى لرسوله ، ومن قام مقامه ، آمرا له بما يطهر المؤمنين ، ويتم إيمانهم :

[ خذ من أموالهم صدقة ] وهي الزكاة المفروضة .

[ تطهرهم وتزكهم بها ] أى : تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة .

[ وتزكهم ] أى : تنمهم ، وتزيد في أخلاقهم الحسنة ، وأعمالهم الصالحة ، وتزيد في ثوابهم الدنيوى والأخروى ، وتنمى أموالهم .

[ وصل عليهم ] أى : ادع لهم ، أى : للمؤمنين عموماً وخصوصاً ، عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم .

[ إن صلاتك سكن لهم ] أى : طمأنينة لقلوبهم ، واستبشار لهم .

[ والله سميع ] لدعائك ، سمع إجابة وقبول .

[علم] بأحوال العباد ونياتهم ، فيجازى كل عامل بعمله ، وعلى قدر نيته .

فكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يمثل لأمر الله ، ويأمرهم بالصدقة ، ويبعث عماله لجبايتها .  
فإذا أتاه وأخذ صدقته ، دعا له ، وبرك .

ففي هذه الآية ، دلالة على وجوب الزكاة ، في جميع الأموال .  
وهذا إذا كانت للتجارة ، ظاهرة ، فإنها أموال تنمى ويكتسب بها .  
فن العدل أن يواسى منها الفقراء ، بأداء ما أوجب الله فيها من الزكاة .  
وما عدا أموال التجارة ، فإن كان المال ينمى ، كالحبوب ، والثمار ،  
والماشية المتخذة للنماء ، والدر ، والنسل ، فإنها تجب فيها الزكاة ، وإلا ، لم  
تجب فيها ، لأنها إذا كانت للقتية ، لم تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها  
الإنسان في العادة ، مالا يتمول ، ويطلب منه المقاصد المالية ، وإنما صرف  
عن المالية بالقتية ونحوها .

وفيهما أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى ، حتى يخرج زكاة ماله ،  
وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها ، لأن الزكاة والتطهير ، متوقف على  
إخراجها .

وفيهما : استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه ، لمن أدى زكاته ، بالبركة .  
وأن ذلك ينبغى ، أن يكون جهرًا ، بحيث يسمعه المتصدق ، فيسكن إليه .  
ويؤخذ من المعنى ، أنه ينبغى إدخال السرور على المؤمن ، بالكلام  
اللين ، والدعاء له ، ونحو ذلك ، مما يكون فيه طمأنينة ، وسكون لقلبه .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ  
وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٤)

---

أى : أما علموا سعة رحمة الله ، وعموم كرمه ، وأنه [ يقبل التوبة  
عن عباده ] التائبين ، من أى ذنب كان ، بل يفرح تعالى بتوبة عبده ، إذا  
تاب ، أعظم فرح يتدر .

[ ويأخذ الصدقات ] منهم أى يقبها ، ويأخذها بيمينه ، فيربها لأحدهم ،  
كما يربى الرجل فله (١) ، حتى تكون التمرة الواحدة ، كالجبل العظيم  
فكيف بما هو أكبر ، وأكثر من ذلك .

[ وأن الله هو التواب الرحيم ] أى : كثير التوبة على التائبين .

فن تاب إليه ، تاب عليه ، ولو تكررت منه المعصية مراهراً .

ولا يمل الله من التوبة على عباده ، حتى يملواهم ، ويأبوا إلا النفار  
والشروء عن بابه ، وموالاتهم عدوهم .

[ الرحيم ] الذى وسعت رحمته كل شئ ، وكتبها للذين يتقون ، ويؤتون  
الزكاة ، ويؤمنون بآياته ، ويتبعون رسوله .

---

(١) بوزن (عدو) وفيه لغة ثانية على وزن (حمل) بكسر الحاء  
وسكون الميم أى : المهر يفصل عن أمه والجمع أفلاء مثل عدو وأعداء  
والأنثى (فلوة) على وزن (عدوة) بفتح العين وضم الدال وتشديد الواو  
وعلى لغة فتح العين وضم الدال تكون الواو مشددة . اهـ من المصباح  
بزيادة إيضاح .

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ  
وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ  
تَعْمَلُونَ﴾ (١٠٥)

\* يقول تعالى : [وقل] لهؤلاء المنافقين : [اعملوا] ما ترون من الأعمال ،  
واستمروا على باطلكم ، فلا تحسبوا أن ذلك ، سيخفى .

[ فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ] أى : لا بد أن يتبين عملكم  
ويتضح .

[ وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ]  
من خير وشر .

ففي هذا ، التهديد والوعيد الشديد ، على من استمر على باطله وطفياته ،  
وغيه وعصيانه .

ويحتمل أن المعنى : أنكم مهما عملتم من خير وشر ، فإن الله مطلع  
عليكم ، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين ، على أعمالكم ، ولو كانت باطنة .

﴿وَأَخْرَوْنَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ

عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠٦)

---

أي : [ وآخرون ] من الخلفين [ مرجون ] أي : مؤخرون [ لأمر الله ،  
إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ] .

ففي هذا ، التخويف الشديد للمتخلفين ، والحث لهم على التوبة  
والندم .

[ والله عليم حكيم ] يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها .  
فإن اقتضت حكمته ، أن يذلم ولا يوقعهم للتوبة ، فعل ذلك .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ  
الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ

\* كان أناس من المنافقين من أهل قباء ، اتخذوا مسجداً إلى جنب  
مسجد قباء ، يريدون به المضارة والمشاقة ، بين المؤمنين ، ويعدون لمن  
يرجونه ، من المحاربين لله ورسوله ، يكون لهم حصنا عند الاحتياج إليه .  
فبين تعالى خزيمهم ، وأظهر سرهم فقال :

[والذين اتخذوا مسجداً ضراراً] أى : مضارة للمؤمنين ولمسجدهم ،  
الذى يجتمعون فيه [وكفراً] أى : مقصدهم فيه الكفر ، إذا قصد  
غيرهم الإيمان .

[وتفريقاً بين المؤمنين] أى : ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا .

[وإرصاداً] أى : إعدداً [لمن حارب الله ورسوله من قبل] أى :  
إعانة للمحاربين لله ورسوله ، الذين تقدم حراهم ، واشتدت عداوتهم .  
وذلك كأبي عامر الراهب ، الذى كان من أهل المدينة .

فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهاجر إلى المدينة ، كفر به ،  
وكان متعبداً فى الجاهلية .

فذهب إلى المشركين ، يستعين بهم على حرب رسول الله صلى الله  
عليه وسلم .

فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ، ذهب إلى قيصر ، بزعمه أنه ينصره .

فهلك اللعين فى الطريق ، وكان على وعد ومائلة ، هو والمنافقون .

فكان مما أعدوا له ، مسجد الضرار ، فنزل الوحي بذلك .

إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾

فَبَعَثَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مِنْ يَهْدِمُهُ ، وَيَحْرِقُهُ ، فَهَدَمَ وَحَرَقَ ، وَصَارَ بَعْدَ ذَلِكَ مَرْبَلَةً .

قال تعالى - بعد ما بين مقاصدهم الفاسدة في ذلك ، المسجد - [ وليحلفن إن أردنا ] في بنائنا إياه [ إلا الحسنى ] أى : الإحسان إلى الضعيف ، والعاجز والضرير .

[ والله يشهد إنهم لكاذبون ] فشهادة الله عليهم ، أصدق من حلفهم .  
[ لا تقم فيه أبدا ] أى : لا تصل في ذلك المسجد ، الذى بنى ضاررا أبدا .  
فإنه يغنيك عنه ، ولست بمضطر إليه .

[ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم ] ظهر فيه الإسلام في « قباء » وهو مسجد « قباء » أسس على إخلاص الدين لله ، وإقامة ذكره ، وشعائره دينه ، وكان قديماً في هذا ، عريقاً فيه .

فهذا المسجد الفاضل [ أحق أن تقوم فيه ] وتتعبد ، وتذكر الله تعالى ، فهو فاضل ، وأهله فضلاء ، ولهذا مدحهم الله بقوله :

[ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ] من الذنوب ، ويتطهروا من الأوساخ ، والنجاسات ، والأحداث .

ومن العلوم أن من أحب شيئاً ، لا بد أن يسعى له ، ويجتهد فيما يجب .

أَقَمْنِ أَسْسَ بُنْيَنَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمَّ مِنْ أَسْسِ  
بُنْيَنَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي

---

فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ ،  
والأحداث .

ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه . وكانوا مقيمين للصلاة ، محافظين  
على الجهاد ، مع رسول الله صلى عليه وسلم ، وإقامة شرائع الدين ، ومن  
كانوا يتحرزون من مخالفة الله ورسوله .  
وسألهم النبي صلى الله عليه وسلم ، بعد ما نزلت هذه الآية في مدحهم  
عن طهارتهم .

فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء ، فحمدهم على صنيعهم .  
[ والله يحب المطهرين ] الطهارة المعنوية ، كالتنزه من الشرك ،  
والأخلاق الرذيلة .

والطهارة الحسية ، كإزالة الأنجاس ، ورفع الأحداث .  
ثم فاضل بين المساجد ، بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه فقال :  
\* [ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ] أى : على نية صالحة ، وإخلاص .  
[ ورضوان ] بأن كان موافقاً لأمره ، فجمع في عمله ، بين الإخلاص  
والتابعة .

[ خير أم من أسس بنيانه على شفا ] أى : على طرف [ جرف هار ]  
أى : بال ، قد تداعى للانهدام .

[ فانهار به في نار جهنم ] ، والله لا يهدي القوم الظالمين [ لما فيه مصالح  
دينهم ودينامهم .

أَقْوَمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ  
إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

[لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم] أى : شكا ، وريباً ما كثراً  
في قلوبهم .

[إلا أن تقطع قلوبهم] بأن يندموا غاية الندم ، ويتوبوا إلى ربهم ،  
ويخافوه غاية الخوف ، فبذلك يعفو الله عنهم .

وإلا فبنيانهم ، لا يزيدهم إلا ريباً إلى ربهم ، ونفاقاً إلى نفاقهم .  
[والله عليم] بجميع الأشياء ، ظاهرها ، وباطنها ، خفيها ، وجليها ،  
وبما أسره العباد ، وأعلنوه .

[حكيم] لا يفعل ، ولا يخلق ، ولا يأمر ، ولا ينهى ، إلا ما اقتضته  
الحكمة وأمر به . فله الحمد .

وفي هذه الآيات ، عدة فوائد .

منها : أن اتخاذ المسجد ، الذى يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه ،  
أنه محرم ، وأنه يجب هدم مسجد الضرار ، الذى اطلع على مقصود أصحابه .  
ومنها : أن العمل ، وإن كان فاضلاً ، تغيره النية ، فينقلب منهاً عنه ،  
كما قابلت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم ، إلى ما ترى .

ومنها : أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين ، فإنها من المعاصي ،  
التي يتعين تركها وإزالتها .

كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وإتلافهم ، يتعين اتباعها ،  
والأمر بها ، والحث عليها .

لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار ، بهذا المقصد الموجب للنهى عنه ،  
كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله .

ومنها : النهى عن الصلاة فى أما كن المعصية ، والبعد عنها ،  
وعن قربها

ومنها : أن المعصية تؤثر فى البقاء ، كما أثرت معصية المنافقين  
فى مسجد الضرار ، ونهى عن القيام فيه .  
وكذلك الطاعة تؤثر فى الأما كن كما أثرت فى مسجد « قباء » حتى  
قال الله فيه :

[ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ] .  
ولهذا كان لمسجد قباء ، من الفضل ، ما ليس لغيره ، حتى كان  
صلى الله عليه وسلم ، يزور قباء كل سبت ، صلى فيه ، وحث على الصلاة فيه .  
ومنها : أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة فى الآية ، أربع قواعد  
مهمة ، وهى :

كل عمل فيه مضارة لىلم ، أو فيه معصية لله ، فإن المعاصى من فروع  
الكفر ، أو فيه تفريق بين المؤمنين ، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله ،  
فإنه محرم ممنوع منه ، وعكسه بعكسه .

ومنها : أنه إذا كان مسجد قباء ، مسجداً أسس على التقوى ، فمسجد  
النبي صلى الله عليه وسلم ، الذى أسسه بيده المباركة ، وعمل فيه ، واختاره  
الله له ، من باب أولى وأحرى .

ومنها : أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة ، هو العمل المؤسس  
على التقوى ، الموصل لعامله إلى جنات النعيم .

والعمل المبني على سوء القصد ، وعلى البدع والضلال ، هو العمل  
المؤسس على شفا جرف هار ، فانهار به فى نار جهنم ، والله لا يهدى  
القوم الظالمين .

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ  
بِأَنَّهُمْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا  
عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ

\* يخبر تعالى خبراً صدقاً ، ويعد وعداً حقاً ، بمبايعة عظيمة ، ومعاوضة  
جسيمة .

وهو : أنه [ اشترى ] بنفسه الكريمة [ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ]  
فهى الثمن والسلعة المبعة .

[ بأن لهم الجنة ] التى فيها ، ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، من أنواع  
اللذات والأفراح ، والمسرات ، والخور ، الحسان ، والمنازل الأنيقات .

وصنة العقد والمبايعة ، بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم ، فى جهاد أعدائه ،  
لإعلاء كلمته ، وإظهار دينه [ يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ] .

فهذا العتد والمبايعة ، قد صدرت من الله ، مؤكدة بأنواع التأكيدات .

[ وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ] التى هى أشرف  
الكتب ، التى طرقت العالم ، وأعلاها ، وأكملها ، وجاء بها أكل الرسل ،  
أولو العزم ، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق .

[ ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ] أيها المؤمنون القائمون  
بما وعدكم الله .

مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ  
الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

[بيعكم الذى بايعتم به] أى : تعزموا بذلك ، وليشرك بعضكم بعضاً ،  
ويبحث بعضكم بعضاً .

[وذلك هو الفوز العظيم] الذى لا فوز أكبر منه ، ولا أجل ،  
لأنه يتضمن السعادة الأبدية ، والنعيم المقيم ، والرضا من الله ، الذى هو  
أكبر من نعيم الجنات .

وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفة ، فانظر إلى المشتري من هو ؟ وهو  
الله جل جلاله .

وإلى العوض ، وهو أكبر الأعواض وأجلها ، جنات النعيم .  
وإلى الثمن المبذول فيها ، وهو : النفس ، والمال ، الذى هو أحب الأشياء  
للإنسان .

وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبائع ، وهو أشرف الرسل .  
وبأى الكتب رقم ، فى كتب الله الكبار المنزلة ، على أفضل الخلق .

الْعَابِدُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّاجِدُونَ الرَّكِعُونَ  
السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ

\* كأنه قيل : من هم المؤمنون ، الذين لهم البشارة من الله ، بدخول  
الجنات ، ونيل الكرامات ؟

فقال : هم [ التائبون ] أي : الملازمون للتوبة في جميع الأوقات ،  
عن جميع السيئات .

[ العابدون ] أي : المتصفون بالعبودية لله ، والاستمرار على طاعته ،  
من أداء الواجبات والمستحبات ، في كل وقت ، فذلك يكون العبد  
من العابدين .

[ الحامدون ] لله في السراء والضراء ، واليسر والعسر ، المعترفون بما  
لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة ، المثنون على الله بذكرها وبذكره ،  
في آناء الليل ، وآناء النهار .

[ السائحون ] فسرت السياحة ، بالصيام ، أو السياحة في طلب العلم .  
وفسرت بسياحة القلب ، في معرفة الله ومحبته ، والإنابة إليه على  
الدوام .

والصحيح أن المراد بالسياحة : السفر في القربات ، كالحج ، والعمرة ،  
والجهاد ، وطلب العلم ، وصلة الأقارب ، ونحو ذلك .

[ الراكعون الساجدون ] أي : المكثرون من الصلاة ، المشتلة  
على الركوع والسجود .

[ الآمرون بالمعروف ] ويدخل فيه ، جميع الواجبات والمستحبات .

[ والناهون عن المنكر ] وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه .

لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ  
وَلَوْ كَانُوا أَهْلِ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ

---

[والحافظون لحدود الله] بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله ،  
وما يدخل في الأوامر ، والنواهي ، والأحكام ، وما لا يدخل ، الملازمون  
لها فعلا وتركاً .

[وبشر المؤمنين] لم يذكر ما يبشر لهم به ، ليعم جميع مراتب على الإيمان ،  
من ثواب الدنيا ، والدين والآخرة .

فالبشارة متناولة لكل مؤمن .

وأما مقدارها وصفتها ، فإنها ، بحسب حال المؤمنين ، وإيمانهم ، قوة ،  
وضعفاً ، وعملاً بمقتضاه .

\* يعنى : ما يليق ولا يحسن بالنبي والمؤمنين به [أن يستغفروا للمشركين] .  
أى : لمن كفر به ، وعبد معه غيره [ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين  
لهم أنهم أصحاب الجحيم] .

فإن الاستغفار لهم في هذه الحال ، غلط غير مفيد ، فلا يليق بالنبي  
والمؤمنين .

لأنهم إذا ماتوا على الشرك ، أو علم أنهم يموتون عليه ، فقد حقت  
عليهم كلمة العذاب ، ووجب عليهم الخلود في النار ، ولم تنفع فيهم شفاعة  
الشافعين ، ولا استغفار المستغفرين .

أَجْحِمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ أَسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ  
وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ  
لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

وأيضاً فإن النبي ، والذين آمنوا معه ، عليهم أن يوافقوا ربهم ،  
في رضاه ، وغضبه ، ويوالوا من والاه الله ، ويعادوا من عاداه الله .  
والاستغفار منهم ، لمن تبين أنه من أصحاب النار ، مناف لذلك ،  
مناقض له .

ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن ، إبراهيم عليه السلام ، لأبيه  
فإنه [ عن موعدة وعدها إياه ] في قوله « لأستغفرون لك ربى إنه كان بى  
حنفا » وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه .

فلما تبين لإبراهيم ، أن أباه عدو لله ، سيموت على الكفر ، ولم ينفع  
فيه الوعظ والتذكير [ تبرأ منه ] موافقة لربه وتأديباً معه .

[ إن إبراهيم لأواه ] أى : رجأع إلى الله فى جميع الأمور ، كثير  
الذكر ، والدعاء ، والاستغفار ، والإنابة إلى ربه .

[ حلیم ] أى : ذو رحمة بالخلق ، وصفح عما يصدر منهم إليه ، من  
الزلات ، لا يستفزه جهل الجاهلين ، ولا يقابل الجانى عماه بجرمه .

فأبوه قال له : « لأرجنك » وهو يقول له « سلام عليك ، سأستغفر  
لك ربى » .

فمايكم أن تقتدوا به ، وتتبعوا ملة إبراهيم فى كل شىء « إلا قول  
إبراهيم لأبيه لأستغفرون لك » كما نهىكم الله عليها ، وعلى غيرها .

ولهذا قال : ( وما كان الله ليضل قوما ) إلى ( ولا نصير ) .

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

\* يعنى أن الله تعالى ، إذا منَّ على قوم بالهداية ، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم ، فإنه تعالى ، يقيم عليهم إحسانه ، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه ، وتدعو إليه ضرورتهم ، فلا يتركهم ضالين ، جاهلين بأمور دينهم .  
ففى هذا ، دليل على كمال رحمته ، وأن شريعته وافية ، بجميع ما يحتاجه العباد ، فى أصول الدين وفروعه .

ويمحتمل أن المراد بذلك [ وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ] فإذا بين لهم ما يتقون ، فلم ينقادوا له ، عاقبهم بالإضلال . جزاء لهم ، على ردهم الحق المبين . والأول ، أولى .  
[ إن الله بكل شيء عليم ] فلكمال علمه وعمومه ، علمكم ما لم تكونوا تعلمون ، ويبين لكم ما به تنتفعون .

\* [ إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت ] أى : هو المالك لذلك ، المدبر لعباده ، بالإحياء والإماتة ، وأنواع التدابير الإلهية .  
فإذا كان لا يخجل بتدبيره القدرى ، فكيف يخجل بتدبيره الدينى ، المتعلق بإلهيته ، ويترك عباده سدى مهمالين ، أو يدعهم ضالين جاهلين ، وهو أعظم توليه لعباده ؟ !! .

فلهذا قال : [ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ] أى : ولي يتولاكم ، يجلب المنافع لكم ، أو [ نصير ] يدفع عنكم المضار .

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ

\* يخبر تعالى ، أنه من لطفه وإحسانه [ تاب على النبي ] محمد صلى الله عليه وسلم ، [ والمهاجرين والأنصار ] فففر لهم الزلات ، ووفر لهم الحسنات ، ورقاهم إلى أعلى الدرجات ، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات ، ولهذا قال :

[ الذين اتبعوه في ساعة العسرة ] أى : خرجوا معه لقتال الأعداء ، في غزوة « تبوك » وكانت في حر شديد ، وضيق من الزاد والركوب ، وكثرة عدد مما يدعو إلى التخلف .

فاستعانوا الله تعالى ، وقاموا بذلك [ من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ] أى : تنقلب قلوبهم ، ويميلوا إلى الدعة والسكون ، ولكن الله ثبتهم ، وأيدهم وقوام .

وزَيَّغُ القلب ، هو : انحرافه عن الصراط المستقيم .  
فإن كان الانحراف فى أصل الدين ، كان كفراً .

وإن كان فى شرائعه ، كان بحسب تلك الشريعة ، التى زاغ عنها .  
إما قصر عن فعلها ، أو فعلها على غير الوجه الشرعى .

وقوله [ ثم تاب عليهم ] أى : قبل توبتهم [ إنه بهم رءوف رحيم ] .  
ومن رأفته ورحمته ، أن مَنَّ عليهم بالتوبة ، وقبلها منهم ، وثبتهم عليها .  
[ و ] كذلك لقد تاب [ على الثلاثة الذين خلفوا ] عن الخروج مع

خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ  
أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ  
لِيتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

المسلمين ، في تلك الغزوة ، وهم « كعب بن مالك » وصاحباها ، وقصتهم مشهورة معروفة ، في الصحاح والسنن .

[ حتى إذا ] حزنوا حزناً عظيماً ، و [ ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ] أى : على سعتها ورحبتها [ وضافت عليهم أنفسهم ] التى هى أحب إليهم من كل شئ .

فضاقت عليهم الفضاء الواسع ، والمحجوب الذى لم تجر العادة بالضيق منهم . وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج ، بلغ من الشدة والمشقة ، ما لا يمكن التعبير عنه .

وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شئ .

[ وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ] أى : يثقون ، وعرفوا بحالهم ، أنه لا ينجى من الشدائد ، ويلجأ إليه ، إلا الله وحده لا شريك له .

فانقطع تعلقهم بالخلقين ، وتعلقوا بالله ربهم ، وفروا منه إليه .

فكشوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة .

[ ثم تاب عليهم ] أى أذن فى توبتهم ، ووقفهم لها [ ليتوبوا ] لتنع منهم ، فيتوب الله عليهم .

[ إن الله هو التواب ] أى : كثير التوبة والعفو ، والغفران عن الزلات والنقصان .

[ الرحيم ] وصفه الرحمة العظيمة ، التي لا تزال تنزل على العباد ، في كل وقت وحين ، في جميع اللحظات ، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية .

وفي هذه الآيات ، دليل على أن توبة الله على العبد ، أجل الغايات ، وأعلى النهايات ، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده ، وامتَنَّ عليهم بها ، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها :

ومنها : لطف الله بهم ، وثببتهم في إيمانهم ، عند الشدائد ، والنوازل المزعجة .

ومنها : أن العبادة الشاقة على النفس ، لها فضل ومزية ، ليست لغيرها . وكلما عظمت المشقة ، عظم الأجر .

ومنها : أن توبة الله على عبده ، بحسب ندمه وأسفه الشديد . وأن من لا يبالي بالذنوب ، ولا يخرج إذا فعله ، فإن توبته مدخولة ، وإن زعم أنها مقبولة .

ومنها : أن علامة الخير وزوال الشدة ، إذا تعلق القلب بالله تعالى ، تعلقاً تاماً ، وانقطع عن المخلوقين .

ومنها : أن من لطف الله بالثلاثة ، أن وسمهم بوسم ، ليس بعار عليهم فقال :

[ خلفوا ] إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم ، أو خلفوا عن من بُثَّ في قبول عذرهم ، أو في رده ، وأنهم لم يكن تخلفهم ، رغبة عن الخير ، ولهذا لم يقل « تخلفوا » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ

الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

ومنها : أن الله تعالى ، من عليهم بالصدق ، ولهذا أمر بالاعتداء بهم فقال : ( يا أيها الذين آمنوا ) الآية .

\* أى : [ يا أيها الذين آمنوا ] بالله ، وبما أمر الله بالإيمان به ، قوموا بما يقتضيه الإيمان ، وهو القيام بتقوى الله ، باجتناب ما نهى الله عنه ، والبعد عنه .

[ وكونوا مع الصادقين ] فى أقوالهم ، وأفعالهم ، وأحوالهم ، الذين أقوالهم صدق .

وأعمالهم ، وأحوالهم ، لا تكون إلا صدقاً خالية من الكسل والفتور ، سالمة من المقاصد السيئة ، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة ، فإن الصدق ، يهذى إلى البر ، وإن البر ، يهذى إلى الجنة .

قال تعالى : « هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » الآية .

﴿وَمَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ  
أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ  
بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

\* يقول تعالى — حاثا لأهل المدينة المنورة ، من المهاجرين ، والأنصار ،  
ومن حولها من الأعراب ، الذين أسلموا ، فحسن إسلامهم :

[ ما كان لأهل المدينة ، ومن حولهم من الأعراب ، أن يتخلفوا عن  
رسول الله ] .

أى : ما ينبغي لهم ذلك ، ولا يليق بأحوالهم .

[ ولا يرغبوا بأنفسهم ] فى بقائها وراحتها ، وسكونها [ عن نفسه ]  
الكرامة الزكية .

بل النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم .

فعلى كل مسلم ، أن يفدى النبي صلى الله عليه وسلم ، بنفسه ،  
ويقدمه عليها .

فعلامه تعظيم الرسول ، ومحبته ، والإيمان التام به ، أن  
لا يتخلفوا عنه .

ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج فقال :

[ ذلك بأنهم ] أى : المجاهدين فى سبيل الله [ لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ]  
أى : تعب ومشقة [ ولا مخمصة فى سبيل الله ] أى : مجاعة .

وَلَا يَطَوِّنَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا  
كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾  
وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ  
لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

[ ولا يطأون موطننا يغيط الكفار ] من الخوض لديارهم ، والاستيلاء  
على أوطانهم .

[ ولا ينالون من عدو نيلا ] كالظفر بجيش ، أو سرية ، أو  
الغنيمة لمال .

[ إلا كتب لهم به عمل صالح ] لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم .  
[ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ] الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر  
الله ، وقيامهم بما عليهم من حقه ، وحق خلقه .  
فهذه الأعمال ، آثار من آثار عملهم .

ثم قال : [ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً ]  
في ذهابهم إلى عدوهم [ إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا  
يعملون ] .

ومن ذلك ، هذه الأعمال ، إذا أخلصوا فيها الله ، ونصحوا فيها .  
ففي هذه الآيات ، أشد ترغيب ، وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى  
الجهاد في سبيل الله ، والاحتساب لما يصيبهم فيه ، من المشقات ، وأن  
ذلك ، لهم رفعة درجات ، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له ، فيها  
أجر كبير .

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١٢٢)

\* يقول تعالى — منها لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم : —

[ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ] أى : جميعاً لقتال عدوهم .

فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك ، ويفوت به كثير ، من المصالح الأخرى .

[ فلولا نفر كل فرقة منهم ] أى : من البلدان ، والقبائل ، والأخاذه [ طائفة ] تحصل بها الكفاية والمقصود ، لكان أولى .

ثم نبه على أن فى إقامة المقيمين منهم ، وعدم خروجهم ، مصالح ، لو خرجوا ، لقاتلهم .

فقال : [ ليتفقها ] أى : القاعدون [ فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ] أى . ليتعلموا العلم الشرعى ، ويعلموا معانيه ، ويفقهوا أسرارها ، ويعلموا غيرهم ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم .

ففى هذا فضيلة العلم ، وخصوصاً الفقه فى الدين ، وأنه أهم الأمور . وأن من تعلم علماً ، فعليه نشره وبثه فى العباد ، ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم ، من بركته وأجره ، الذى بنى .

وأما اقتصار العالم على نفسه ، وعدم دعوته إلى سبيل الله ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، وترك تعليم الجاهل مالا يعلمون ، فأى منعة حصلت للمسلمين منه ؟ وأى نتيجة ، نتجت من علمه ؟

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قِيلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ  
مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ  
الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

وغايته أن يموت ، فيموت علمه وثمرته .  
وهذا غاية الحرمان ، لمن آتاه الله علماً ، ومنحه فهماً .  
وفي هذه الآية أيضاً دليل ، وإرشاد ، وتنبيه لطيف ، لفائدة مهمة .  
وهي : أن المسلمين ينبغي لهم ، أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم  
العامّة ، من يقوم بها ، ويوفر وقته عليها ، ويبتهد فيها ، ولا يلتفت إلى  
غيرها ، لتقوم مصالحهم ، وتتم منافعهم ، ولتكون وجهة جميعهم ، ونهاية  
ما يقصدون ، قصداً واحداً ، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم .  
ولو تفرقت الطرق ، وتعددت المشارب ، فالأعمال متباينة ،  
والقصد واحد .

وهذه من الحكمة العامة النافعة ، في جميع الأمور .  
\* وهذا أيضاً إرشاد آخر ، بعدما أرشدكم إلى التدبير فيمن يباشر  
القتال ، أرشدكم إلى أنهم يبدأون بالأقرب فالأقرب من الكفار ، والنخلة  
عليهم ، والشدة في القتال ، والشجاعة والثبات .  
[ واعلموا أن الله مع المتقين ] أى : وليكن لديكم علم ، أن المعونة  
من الله ، تنزل بحسب التقوى ، فلازموا على تقوى الله ، يُعِزِّكُمْ وينصركم  
على عدوكم .

وهذا العموم في قوله [ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ] مخصوص  
بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا ، وأنواع المصالح كثيرة جداً .

وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْكُم زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا

\* يقول تعالى — مبينا حال المنافقين ، وحال المؤمنين عند نزول القرآن ، وتفاوت ما بين الفريقين ، فقال : [ وإذا ما أنزلت سورة ] فيها الأمر ، والنهى ، والخبر عن نفسه الكريمة ، وعن الأمور الغائبة ، والحث على الجهاد .

[ فمنهم من يقول أياكم زادته هذه إيمانا ] أى : حصل الاستفهام ، لمن حصل له الإيمان بها ، من الطائفتين .

قال تعالى — مبينا الحال الواقعة — : [ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً ] بالعلم بها ، وفهمها ، واعتقادها ، والعمل بها ، والرغبة فى فعل الخير ، والانكفاف عن فعل الشر .

[ وهم يستبشرون ] أى : يبشر بعضهم بعضاً ، بما منَّ الله عليهم من آياته ، والتوفيق لفهمها والعمل بها .

وهذا دال على انشراح صدورهم لآيات الله ، وطمأنينة قلوبهم ، وسرعة انقيادهم ، لما تحثهم عليه .

[ وأما الذين فى قلوبهم مرض ] أى : شك ونفاق [ فزادتهم رجسا إلى رجسهم ] أى : مرضاً إلى مرضهم ، وشكاً إلى شكهم ، من حيث إنهم كفروا بها ، وعاندوها ، وأعرضوا عنها ، فازدادوا لذلك مرضهم ، وترامى بهم إلى الهلاك [ و ] الطبع على قلوبهم ، حتى [ ماتوا وهم كافرون ] .

وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوْ لَا يَرْوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً  
أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾

وهذا عقوبة لهم ، لأنهم كفروا بآيات الله ، وعصوا رسوله ، فأعقبهم  
نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه  
قال تعالى — موبخا لهم ، على إقامتهم على ما هم عليه ، من الكفر  
والنفاق .

[ أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ] بما يصيبهم من  
البلايا والأمراض ، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية ، التي يراد بها  
اختبارهم .

[ ثم لا يتوبون ] عما هم عليه من الشر [ ولا هم يذكرون ] ما ينفعهم ،  
فيفعلونه ، وما يضرهم ، فيتركونه .

فإن الله تعالى ، يتلهم — كما هي سنته في سائر الأمم — بالسراء والضراء  
وبالأوامر والنواهي ، ليرجعوا إليه ، ثم لا يتوبون ، ولا هم يذكرون .

وفي هذه الآيات ، دليل على أن الإيمان يزيد وينقص ، وأنه ينبغي  
للمؤمن ، أن يتفقد إيمانه ويتعاهده ، فيجده وينمي ، ليكون —  
دائما — في صعود .

وقوله : [ وإذا ما أنزلت سورة ] إلى [ لا يفقهون ] .

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٧)

\* معنى : أن المنافقين ، الذين يحذرون أن تنزل عليهم سورة ، تنبئهم بما في قلوبهم .

[ إذا ما أنزلت سورة ] ليؤمنوا بها ، ويعملوا بمضمونها .

[ نظر بعضهم إلى بعض ] جازمين على ترك العمل بها ، ينتظرون الفرصة ، في الاختفاء عن أعين المؤمنين ، ويقولون :

[ هل يراكم من أحد ثم انصرفوا ] متسللين ، وانقلبوا معرضين ، فجازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم .

فكما انصرفوا عن العمل [ صرف الله قلوبهم ] أى : صدها عن الحق وخذلها .

[ بأنهم قوم لا يفقهون ] فقها ينفعهم ، فإنهم لو فقهوا ، لكانوا — إذا نزلت سورة — آمنوا بها ، وانقادوا لأمرها .

والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره ، من شرائع الإيمان ، كما قال تعالى عنهم :

« فإذا أنزلت سورة محكمة ، وذكر فيها القتال ، رأيت الذين في قلوبهم مرض ، ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت » .

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ  
حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ  
حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ

\* يمتن تعالى ، على عباده المؤمنين ، بما بعث فيهم النبي الأمي ، الذي من أنفسهم ، يعرفون حاله ، ويتمكنون من الأخذ عنه ، ولا يأنفون عن الاتقياد له .

وهو صلى الله عليه وسلم في غاية النصح لهم ، والسعى في مصالحهم .

[ عزيز عليه ما عنتم ] أى : يشق عليه الأمر ، الذى يشق عليكم ويعنتكم .

[ حريص عليكم ] فيحب لكم الخير ، ويسعى جهده ، فى إيصاله إليكم ، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان ، ويكره لكم الشر ، ويسعى جهده ، فى تنفيركم عنه .

[ بالمؤمنين رءوف رحيم ] أى : شديد الرأفة والرحمة بهم ، أرحم بهم من والديهم .

ولهذا كن حقه مقدما على سائر حقوق الخلق ، وواجب على الأمة الإيمان به ، وتعظيمه ، وتوقيره ، وتعزيزه .

[ فإن ] آمنوا ، فذلك حظهم وتوفيقهم ، وإن [ تولوا ] عن الإيمان والعمل ، فامض على سبيلك ، ولا تنزل فى دعوتك ، وقل :

[ حسبي الله ] أى : الله يكفينى ، جميع ما أهنى .

[ لا إله إلا هو ] أى : لا معبود بحق ، سواه .

## الْعَظِيمُ ﴿١٢٩﴾

[ عليه توكلت ] أى : اعتمدت ، ووثقت به ، فى جلب ما ينفع ،  
ودفع ما يضر .

[ وهو رب العرش العظيم ] الذى هو أعظم المخلوقات .  
وإذا كان رب العرش العظيم ، الذى وسع المخلوقات ، كان رباً لما  
دونه ، عن باب أولى ، وأخرى .

تم تفسير سورة التوبة بعون الله ومنه  
فله الحمد ، أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً

تفسير

# سُورَةُ يُونسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَكُتُبْ لَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (١)  
أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ  
وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ

\* يقول تعالى [الر ، تلك آيات الكتاب الحكيم] وهو هذا القرآن ،  
المشتمل على الحكمة والأحكام ، الدالة آياته على الحقائق الإيمانية ،  
والأوامر والنواهي الشرعية ، الذى على جميع الأمة تلقيه بالرضا والقبول  
والإقياد .

ومع هذا ، فأعرض أكثرهم ، فهم لا يعلمون ، فتعجبوا [ أن أوحينا  
إلى رجل منهم : أن أنذر الناس ] عذاب الله ، وخوفهم نعم الله ، وذكرهم  
بآيات الله .

[ وبشر الذين آمنوا ] إيماننا صادقا [ أن لهم قدم صدق عند ربهم ]  
أى : لهم جزاء موفور ، وثواب مذكور عند ربهم ، بما قدموه ، وأسلفوه  
من الأعمال الصالحة الصادقة .

قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾

---

فتعجب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجبا ، حملهم على الكفر به .

[ قال الكافرون ] عنه : [ إن هذا ساحر مبين ] أي : بَيِّنُ السحر ، لا يخفى — بزعمهم — على أحد ، وهذا من سفههم وعنادهم .

فإنهم تعجبوا من أمر ، ليس مما يتعجب منه ، ويستغرب .

وإنما يتعجب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم .

كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم ، الذي بعثه الله من أنفسهم ، يعرفونه حق المعرفة ، فردوا دعوته ، وحرصوا على إبطال دينه ، والله متم نوره ، ولو كره الكافرون .

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ  
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ

\* يقول تعالى — مبينا لربوبيته ، وإلهيته ، وعظمته : —

[ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ] مع أنه  
قادر على خلقها فى لحظة واحدة .

ولكن لما له فى ذلك من الحكمة الإلهية ، ولأنه رفيق فى أفعاله .  
ومن جملة حكمته فيها ، أنه خلقها بالحق وللحق ، ليعرف بأسمائه وصفاته  
 ويفرد بالعبادة .

[ ثم ] بعد خلق السموات والأرض [ استوى على العرش ] استواء  
يليق بعظمته .

[ يدبر الأمر ] فى العالم العلوى ، والسفلى ، من الإماتة والإحياء ،  
وإنزال الأرزاق ، ومداولة الأيام بين الناس ، وكشف الضر عن  
المضطرين ، وإجابة سؤال السائلين .

فأنواع التدابير ، نازلة منه ، وصاعدة إليه ، وجميع الخلق ، مدعون  
لعزته ، خاضعون لعظمته وسلطانه .

[ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ] فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة ،  
ولو كان أفضل الخلق ، حتى يأذن الله .

ولا يأذن ، إلا لمن ارتضى ، ولا يرتضى إلا أهل الإخلاص  
والتوحيد له .

إِلَّا مَنِ بَعْدَ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾  
إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ

[ ذلکم ] الذى هذا شأنه [ الله ربکم ] أى : هو الله الذى له وصف  
الإلهية الجامعة لصفات الكمال ، ووصف الربوبية ، الجامع لصفات الأفعال .  
[ فاعبدوه ] أى : أفردوه بجميع ما تقدرُونَ عليه من أنواع العبودية .  
[ أفلا تذکرون ] الأدلة الدالة ، على أنه وحده ، المعبود المحمود ،  
ذو الجلال والإكرام .

فلما ذكر حكمه القدرى ، وهو التدبير العام ، وحكمه الدينى ، وهو  
شرعه ، الذى مضمونه ومقصوده ، عبادته وحده لا شريك له ، ذكر الحكم  
الجزئى ، وهو : مجازاته على الأعمال بعد الموت ، فقال :

[ إليه مرجعکم جميعا ] أى : سيجمعکم بعد موتکم ، لميقات  
يوم معلوم .

[ وعد الله حقاً ] أى : وعده صادق ، لا بد من إتمامه [ إنه يبدأ  
الخلق ثم يعيده ] .

فالتقادر على ابتداء الخلق ، قادر على إعاداته .

والذى يرى ابتداءه بالخلق ، ثم ينكر إعاداته للخلق ، فهو فاقد العقل ،  
منكر لأحد الثانين ، مع إثبات ما هو أولى منه ، فهذا دليل عقلى واضح ،  
على المعاد .

ثم ذكر الدليل النقلى فقال : [ ليجزى الذين آمنوا ] بتلوهم بما أسرم  
الله بالإيمان به .

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ  
شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

---

[وعملوا الصالحات] بجوارحهم ، من واجبات ، ومستحبات .

[بالقسط] أى : بإيمانهم وأعمالهم ، جزاء قد بينه لعباده ، وأخبر أنه  
لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين .

[والذين كفروا] بآيات الله ، وكذبوا رسل الله .

[لهم شراب من حميم] أى : ماء حار ، يشوى الوجوه ، ويقطع  
الأمعاء .

[وعذاب أليم] من سائر أصناف العذاب [بما كانوا يكفرون] .

أى : بسبب كفرهم وظلمهم ، وما ظلمهم الله ، ولكن أنفسهم  
يظلمون .

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ  
مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنِ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا

\* لما قرر ربوبيته وإلهيته ، ذكر الأدلة العقلية الأفقية ، الدالة على ذلك وعلى كماله ، فى أسمائه وصفاته ، من الشمس والقمر ، والسموات والأرض وجميع ما خلق فيهما ، من سائر أصناف المخلوقات ، وأخبر أنها آيات [لقوم يعلمون] و [لقوم يتقون] .

فإن العلم ، يهـدى إلى معرفة الدلالة فيها ، وكيفية استنباط الدلائل ، على أقرب وجه .

والتقوى ، تحدث فى القلب ، الرغبة فى الخير ، والرغبة من الشر ، الناشئين عن الأدلة والبراهين ؛ وعن العلم واليقين .

وحاصل ذلك ، أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة ، دال على كمال قدرة الله تعالى ، وعلمه ، وحياته ، وقيوميته .

وما فيها من الأحكام ، والإتقان ، والإبداع والحسن ، دال على كمال حكمة الله ، وحسن خلقه ، وسعة علمه .

وما فيها ، من أنواع المنافع والمصالح — كجعل الشمس ضياءً ، والقمر نوراً ، يحصل بهما من النفع الضرورى وغيره مما يحصل — يدل ذلك على رحمة الله تعالى ، واعتنائه بعباده ، وسعة بره ، وإحسانه .

وما فيها من التخصيصات ، دال على مشيئة الله ، وإرادته النافذة .

وذلك دال على أنه وحده ، المعبود ، والمحجوب الحمود ، ذو الجلال والإكرام ، والأوصاف العظام ، الذى لا تنبغى الرغبة والرغبة ، إلا إليه ،

بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ  
وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ  
يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

---

ولا يصرف خالص الدعاء، إلأله ، لا لغيره ، من المخلوقات المربوبات ،  
المفتقرات إلى الله ، في جميع شئونها .

وفي هذه الآيات : الحث والترغيب ، على التفكير في مخلوقات الله ،  
والنظر فيها ، بعين الاعتبار .

فإن بذلك تنفسح البصيرة ، ويزداد الإيمان والعقل ، وتقوى  
القريحة .

وفي إهمال ذلك ، تهاون بما أمر الله به ، وإغلاق لزيادة الإيمان ،  
وجود للذهن والقريحة .

﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
وَاطْمَأْنَوْا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ

\* يقول تعالى [إن الذين لا يرجون لقاءنا] أى : لا يطمعون بلقاء الله ،  
الذى هو أكبر ما طمع فيه الطامعون ؛ وأعلى ما أمله المؤمنون .  
بل أعرضوا عن ذلك ، وربما كذبوا به [ورضوا بالحياة الدنيا]  
بدلاً عن الآخرة .

[ واطمأنوا بها ] أى : ركنوا إليها ، وجعلوها غاية أمرهم ،  
ونهاية قصدهم .

فسمعوها ، وأكبوا على لذاتها وشهواتها ، بأى طريق حصلت ،  
حصولها ، ومن أى وجه لاحت ، ابتدروها .

قد صرفوا إرادتهم ونياتهم ، وأفكارهم ، وأعمالهم ، إليها .  
فكانهم خلقوا للبقاء فيها ، وكأنها ليست بدار ممر ، يتزود فيها  
المسافرون ، إلى الدار الباقية التى ، إليها ، يرحل الأولون والآخرون ،  
وإلى نعيمها ولذاتها ، شمر الموقنون .

[ والذين هم عن آياتنا غافلون ] فلا ينتفعون بالآيات القرآنية ، ولا بالآيات  
الأفقية والنفسية .

والإعراض عن الدليل ، مستلزم للإعراض والغفلة ، عن المدلول  
المقصود .

[ أولئك ] الذين هذا وصفهم [ ماوهم النار ] أى : مقررهم ومسكنهم ،  
التي لا يرحلون عنها .

النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ  
بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعَوْهُمْ

[ بما كانوا يكسبون ] من الكفر والشرك ، وأنواع المعاصي .

فلما ذكر عقابهم ، ذكر ثواب المطيعين فقال : [ إن الذين آمنوا ]  
إلى [ أن الحمد لله رب العالمين ] .

\* يقول تعالى [ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ] أى : جمعوا بين  
الإيمان ، والقيام بموجبه ومقتضاه ، من الأعمال الصالحة ، المشتلة على  
أعمال القلوب ، وأعمال الجوارح ، على وجه الإخلاص والمتابعة .

[ يهديهم ربهم بإيمانهم ] أى : بسبب ما معهم من الإيمان ، يتيهم  
الله أعظم الثواب ، وهو : الهداية .

فيعلمهم ما ينفعهم ، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية ، ويهديهم  
للنظر في آياته ، ويهديهم في هذه الدار ، إلى الصراط المستقيم ، وفي دار  
الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم . ولهذا قال :

[ تجرى من تحتهم الأنهار ] الجارية على الدوام [ في جنات النعيم ] .

أضافها الله إلى النعيم ، لاشتمالها على النعيم التام .

نعيم القلب بالفرح والسرور ، والبهجة والحبور ، ورؤية الرحمن ، وسماع  
كلامه ، والاغتياب برضاه وقربه ، ولقاء الأحبة والإخوان ، والتمتع

فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّاتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ  
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

بالاجتماع بهم ، وسماع الأصوات المطربات ، والنغمات المشجيات ، والمناظر  
المفرحات .

ونعيم البدن بأنواع المآكل ، والمشارب ، والمناكح ، ونحو  
ذلك ، مما لا تعلمه النفوس ، ولا خطر ببال أحد ، أو قدر أن يصفه  
الواصفون .

[ دعواهم فيها سبحانك اللهم ] أى عبادتهم فيها لله ، أولها تسبيح  
الله وتنزيهه له عن النقائص ، وآخرها ، تحميد الله ، فالتكاليف سقطت عنهم  
فى دار الجزاء .

وإنما بقى لهم ، أكمل اللذات ، الذى هو أ لذ عليهم ، من  
المآكل اللذيذة .

ألا وهو : ذكر الله الذى تطمئن به القلوب ، وتفرح به الأرواح .  
وهو لهم بمنزلة النفس ، من دون كلفة ومشقة .

[ و ] أما [ تحيتهم فيها ] فيما بينهم عند التلاقى والتزاور ، فهو السلام ،  
أى : كلام سالم من اللغو والإثم ، موصوف بأنه [ سلام ] .

وقد قيل فى تفسير قوله [ دعواهم فيها سبحانك ] إلى آخر الآية .

أن أهل الجنة — إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوها — قالوا  
سبحانك اللهم ، فأحضر لهم فى الحال .

[ و آخر دعواهم ] إذا فرغوا [ أن الحمد لله رب العالمين ] .

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ  
لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَانْذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ  
يَعْمَهُونَ ﴾ (١١)

\* وهذا من لطفه وإحسانه بعباده ، أنه لو عجل لهم الشر ، إذا أتوا  
بأسبابه ، وبأدرهم بالعقوبة على ذلك ، كما يعجل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه  
[ لقضى إليهم أجلهم ] أى لمحتهم العقوبة .

ولكنه تعالى ، يمهّلهم ، ولا يهملهم ، ويعفو عن كثير من حقوقه .  
فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ، ما ترك على ظهرها من دابة .  
ويدخل فى هذا ، أن العبد إذا غضب على أولاده ، أو أهله ، أو ماله ،  
ربما دعا عليهم دعوة ، لو قبلت منه ، لهلكوا ، ولأضره ذلك غاية الضرر ،  
ولكنه تعالى ، حلیم حكيم .

وقوله : [ فانذر الذين لا يرجون لقاءنا ] أى : لا يؤمنون بالآخرة ،  
فلذلك لا يستعدون لها ، ولا يعلمون ما ينجيهم من عذاب الله .

[ فى طغيانهم ] أى : باطلهم ، الذى جاوزوا به الحق والحد .

[ يعمهون ] يترددون حائرين ، لا يهتدون السبيل ، ولا يوقفون  
لأقوم دليل .

وذلك عقوبة لهم على ظلمهم ، وكفرهم بآيات الله .

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانُ الضُّرَّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا  
أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ  
كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

\* وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان ، من حيث هو ، وأنه إذا مسه ضر ،  
من مرض ، أو مصيبة ، اجتهد في الدعاء ، وسأل الله في جميع أحواله ،  
قائماً ، وقاعداً ، ومضطجعاً ، وألح في الدعاء ، ليكشف الله عنه ضره .

[ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ] أى : استمر في  
غفلته ، معرضاً عن ربه ، كأنه ما جاءه ضر ، فكشفه الله عنه .

فأى ظلم أعظم من هذا الظلم ؟ !! يطلب من الله قضاء غرضه .

فإذا أناله إياه ، لم ينظر إلى حق ربه ، وكأنه ليس عليه الله حق .

وهذا تزوين من الشيطان ، زين له ما كان مستهجنًا مستقبلاً في  
العقول والفطر .

[ كذلك زين للمسرفين ] أى : المتجاوزين للحد [ ما كانوا  
يعملون ] .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا  
وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي  
الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ  
بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

\* يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية ، بظلمهم وكفرهم ، بعد ما جاءتهم  
البيّنات ، على أيدي الرسل ، وتبين الحق ، فلم ينقادوا لها ، ولم  
يؤمنوا .

فأحل بهم عقابه ، الذي لا يرد عن كل مجرم ، متجرب على  
محارم الله .

وهذه سنته في جميع الأمم .

[ ثم جعلناكم ] أى : المخاطبين [ خلائف في الأرض من بعدهم ،  
لننظر كيف تعملون ] فإن أنتم اعتبرتم ، وانعظتم بمن قبلكم ، واتبعتم  
آيات الله ، وصدقتم رسله ، نجوتم في الدنيا والآخرة .

وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم ، أحل بكم ما أحل بهم ، ومن أنذر  
فقد أعذر .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَأَنْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ إِنِّي أَخَافُ إِنْ

\* يذكر تعالى ، تعنت المكذبين لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنهم إذا تلى عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق ، أعرضوا عنها ، وطلبوا وجوه التعنت فقالوا ، جراءة منهم وظلما :

[ انت بقرآن غير هذا أو بدله ] فقبحهم الله ، ما أجراهم على الله ، وأشدّهم ظلما ، وردا لآياته .

فإذا كان الرسول العظيم ، يأمره الله ، أن يقول لهم :

[ قل ما يكون لي ] أى ما ينبغي ، ولا يليق بي [ أن أبدله من تلقاء نفسى ] .

فإني رسول محض ، ليس لي من الأمر شيء .

[ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ] أى : ليس لي غير ذلك ، فإني عبد مأمور .

[ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ] .

فهذا قول خير الخلق ، وأدبه مع أوامره ووحيه .

فكيف بهؤلاء السفهاء الضالين ، الذين جمعوا بين الجهل والضلال ، والظلم والعناد ، والتعنت والتعجيز رب العالمين ، أفلا يخافون عذاب يوم عظيم ؟ !!! .

عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ  
عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ  
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ

فإن زعموا أن قصدهم ، أن يتبين لهم الحق بالآيات ، التي طلبوا ، فهم  
كذبة في ذلك .

فإن الله قد بين من الآيات ، ما يؤمن على مثله ، البشر .

وهو الذي يصرفها كيف يشاء ، تبعاً لحكمته الربانية ، ورحمته  
بعباده .

\* [ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمراً ]  
طويلاً [ من قبله ] أى : قبل تلاوته ، وقبل درايتكم به ، وأنا ما خطر على  
بالى ، ولا وقع فى ظنى .

[ أفلا تعقلون ] أنى ، حيث لم أتله فى مدة عمرى ، ولا صدر منى ،  
ما يدل على ذلك .

فكيف أتقوله بعد ذلك ، وقد لبثت فيكم عمراً طويلاً ، تعرفون حقيقة  
حالى ، بأنى أُمى ، لا أقرأ ، ولا أكتب ، ولا أدرس ، ولا أتعلم  
من أحد ؟ !!

فأنتيتكم بكتاب عظيم ، أعجز الفصحاء ، وأعيا العلماء .

فهل يمكن - مع هذا - أن يكون من تلقاء نفسى ، أم هذا دليل قاطع  
أنه تنزيل من حكيم حميد ؟

فلو أعلمت أفكاركم وعقولكم ، وتدبرتم حالى وحال هذا الكتاب ،

بَيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمَجْرُمُونَ ﴿١٧﴾

لجزمتكم جزماً لا يقبل الرب بصدقه ، وأنه الحق ، الذى ليس بعده ،  
إلا الضلال .

ولكن إذا أيتم إلا التكذيب والعناد ، فأتم لاشك أنكم  
ظالمون .

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو كذب بآياته » !! ؟  
فلو كنت مُتَقَوِّلاً ، لكنت أظلم الناس ، وفاتنى الفلاح ، ولم تخف  
عليكم حالى .

ولكنى جئتكم بآيات الله ، فكذبتم بها ، فتمين فيكم الظلم .  
ولا بد أن أمركم سيضمحل ، ولن تنالوا الفلاح ، مادتم كذلك .

ودل قوله [ قال الذين لا يرجون لقاءنا ] الآية ، أن الذى حملهم على  
هذا التعنت ، الذى صدر منهم ، هو عدم إيمانهم بلقاء الله ، وعدم رجائه ،  
وأن من آمن بلقاء الله ، فلا بد أن يتقاد لهذا الكتاب ، ويؤمن به ، لأنه  
حسن القصد .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ  
وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ  
أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ

\* يقول تعالى: [ويعبدون] أى: المشركون المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

[من دون الله] مالا يضرهم ولا ينفعهم [أى: إن معبوداتهم، لا تملك لهم مثقال ذرة، من النفع، ولا تدفع عنهم شيئا].

[ويقولون] قولا خاليا من البرهان:

[هؤلاء شفاعونا عند الله] أى: يعبدونهم، ليقربوهم إلى الله، ويشفعوا لهم عنده.

وهذا قول من تلقاء أنفسهم، وكلام، ابتكروه، هم.

ولهذا قال تعالى - مبطلا لهذا القول :-

[قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض].

أى: الله تعالى هو العالم، الذى أحاط علما بجميع ما فى السموات والأرض، وقد أخبركم، بأنه ليس له شريك ولا إله معه.

أفأنتم - يامعشر المشركين - تزعمون أنه يوجد له فيها شركاء؟

أفتخبرونه بأمر خفى عليه، وعلمتوه؟ أنتم أعلم أم الله؟

فهل يوجد قول أبطل من هذا القول، المتضمن أن هؤلاء الضلال

الجهال السفهاء، أعلم من رب العالمين؟

سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا

كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

فليكتف العاقل بمجرد تصور هذا القول ، فإنه يجزم بفساده وبطلانه .  
[ سبحانه وتعالى عما يشركون ] أى : تقدس وتنزه ، أن يكون له  
شريك أو نظير .

بل هو الله الأحد الفرد الصمد ، الذى لا إله ، فى السموات والأرض ،  
إلا هو .

وكل معبود فى العالم العلوى والسفلى سواه ، فإنه باطل عقلا ،  
وشرعا ، وفطرة .

» ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه ، هو الباطل ،  
وأن الله هو العلى الكبير » .

\* أى [ وما كان الناس إلا أمة واحدة ] متفقين على الدين الصحيح ،  
ولكنهم اختلفوا .

فبعث الله الرسل ، مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب ، ليحكم  
بين الناس فيما اختلفوا فيه .

[ ولولا كلمة سبقت من ربك ] بإمهال العاصين ، وعدم معاجلتهم  
بذنوبهم .

[ لقضى بينهم ] بأن ننجي المؤمنين ، ونهلك الكافرين المكذبين ،  
وصار هذا فارقا بينهم [ فيما فيه يختلفون ] .

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِيَّ  
فَأَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

ولكنه ، أراد امتحانهم ، وابتلاء بعضهم ببعض ، ليتبين الصادق  
من الكاذب .

\* [ ويقولون ] أى : المكذبون المتمتعون ، [ لولا أنزل عليه آية  
من ربه ] .

يعنون : آيات الاقتراح ، التى يعينونها ، كقولهم « ولولا أنزل إليه  
ملك فيكون معه نذيراً » الآيات .

وكقولهم « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً »  
الآيات ( ٩٠ إلى ٩٣ ) من سورة الإسراء .

[ فقل ] لهم إذا طلبوا منك آية [ إنما الغيب لله ] أى : هو المحيط  
علماً بأحوال العباد ، فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم ، وحكمته البديعة ،  
وليس لأحد تدبير فى حكم ولا دليل ، ولا غاية ، ولا تعليل .

[ فانتظروا إني معكم من المنتظرون ] أى : كل ينتظر بصاحبه ، ما هو  
أهل له ، فانظروا لمن تكون العاقبة .

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا  
لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ  
مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

\* يقول تعالى: [وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم] كالصحة  
بعد المرض ، والغنى بعد الفقر ، والأمن بعد الخوف ، نسوا ما أصابهم من  
الضراء ، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة ، بل استمروا في طغيانهم  
ومكرهم .

ولهذا قال : [إذا لهم مكر في آياتنا] أى يسعون بالباطل ، ليطلوا  
به الحق .

[قل الله أسرع مكرًا] فإن المكر السيء ، لا يحقق إلا بأهله .

فقصودهم منعكس عليهم ، ولم يسلموا من التبعة ، بل تكتب الملائكة  
عليهم ، ما يعملون ، ويحصيه الله ، ثم يجازيهم عليه أوفر الجزاء .

﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ

\* لما ذكر تعالى ، القاعدة العامة في أحوال الناس ، عند إصابة الرحمة لهم ، بعد الضراء ، واليسر بعد العسر ، ذكر حالة ، تؤيد ذلك ، وهى : حالهم في البحر ، عند اشتداده ، والخوف من عواقبه .

فقال : [ هو الذى يسيركم فى البر والبحر ] بما يسر لكم من الأسباب اليسرة لكم فيها ، وهذا كم إليها .

[ حتى إذا كنتم فى الفلك ] أى : السفن البحرية [ وجرين بهم بريح طيبة ] موافقة لما يهونونه ، من غير انزعاج ولا مشقة .  
[ وفرحوا بها ] واطمأنوا إليها .

فبينما هم كذلك ، [ إذ جاءتها ريح عاصف ] شديدة الهبوب [ وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم ] أى : عرفوا أنه الهلاك .  
فانقطع حينئذ ، تعلقهم بالخلقين ، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده .

وحينئذ [ دعوا الله مخلصين له الدين ] ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام .

فقالوا : [ لئن أنجيتنا من هذه ، لنكونن من الشاكرين ] \* فلما أنجاهم

الشَّكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَتَجِبْتُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ  
يَسْأَلُهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ  
إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

إذا هم يبتغون في الأرض بغير الحق [ أى نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء ،  
وما ألزموه أنفسهم ، فأشركوا بالله ، من اعترفوا بأنه لا ينجيهم من  
الشدائد ، ولا يدفع عنهم المضايق .

فهلأ أخلصوا لله العباداة في الرخاء ، كما أخلصوها في الشدة !!؟ .

ولكن هذا البغى ، يعود وباله عليهم ، ولهذا قال :

[ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ] أى : غاية  
ما تؤملون ببغيكم ، وشروءكم عن الإخلاص لله ، أن تناولوا شيئاً من حطام  
الدنيا وجاهاها ، النزر اليسير ، الذى سينقضى سريعاً ، ويمضى جميعاً ، ثم  
تنتقلون عنه بالرغم .

[ ثم إلينا مرجعكم ] فى يوم القيامة [ فننبئكم بما كنتم تعملون ] وفى هذا  
غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم .

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ  
فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى  
إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَيَّنَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ

\* وهذا المثل من أحسن الأمثلة ، وهو مطابق لحالة الدنيا .

فإن لذاتها ، وشهواتها ، وجاهها ، ونحو ذلك ، يزهو لصاحبه ، إن زها وقتاً قصيراً .

فإذا استكمل وتم ، اضمحل ، وزال عن صاحبه ، أو زال صاحبه عنه .

فأصبح صفر اليدين منها ، ممتلىء القلب من همها وحزنها وحسرتها .

فذلك [ كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ] أى : نبت فيها من كل صنف ، وزوج بهيج [ مما يأكل الناس ] كالحبوب والثمار [ و ] مما تأكل [ الأنعام ] كأشجار العشب ، والكلاب المختلفة الأصناف .

[ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ] أى : تزخرفت في منظرها ، واكتست في زينتها ، فصارت بهجة للناظرين ، ونزهة للمتفرجين ، وآية للمتبصرين .

فصرت ترى لها منظراً عجيباً ما بين أخضر ، وأصفر ، وأبيض وغيره .

[ وظن أهلها أنهم قادرون عليها ] أى : حصل معهم طمع ، بأن ذلك سيستمر ويدوم ، لوقوف إرادتهم عنده ، وانتهاء مطالبهم فيه .

فبينما هم في تلك الحالة [ أنها أمرنا ليلاً أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً ،

كأن لم تغن بالأمس ] أى : كأنها ما كانت . فهذه حالة الدنيا ، سواء بسواء .

عَلَيْهَا أَتَيْتُمَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ  
بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ مُنْفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾  
وَاللَّهُ يَدْعُوهُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

[ كذلك نفصل الآيات ] أى : نبينها ونوضحها ، بتقريب المعاني  
إلى الأذهان ، وضرب الأمثال [ لقوم يتفكرون ] أى : يعملون أفكارهم  
فيما ينفعهم .

وأما الغافل المعرض ، فهذا لا تنفعه الآيات ، ولا يزيل عنه الشك البيان .  
ولما ذكر الله حال الدنيا ، وحاصل نعيمها ، شَوَّقَ إلى الدار  
الباقية فقال :

[ والله يدعوه إلى دار السلام ] إلى [ وهم فيها خالدون ] .

\* عم تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام ، والحث على ذلك ، والترغيب .  
وخص بالهداية ، من شاء استخلاصه واصطفاه .

فهذا فضله وإحسانه ، والله يختص برحمته من يشاء .

وذلك عدله وحكمته ، وليس لأحد عليه حجة ، بعد البيان والرسل .

وسمى الله الجنة « دار السلام » لسلامتها من جميع الآفات والنقائص .

وذلك ، لكمال نعيمها ، وتمامه ، وبقائه ، وحسنه من كل وجه .

ولما دعا إلى دار السلام ، كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجهة

لها ، الموصلة إليها ، أخبر عنها بقوله :

إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ  
وَلَا يَرْهَقُ وَجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ  
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

[ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ] أى : للذين أحسنوا فى عبادة الخالق ،  
بأن عبدوه على وجه المراقبة والنصيحة ، فى عبوديته ، وقاموا بما قدروا  
عليه منها ، وأحسنوا إلى عباد الله ، بما يقدرون عليه من الإحسان القولى  
والفعلى ، من بذل الإحسان المالى ، والإحسان البدنى ، والأمر بالمعروف ،  
والنهي عن المنكر ، وتعليم الجاهلين ، ونصيحة المعرضين ، وغير ذلك  
من وجوه البر والإحسان .

فهؤلاء الذين أحسنوا ، لهم « الحسنى » وهى : الجنة الكاملة فى حسناتها  
و « زيادة » وهى : النظر إلى وجه الله الكريم ، وسماع كلامه ، والفوز  
برضاه والبهجة بقربه .

فبهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه المتمنون ، ويسأله السائلون .

ثم ذكر اندفاع المخذور عنهم فقال : [ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ] .

أى : لا ينالهم مكروه ، بوجه من الوجوه ، لأن المكروه ، إذا وقع  
بالإنسان . تبين ذلك فى وجهه ، وتغير ، وتكدر .

وأما هؤلاء - فكما قال الله عنهم - « تعرف فى وجوههم نضرة النعيم » .

[ أولئك أصحاب الجنة ] الملائمون لها [ هم فيها خالدون ] لا يحولون ،

ولا يزولون ، ولا يتغيرون .

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا  
وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ  
وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا  
خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

\* لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار .

فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال السيئة  
المسخطة لله ، من أنواع الكفر والتكذيب ، و صناف المعاصي .

ف [ جزاؤهم سيئة بمثلها ] أى : جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من  
السيئات على اختلاف أحوالهم .

[ وترهقهم ] أى تغشاهم [ ذلة ] فى قلوبهم وخوف من عذاب الله .  
لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم .

وتسرى تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم ، فتكون سواداً فى وجوههم .

[ كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم  
فيها خالدون ] فكم بين الفريقين من الفرق ، وباعد ما بينهما من التفاوت ؟!

« وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة \* ووجوه يومئذ باسرة \* تظن

أن يفعل بها فاقرة \* وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه  
يومئذ عليها غبرة \* ترهقها قفرة \* أولئك هم الكفرة الفجرة » .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا  
مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ  
مَا كُنْتُمْ إِلَّا أَنَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

\* يقول تعالى [ويوم نحشرهم جميعاً] أى : نجمع جميع الخلائق ، لميعاد  
يوم معلوم ، ونحضر المشركين ، وما كانوا يعبدون من دون الله .

[ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤهم] أى : الزموا  
مكانكم ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم .

[فزيلنا بينهم] أى : فرقنا بينهم ، بالبعد البدنى والقلبى .

فصلت بينهم العداوة الشديدة ، بعد أن بذلوا لهم فى الدنيا ، خالص  
الحبة ، وَصَفَوَ الوداد .

فانقلبت تلك الحبة والولاية ، بغضاً وعداوة .

[وقال شركاؤهم] متبرئين منهم : [ما كنتم إيانا تعبدون] فإننا  
ننزه الله أن يكون له شريك ، أو نديد .

[فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم أن كنا عن عبادتكم لغافلين] .

ما أمرناكم بها ، ولا دعوناكم لذلك ، وإنما عبدتم من دعاكم إلى  
ذلك ، وهو الشيطان كما قال تعالى : « ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن  
لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » .

وقال : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا  
يعبدون \* قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن  
أكثرهم بهم مؤمنون » .

إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُغُ كُلُّ نَفْسٍ  
مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمْ الْحَقُّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا  
يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

فالملائكة السكرام ، والأنبياء ، والأولياء ونحوهم : يتبرأون من عبدكم  
يوم القيامة ويتصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون  
في ذلك .

فحينئذ يتحسر المشركون حسرة ، لا يمكن وصفها .

ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال ، وما أسلفوا من ردىء  
الخصال .

ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين ، وأنهم مفترون على الله ، قد  
ضلت عبادتهم ، واضمحلت معبوداتهم ، وتقطعت بهم الأسباب والوسائل .

ولهذا قال : [ هنالك ] أى : في ذلك اليوم [ تبلو كل نفس ما أسلفت ]  
أى : تتفقد أعمالها وكسبها ، وتتبعه بالجزاء ، وتجازى بحسبه ، إن خيرا  
نخير ، وإن شرا فشر .

[ وردوا إلى الله مولاهم الحق وصل عنهم ما كانوا يفترون ] من قولهم  
بصحة ما هم عليه من الشرك ، وأن ما يعبدون من دون الله ، تنفعهم ،  
وتدفع عنهم العذاب .

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ  
السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ  
مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٣١)

\* أى : قل لهؤلاء الذين أشركوا بالله ، ما لم ينزل به سلطاناً — محتجا عليهم بما أقرؤا به ، من توحيد الربوبية ، على ما أنكروه من توحيد الألوهية — [ قل من يرزقكم من السماء والأرض ] بإنزال الأرزاق من السماء ، وإخراج أنواعها من الأرض ، وتيسير أسبابها فيها ؟  
[ أم من يملك السمع والأبصار ] أى : من هو الذى خلقهما وهو مالكما ؟ .

وخصهما بالذكر ، من باب التنبيه على الفضول بالفاضل ، ولكمال شرفهما ونفعهما .

[ ومن يخرج الحى من الميت ] كإخراج أنواع الأشجار والنبات ، من الجيوب والنوى ، وإخراج المؤمن من الكافر ، والطائر من البيضة ، ونحو ذلك .

[ ويخرج الميت من الحى ] عكس هذه المذكورات .  
[ ومن يدبر الأمر ] فى العالم العلوى والسفلى ، وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية .

فإنك إذا سألتهم عن ذلك [ فسيقولون الله ] لأنهم يعترفون بجميع ذلك ، وأن الله لا شريك له فى شىء من المذكورات .

[ فقل ] لهم إزاما بالحجة [ أفلا تتقون ] الله فتخلصون له العبادة ، وحده لا شريك له ، وتخلعون ما تعبدونه من دونه ، من الأنداد والأوثان .

فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَلُ فَأَنَّى  
تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا  
أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

[ فذلکم ] الذى وصف نفسه بما وصفها به [ الله ربکم ] أى : المألوم  
المعبود المحمود ، الربى جميع الخلق بالنعم وهو [ الحق فماذا بعد الحق  
إلا الضلال ] .

فإنه تعالى ، المنفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء ، الذى ما بالعباد  
من نعمة ، إلا منه ، ولا يأتى بالحسنات إلا هو ، ولا يدفع السيئات إلا هو ،  
ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العظيمة ، والجلال والإكرام .

[ فأنى تصرفون ] عن عبادة مَنْ هذا وصفه ، إلى عبادة الذى ليس  
له من وجوده إلا العدم ، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ، ولا موتاً ،  
ولا حياة ولا نشوراً .

فليس له من الملك مثقال ذرة ، ولا شركة له بوجه من الوجوه ،  
ولا يشفع عند الله إلا بإذنه .

فتباً لمن أشرك به ، وويلحاً لمن كفر به .

لقد عدموا عقوباتهم ، بعد أن عدموا أديانهم ، بل فقدوا دنياهم  
وأخراهم .

ولهذا قال تعالى عنهم : [ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا  
أنهم لا يؤمنون ] بعد أن أراهم الله من الآيات البينات والبراهين النيرات ،  
ما فيه عبرة لأولى الألباب ، وموعظة للمتقين وهدى للعالمين .

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَ تُؤْفَكُونَ﴾ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا

\* يقول تعالى — مبيناً عجز آلهة المشركين ، وعدم اتصافها ، بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله : [ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ] أى يبتديه [ ثم يعيده ] .

وهذا استفهام ، بمعنى النفي والتقرير أى : ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهى أضعف من ذلك ، وأعجز .

[ قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ] من غير مشارك ، ولا معاون له على ذلك .

[ فأنتى تؤفكون ] أى : تصرفون ، وتنصرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء ، والإعادة ، إلى عبادة من لا يخلق شيئاً وهم يخلقون .

[ قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ] بيانه وإرشاده ، أو بإلهامه وتوفيقه .

[ قل الله ] وحده [ يهدى للحق ] بالأدلة والبراهين ، وبالإلهام والتوفيق ، والإعانة إلى سلوك أقوم طريق .

[ أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع ، أم من لا يهدى ] أى : لا يهتدى [ إلا أن يهدى ] لعدم علمه ، ولضلاله ، وهى شركاؤهم ، التى لا تهتدى ولا تهتدى إلا أن تهتدى [ فما لكم كيف تحكمون ] أى : أى

لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ  
الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

شئ جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل ، بصحة عبادة أحد مع الله ، بعد  
ظهور الحجة والبرهان ، أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده .

فإذا تبين أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع الله ، أوصافاً معنوية ،  
ولا أوصافاً فعلية ، تقتضى أن تعبد مع الله ، بل هي متصفة بالنقائص  
الموجبة لبطلان إلهيتها ، فلا شئ جعلت مع الله آلهة ؟

فالجواب : أن هذا من تزوين الشيطان للإنسان ، أقبح البهتان ، وأضل  
الضلال ، حق اعتقد ذلك وألفه ، وظنه حقاً ، وهو لا شئ .

ولهذا قال : [ وما يتبع أكثرهم ] أى : أكثر الذين يدعون من  
دون الله شركاء .

[ إلا ظناً ] أى : ما يتبعون في الحقيقة شركاء الله ، فإنه ليس لله شريك  
أصلاً ، عقلاً ، ولا نقلاً ، وإنما يتبعون الظن [ وإن الظن لا يغنى من الحق  
شيئاً ] .

فسموها آلهة ، وعبدوها مع الله ، « إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم  
وآبائكم ، ما أنزل الله بها من سلطان » .

[ إن الله عليم بما يفعلون ] وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة .

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ

\* يقول تعالى : [ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ]  
أى : غير ممكن ولا متصور ، أن يفترى هذا القرآن على الله ، لأنه الكتاب  
العظيم ، الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم  
حميد » :

وهو الكتاب الذى « لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ،  
لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .  
وهو الكتاب الذى تكلم به رب العالمين .  
فكيف يقدر أحد من الخلق ، أن يتكلم بمثله ، أو بما يقاربه ، والكلام  
تابع لعظمة التكلم ووصفه ؟؟؟ .  
فإن كان أحد يماثل الله فى عظمته ، وأوصاف كماله ، أمكن أن يأتى  
بمثل هذا القرآن .

ولو تنزلنا على الفرض والتقدير ، فَنَقُولُهُ أحد على رب العالمين ، لعاجله  
بالعقوبة ، وبأدركه بالنكال .

[ ولكن ] الله أنزل هذا الكتاب ، رحمة للعالمين ، وحجة على العباد  
أجمعين .

أنزله [ تصديق الذى بين يديه ] من كتب الله السماوية ، بأن وافقها ،  
وصدقها بما شهدت به ، وبشرت بنزوله ، فوقع كما أخبرت .

وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ  
كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ  
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ

---

[ وتفصيل الكتاب ] للحلال والحرام ، والأحكام الدينية والقدرية ،  
والإخبارات الصادقة .

[ لا ريب فيه من رب العالمين ] أى : لا شك ولا مرية فيه ، بوجه  
من الوجوه .

بل هو الحق اليقين « تنزيل من رب العالمين » الذى ربّى جميع  
الخلق بنعمه .

ومن أعظم أنواع تربيته ، أن أنزل عليهم هذا الكتاب ، الذى فيه  
مصالحهم الدينية والدنيوية ، المشتمل على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال .  
\* [ أم يقولون ] أى الكذّبون به ، عناداً وبنياً : [ افتراه ] محمد على الله ،  
واختلقه .

[ قل ] لهم — ملزماً لهم بشيء — إن قدروا عليه ، أمكن ما ادّعوه ،  
وإلا كان قولهم باطلاً .

[ فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم  
صادقين ] يعاونكم على الإتيان بسورة مثله ، وهذا محال .

ولو كان ممكناً ، لادعوا قدرتهم على ذلك ، ولأتوا بمثله .

ولكن لما بان عجزهم ، تبين أن ما قالوه باطل ، لاحظ له من الحجة .

يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾  
وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا  
أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

والذي حملهم على التكذيب بالقرآن ، المشتمل على الحق ، الذي لاحق  
فوقه ، أنهم لم يحيطوا به علماً .

فلو أحاطوا به علماً ، وفهموه حق فهمه ، لأذعنوا بالتصديق به .  
وكذلك ، إلى الآن ، لم يأتهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم  
العذاب ويحل بهم النكال .

وهذا التكذيب الصادر منهم ، من جنس تكذيب من قبلهم .  
ولهذا قال : [ كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة  
الظالمين ] وهو الهلاك ، الذي لم يبق منهم أحداً .

فليحذر هؤلاء ، أن يستمروا على تكذيبهم ، فيحل بهم ، ما أحل  
بالأمم المكذبين ، والقرون المهلكين .

وفي هذا دليل على وجوب الثبوت في الأمور ، وأنه لا ينبغي للإنسان  
أن يبادر بقبول شيء أو رده ، قبل أن يحيط به علماً .

\* [ ومنهم من يؤمن به ] أى : بالقرآن وما جاء به .

[ ومنهم من لا يؤمن به ، وربك أعلم بالمفسدين ] وهم الذين لا يؤمنون  
به على وجه الظلم ، والعناد ، والفساد ، فيجازيهم على فسادهم بأشد العذاب .

\* [ وإن كذبوك ] فاستمر على دعوتك ، وليس عليك من حسابهم  
من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، لكل عمله .

[ فقل لي على ولكم عملكم أنتم بريثون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ] .  
كما قال تعالى « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها » .

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الْأُصْمَ  
وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي

\* يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول ، ولما جاء به .

[ و ] أن [ منهم من يستمعون ] إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقت  
قراءته للوحي ، لا على وجه الاسترشاد ، بل على وجه التفرج والتكذيب ،  
وتطلب العثرات ، وهذا استماع ، غير نافع ، ولا مجيد على أهله خيراً .  
لا جرم ، انسدهم باب التوفيق ، وحرموا من فائدة الاستماع .  
ولهذا قال [ أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ] .

وهذا الاستفهام ، بمعنى النفي المقرر .

أى : لا تسمع الصم ، الذين لا يستمعون القول ، ولو جهرت به ،  
وخصوصاً إذا كان عقلهم معدوماً .

فإذا كان من الحال إسماع الأصم ، الذى لا يعقل ، للكلام ، فهؤلاء  
المكذبون ، كذلك ، ممتنع إسماعك إياهم ، إسماعاً ينتفعون به .

وأما سماع الحجة ، فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة .

فهذا طريق عظيم ، من طرق العلم ، قد انسدهم عليهم ، وهو طريق  
المسموعات المتعلقة بالخبر .

ثم ذكر انسداد الطريق الثانى ، وهو : طريق النظر فقال :

\* [ ومنهم من ينظر إليك ] فلا يفيدهم نظرهم إليك ، ولا استراحوا  
لك شيئاً .

أَلْمَنَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا  
وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

فكما أنك لا تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون ، فكذلك  
لا تهدى هؤلاء .

فإذا فسدت عقولهم ، وأسماعهم ، وأبصارهم ، التى هى الطرق الموصلة  
إلى العلم ومعرفة الحقائق ، فأين الطريق الموصل لهم إلى الحق ؟ .

ودل قوله [ ومنهم من ينظر إليك ] الآية ، أن النظر إلى حالة النبي  
صلى الله عليه وسلم ، وهديه ، وأخلاقه ، وأعماله ، وما يدعو إليه من أعظم  
الأدلة على صدقه ، وصحة ما جاء به ، وأنه يكفى البصير عن غيره  
من الأدلة .

\* وقوله : [ إن الله لا يظلم الناس شيئا ] فلا يزيد فى سيئاتهم ، ولا ينقص  
من حسناتهم .

[ ولكن الناس أنفسهم يظلمون ] يحيثهم الحق ، فلا يقبلونه ، فيعاقبهم  
الله بعد ذلك ، بالطبع على قلوبهم ، واختم على أسماعهم وأبصارهم .

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (٤٥)

﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤٦)

\* يخبر تعالى ، عن سرعة انقضاء الدنيا ، وأن الله تعالى ، إذا حشر الناس ، وجمعهم ليوم لا ريب فيه ، كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار ، وكأنه ، ما مر عليهم نعيم ولا بؤس .  
وهم يتعارفون بينهم ، كحالهم في الدنيا .

ففي هذا اليوم ، يريح المتقون ، ويحسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين ، إلى الصراط المستقيم ، والدين القويم ، حيث فاتهم النعيم ، واستحقوا دخول النار .

\* أى : لا تحزن أيها الرسول ، على هؤلاء المكذبين ، ولا تستعجل لهم ، فإنهم لا بد أن يصيبهم الذى نعدهم من العذاب .  
إما فى الدنيا ، فتراه بعينك ، وتقرّ به نفسك .

وإما فى الآخرة بعد الوفاة ، فإن مرجعهم إلى الله ، وسينبئهم بما كانوا يعملون ، أحصاه ونسوه ، والله على كل شئ شهيد .

ففيه الوعيد الشديد لهم ، والتسلية للرسول الذى كذبه قومه وعاندوه .

﴿٤٧﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

\* يقول تعالى : [ ولكل أمة ] من الأمم الماضية [ رسول يدعوهم ] إلى توحيد الله ودينه .

[ فإذا جاء ] هم [ رسولهم ] بالآيات ، صدقه بعضهم ، وكذبه آخرون . فيقضى الله بينهم بالقسط ، بنجاة المؤمنين ، وإهلاك الكاذبين [ وهم لا يظلمون ] بأن يعذبوا قبل إرسال الرسول ، وبيان الحجة ، أو يعذبوا بغير جرمهم .

فليحذر الكاذبون لك ، من مشابهة الأمم المهلكين ، فيحل بهم ، ما حل بأولئك .

ولا يستبطئوا العقوبة ويقولوا : [ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ] فإن هذا ظلم منهم ، حيث طلبوه من النبي صلى الله عليه وسلم .

فإنه ليس له من الأمر شيء ، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس .

وأما حسابهم ، وإنزال العذاب عليهم ، فمن الله تعالى ، ينزل عليهم إذا جاء الأجل ، الذى أجله فيه ، والوقت الذى قدره فيه ، الموافق لحكمته الإلهية . فإذا جاء ذلك الوقت ، لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

فليحذر الكاذبون من الاستعجال ، فإنهم مستعجلون بعذاب الله ،

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ يَتَّبِعُوا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٠) أَأَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَالْتَنَ

الذى إذا نزل ، لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، ولهذا قال :  
« قل أرايتم » إلى « تكسبون » .

\* يقول تعالى [ قل أرايتم إن أتاكم عذابه بيّناً ] وقت نومكم بالليل  
[ أو نهاراً ] في وقت غفلتكم [ ماذا يستعجل منه المجرمون ] أى : أى بشاره  
استعجلوا بها ، وأى عقاب ابتدروه ؟ .

\* [ أنتم إذا ما وقع آمنتم به ] فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله ،  
ويقال لهم — توبيخاً وعتاباً في تلك الحال ، التى زعموا أنهم يؤمنون .

[ الآن ] تؤمنون في حال الشدة والمشقة ؟

[ وقد كنتم به تستعجلون ] فإن سنة الله في عباده أنه يعقبهم إذا  
استعجبوه قبل وقوع العذاب .

فإذا وقع العذاب ، لا ينفع نفساً إيمانها ، كما قال تعالى عن فرعون ،  
لما أدركه الفرق « قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل  
وأنا من المسلمين » وأنه يقال له « الآن وقد عصيت قبل وكنت من  
المفسدين » .

وقال تعالى : « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد  
خلت في عباده » .

وقال هنا [ أنتم إذا ما وقع آمنتم به ، الآن ] تدعون الإيمان .

وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ  
الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾  
وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ  
وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ

[وقد كنتم به تستعجلون] فهذا ما عملت أيديكم ، وهذا ما استعجلتم به .  
\* [ثم قيل للذين ظلموا] حين يوفون أعمالهم يوم القيامة : [ذوقوا  
عذاب الخلد] أي : العذاب الذي تخلدون فيه ، ولا يفتر عنكم ساعة .  
[هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون] من الكفر والتكذيب والمعاصي .  
\* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : [ويستنبئونك أحق هو]  
أي : يستخبرك المكذبون على وجه التعنت والعناد ، لا على وجه التبين  
والاسترشاد .

[أحق هو] أي : أصحح حشر العباد ، وبعضهم بعد موتهم ليوم  
المعاد ، وجزاء العباد بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ؟  
[قل] لهم مقسماً على صحته ، مستدلاً عليه بالدليل الواضح والبرهان :  
[إي ، وربى إنه لحق] لا مريبة فيه ولا شبهة تعتربه .  
[وما أنتم بمعجزين] لله أن يبعثكم .  
فكما ابتداء خلقكم ، ولم تكونوا شيئاً ، كذلك يبعثكم مرة أخرى ،  
ليجازيكم بأعمالكم .

\* [و] إذا كانت القيامة [لو أن لكل نفس ظلمت] بالكفر والمعاصي .  
جميع [ما في الأرض] من ذهب وفضة وغيرها ، لتفتدى به من

لَا قُدَّتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَقُضِيَ يَنْهَمُ  
بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي  
وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

عذاب الله [لافتدت به] ولما نفعها ذلك ، وإنما النفع والضرر ، والثواب  
والعقاب ، على الأعمال الصالحة ، والسيئة .

[وأسروا] أى : الذين ظلموا [الندامة لما رأوا العذاب] ندموا  
على ما قدموا ، ولات حين مناص .

[وقضى بينهم بالقسط] أى : العدل التام ، الذى لا ظلم ولا جور فيه  
بوجه من الوجوه .

\* [ألا إن الله ما فى السموات والأرض] يحكم فيهم بحكمه الدينى  
والقدرى ، وسيحكم فيهم بحكمه الجزائى .

ولهذا قال : [ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون]  
فلذلك لا يستعدون للقاء الله ، بل ربما لم يؤمنوا به ، وقد تواترت عليه الأدلة  
القطعية ، والبراهين العقلية والعقلية .

\* [هو يحيى ويميت] أى : هو المتصرف بالإحياء والإماتة ، وسائر  
أنواع التدابير ، لا شريك له فى ذلك .

[وإليه ترجعون] يوم القيامة ، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ  
وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ

✽ يقول تعالى — مرغباً الخلق ، في الإقبال على هذا الكتاب الكريم ،  
بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال :

[ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ] أى : تعظكم ، وتنذركم  
عن الأعمال الموجبة لسخط الله ، المقتضية لعقابه ، وتحذركم عنها ببيان آثارها  
ومفاسدها .

[ وشفاء لما فى الصدور ] وهو : هذا القرآن ، شفاء لما فى الصدور ،  
من أمراض الشهوات الصادرة عن الانقياد للشرع ، وأمراض الشبهات ،  
القاذحة فى العلم اليقينى .

فإن ما فيه من المواعظ ، والترغيب ، والترهيب ، والوعد والوعيد ،  
مما يوجب للعبد الرغبة والرهبة .

وإذا وجدت فيه الرغبة فى الخير ، والرهبة عن الشر ، ونمنا على تكرار  
ما يرد إليها ، من معانى القرآن ، أوجب ذلك ، تقديم مراد الله على مراد  
النفس ، وصار ما يرضى الله ، أحب إلى العبد من شهوة نفسه .

وكذلك ما فيه ، من البراهين ، والأدلة ، التى صرّفها الله ، غاية  
التصريف ، وبينها أحسن بيان ، مما يزيل الشبه القاذحة فى الحق ، ويصل  
به القلب إلى أعلى درجات اليقين .

وإذا صح القلب من مرضه ، ورفل بأثواب العافية ، تبعته الجوارح  
كلها ، فإنها تصلح بصلاحه ، وتفسد بفساده .

[ وهدى ورحمة للمؤمنين ] فالهدى هو ، العلم بالحق والعمل به .

وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

والرحمة هي : ما يحصل من الخير والإحسان ، والثواب العاجل والآجل ، لمن اعتمدى به .

فالهدى ، أجل الوسائل ، والرحمة ، أكمل المقاصد والروائب .  
ولكن لا يهتدى به ، ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين .

وإذا حصل الهدى ، وحلت الرحمة الناشئة عنه ، حصلت السعادة والفلاح ، والربح والنجاح ، والفرح والسرور .

✽ ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك فقال : [ قل بفضل الله ] الذى هو : القرآن ، الذى هو أعظم نعمة ومنة ، وبفضل تفضل الله به على عباده [ ورحمته ] الدين والإيمان ، وعبادة الله ومحبته ومعرفته .  
[ فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ] من متاع الدنيا ولذاتها .

فعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين ، لا نسبة بينها ، وبين جميع ما فى الدنيا ، مما هو مضمحل زائل عن قريب .

وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضلته ورحمته ، لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها ، وشكرها لله تعالى وقوتها ، وشدة الرغبة فى العلم والإيمان ، الداعى للازدياد منهما ، وهذا فرح محمود .

بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها ، أو الفرح بالباطل ، فإن هذا مذموم .  
كما قال تعالى عن قوم قارون له : « لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين » .

وكما قال تعالى ، فى الذين فرحوا بما عندهم من الباطل ، المناقض ، لما جاءت به الرسل :

« فلما جاءتهم رسلهم بالبينات ، فرحوا بما عندهم من العلم » .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٩)  
وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ  
لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴿﴾

\* يقول تعالى — منكراً على المشركين ، الذين ابتدعوا تحريم ما أحل الله ، وتحليل ما حرمه :

[ قل أَرَأَيْتُمْ ما أنزل الله لكم من رزق ] يعنى أنواع الحيوانات الحللة ، التى جعلها الله رزقاً لهم ورحمة فى حقهم .

[ فجعلتم منه حراماً وحلالاً ] قل لهم - موجئاً على هذا القول الفاسد - :  
[ آله أذن لكم أم على الله تفترون ] ؟

ومن المعلوم ، أن الله لم يأذن لهم ، فعلم أنهم مفترون .

\* [ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ] أن يفعل الله بهم من النكال ، ويحل بهم من العقاب .

قال تعالى : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة » .

[ إن الله لذو فضل على الناس ] كثير ، وذو إحسان جزيل .

[ ولكن أکثرهم لا يشكرون ] إما أنهم ، لا يقومون بشكرها .

وإما أن يستعينوا بها على معاصيه .

وإما أن يحرموا منها ، ويردوا ما من الله به على عباده .

وقليل منهم الشاكر ، الذى يعترف بالنعمة ، ويشنى بها على الله ، ويستعين بها على طاعته .

ويستدل بهذه الآية ، على أن الأصل فى جميع الأطعمة ، الحل ، إلا ما

ورد الشرع بتحريمه ، لأن الله أنكر على من حرم الرزق ، الذى أنزله لعباده .

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦١)

\* يخبر تعالى ، عن عموم مشاهدته ، وإطلاعه على جميع أحوال العباد ، في حركاتهم ، وسكناتهم ، وفي ضمن هذا ، الدعوة لمراقبته على الدوام فقال : [ وما تكون في شأن ] أى : حال من أحوالك الدينية والدنيوية . [ وما تتلو منه من قرآن ] أى : وما تقرأ من القرآن ، الذى أوحاه الله إليك . [ ولا تعملون من عمل ] صغير أو كبير [ إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ] أى : وقت شروعكم فيه ، واستمراركم على العمل به . فراقبوا الله فى أعمالكم ، وأدوها على وجه النصيحة والاجتهاد فيها . وإياكم ، وما يكره الله تعالى ، فإنه مطلع عليكم ، عالم بظواهركم وبواطنكم . [ وما يعزب عن ربك ] أى : ما يغيب عن علمه ، وسمعه ، وبصره ، ومشاهدته [ من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ] أى : قد أحاط به علمه ، وجرى به قلبه . وهاتان المرتبتان ، من مراتب القضاء والقدر ، كثيراً ما يقرن الله بينهما ، وهما : العلم المحيط بجميع الأشياء ، وكتابته المحيطة بجميع الحوادث ، كقوله تعالى :

« ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير » .

﴿٦٢﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٣﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٤﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ

\* يخبر تعالى عن أوليائه وأحبائه ، ويذكر أعمالهم وأوصافهم ، وثوابهم .  
فقال : [ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ] فيما يستقبلونه ، مما أمامهم ،  
من المخاوف والأهوال .

[ ولا هم يحزنون ] على ما أسلفوا ، لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال .  
وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ثبت لهم الأمن والسعادة ،  
والخير الكثير ، الذي لا يعلمه إلا الله تعالى .

ثم ذكر وصفهم فقال : [ الذين آمنوا ] بالله ، وملائكته ، وكتبه ،  
ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر ، خيره وشره ، وصدقوا بإيمانهم ، باستعمال  
التقوى ، بامتنال الأوامر ، واجتناب النواهي .

فكل من كان مؤمناً تقياً ، كان لله تعالى ولياً ، لذلك كانت [ لهم  
البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ] .

أما البشارة في الدنيا ، فهي : الثناء الحسن ، والمودة في قلوب المؤمنين ،  
والرؤيا الصالحة ، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال  
والأخلاق ، وصرفه عن مساوئ الأخلاق .

وأما في الآخرة ، فأولها . البشارة عند قبض أرواحهم ، كما قال تعالى :  
« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا  
ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » .

وفي القبر ، ما يبشر به من رضا الله تعالى ، والنعيم المقيم .

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ  
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

وفي الآخرة ، تمام البشرى ، بدخول جنات النعيم ، والنجاة من  
العذاب الأليم .

[ لا تبديل لكلمات الله ] بل ما وعد الله ، فهو حق ، لا يمكن تغييره  
ولا تبديله ، لأنه الصادق في قوله ، الذى لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره  
وقضاه .

[ ذلك هو الفوز العظيم ] لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور ،  
والظفر بكل مطلوب محبوب .

وحصر الفوز فيه ، لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى .

والحاصل أن البشرى شاملة لكل خير وثواب ، رتبه الله في الدنيا  
والآخرة ، على الإيمان والتقوى ، ولهذا أطلق ذلك ، فلم يقيده .

وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ﴿٦٦﴾

\* أى : ولا يحزنك قول المكذبين فيك ، من الأقوال ، التى يتوصلون بها إلى القدح فيك ، وفى دينك فإن أقوالهم ، لا تُعْزُهُمْ . ولا تضرك شيئاً .  
[ إن العزة لله جميعاً ] يؤتيها من يشاء ، ويمنعها من يشاء .

قال تعالى « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » أى : فليطلبها بطاعته ،  
بدليل قوله بعده « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » ،

ومن المعلوم ، أنك على طاعة الله ، وأن العزة لك ولأتباعك ،  
من الله .

« والله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

وقوله : [ هو السميع العليم ] أى : سمعه قد أحاط بجميع الأصوات ،  
فلا يخفى عليه شئ منها .

وعلمه ، قد أحاط بجميع الظواهر والبواطن ، فلا يعزب عنه مثقال  
ذرة ، فى السموات والأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

وهو — تعالى — يسمع قولك ، وقول أعدائك فيه ، ويعلم ذلك  
تفصيلاً ، فاكثف بعلم الله وكفايته ، فمن يتق الله ، فهو حسبه .

﴿٦٦﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ  
وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ  
إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ  
لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ

\* يخبر تعالى : أن له ما في السموات والأرض ، خلقاً وملكاً ، يتصرف  
فيهم بما يشاء من أحكامه .

فالجوع ممالك الله ، مسخرون ، مدبرون ، لا يستحقون شيئاً من العبادة .  
وليسوا شركاء الله ، بوجه الوجوه ، ولهذا قال : [ وما يتبع الذين  
يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن ] أى : الذى لا يغنى من  
الحق شيئاً [ وإن هم إلا يخرصون ] فى ذلك ، خرس إفك وبهتان .  
فإن كانوا صادقين ، فى أن معبوداتهم شركاء الله ، فليظهروا  
من أوصافها ما تستحق به مثقال ذرة من العبادة ، فلن يستطيعوا .  
فهل منهم أحد يخلق شيئاً ، أو يرزق ، أو يملك شيئاً من المخلوقات ،  
أو يدبر الليل والنهار ، الذى جعله الله قياماً للناس ؟ .

[ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ] فى النوم والراحة بسبب  
الظلمة ، التى تغشى وجه الأرض ، فلو استمر الضياء ، لما قرئوا ،  
ولما سكنوا .

[ و ] جعل الله [ النهار مبصراً ] أى : مضيئاً ، يبصر به الخلق ،  
فينصرفون فى معاشهم ، ومصالح دينهم ودنياهم .

لَا يَتِلَّوْنَهُ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَ كُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّا الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

[إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون] عن الله ، سمع فهم ، وقبول ، واسترشاد ، لا سمع تعنت وعناد .

فإن في ذلك لآيات ، لقوم يسمعون ، ويستدلون بها ، على أنه ، وحده ، المعبود وأنه الإله الحق ، وأن إلهية ما سواه باطلة ، وأنه الرؤوف الرحيم العليم الحكيم .

\* يقول تعالى — مخبراً عن بهت المشركين لرب العالمين — [ قالوا اتخذ الله ولداً ] .

قززه نفسه عن ذلك بقوله : [ سبحانه ] أى : تنزه عما يقول الظالمون ، في نسبة النقائص ، إليه علواً كبيراً ، ثم برهن عن ذلك ، بعدة براهين .  
أحدها : قوله [ هو الغنى ] أى : الغنى منحصر فيه ، وأنواع الغنى مستغرقة فيه .

فهو الغنى ، الذى له الغنى التام ، بكل وجه واعتبار ، من جميع الوجوه .  
فإذا كان غنياً من كل وجه ، فلا شئ يتخذ الولد ؟  
أَلِحَاجَةٌ منه إلى الولد ، فهذا مناف لغناه فلا يتخذ أحد ولداً إلا لانتقص في غناه .

لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ  
الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

البرهان الثاني ، قوله : [ له ما في السموات وما في الأرض ] وهذه كلمة جامعة عامة لا يخرج عنها موجود من أهل السموات والأرض ، الجميع مخلوقون عبيد ممالك .

ومن العلوم أن هذا الوصف العام ، يتنافى أن يكون له ولد .  
فإن الولد من جنس والده ، لا يكون مخلوقا ولا مملوكا .  
فلكيئته لما في السموات والأرض عموما ، تنافي الولادة .

البرهان الثالث ، قوله : [ إن <sup>(١)</sup> عندكم من سلطان بهذا ] أى : هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن الله ولدا ، فلو كان لهم دليل ، لأبدوه .  
فلما تحدام وعجزهم على إقامة الدليل ، علم بطلان ما قالوه ، وأن ذلك قول بلا علم .

ولهذا قال : [ أتقولون على الله مالا تعلمون ] فإن هذا من أعظم المحرمات .

\* [ قل : إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ] أى : لا ينالون مطلوبهم ، ولا يحصل لهم مقصودهم .

وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم ، في الدنيا ، قليلا ، ثم ينتقلون إلى الله ، ويرجعون إليه ، فيذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ، « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » .

( ١ ) « إن » حرف نفى ، أى : ( ما عندكم حجة على ادعائكم أن الله ولداً ) [ لحمل المؤلف حرف « إن » على الاستفهام خطأ ، غير وجيه .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً

\* يقول تعالى لنبيه [واتل عليهم] أى: على قومك [نبأ نوح] فى دعوته لقومه ، حين دعاهم إلى الله مدة طويلة ، فكث فيهم ، ألف سنة إلا خمسين عاما ، فلم يزداهم دعاؤه إياهم ، إلا طغيانا فتملوا منه ، وستموا . وهو ، عليه الصلاة والسلام ، غير متكاسل ، ولا مقوان فى دعوتهم ، فقال لهم :

[يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله] أى : إن كان مقامى عندكم ، وتذكيرى إياكم ، ما ينفعكم [بآيات الله] الأدلة الواضحة البينة ، قد شق عليكم ، وعظم لديكم ، وأردتم أن تنالونى بسوء أو تردوا الحق .

[فعلى الله توكلت] أى : اعتمدت على الله ، فى دفع كل شر يراد بى ، وبما أَدْعُو إليه ، فهذا جندى ، وعُدَّتِي .

وأنتم ، فأتوا بما قدرتم عليه ، من أنواع العَدَدَ والعُدَدَ . [فأجمعوا أمركم] كلهم ، بحيث لا يتخلف منكم أحد ، ولا تدخروا من مجهودكم شيئا .

[و] أحضروا [شركاءكم] الذى كنتم تعبدونهم وتوالونهم ، من دون الله ، رب العالمين .

[ثم لا يكن أمركم عليه غمة] أى : مشتبها خفيا ، بل ليكن ذلك ظاهرا علانية .

ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونَ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾

[ثم اقضوا إلي أي : اقضوا علي بالمعقوبة والسوء ، الذي في إمكانكم .

[ولا تنظرون] أي : لا تمهلوني ساعة من نهار .

فهذا برهان قاطع ، وآية عظيمة ، على صحة رسالته ، وصدق ما جاء به .  
حيث كان وحده ، لا عشيرة تحميه ، ولا جنود تؤويه .

وقد بادأ قومه . بنفسه آرائهم ، وفساد دينهم ، وعيب آلهتهم .

وقد حملوا من بغضه ، وعداوته ، ما هو أعظم من الجبال الرواسي ،  
وهم أهل القدرة والسطوة .

وهو يقول لهم : اجتمعوا ، أنتم وشركاؤكم ، ومن استطعتم ، وأبدوا  
كل ما تقدرون عليه ، من الكيد ، فأوقعوا بي ، إن قدرتم على ذلك ،  
فلم يقدرُوا على شيء من ذلك .

فعل أنه الصادق حقاً ، وهم الكاذبون فيما يوعدون ، ولهذا قال :

[فإن توليتم] عن ما دعوتكم إليه ، فلا موجب لتوليكم ، لأنه  
تبين أنكم ، لا تولون عن باطل إلى حق ، وإنما تولون عن حق قامت  
الأدلة على فسادهم .

ومع هذا [فما سألتكم من أجر] على دعوتي ، وعلى إجابتكم ، فتقولوا :  
هذا جاءنا ، ليأخذ أموالنا ، فتمتنعون لأجل ذلك .

[إن أجرى إلا على الله] أي : لا أريد الثواب والجزاء ، إلا منه .

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْفَهُ  
وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ  
الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٣﴾

[ و ] أيضا فإنى ما أمرتكم بأمر وأخالفكم إلى ضده .  
بل [ أمرت أن أكون من المسلمين ] فأنا أول داخل ، وأول فاعل ،  
لما أمرتكم به .  
[ فكذبوه ] بعد ما دعاهم ليلا ونهارا ، وسرا وجهارا ، فلم يزداهم  
دعاؤه إلا فرارا .

[ فنجيناه ومن معه في الملك ] الذى أمرناه ، أن يصنعه بأعيننا ، وقلنا  
له — إذا فار التنور ، : « فاحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ،  
إلا من سبق عليه القول ومن آمن » ففعل ذلك .

فأمر الله السماء أن تمطر بماء منهمر وفجر الأرض عيوننا ، فالتقى الماء على  
أمر قد قدر « وحملناه على ذات ألواح ودسر » تجرى بأعيننا .  
[ وجعلناهم خلائف ] فى الأرض ، بعد إهلاك المكذبين .

ثم بارك الله فى ذريته ، وجعل ذريته ، هم الباقين ، ونشرهم فى أقطار الأرض .  
[ وأغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا ] بعد ذلك البيان ، وإقامة البرهان .  
[ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ] وهو : الهلاك الخزى ، واللعنة  
المتتابعة عليهم فى كل قرن يأتى بعدهم ، لا تسمع فيهم إلا لوما ، ولا ترى  
إلا قدحا وذمّا .

فليحذر هؤلاء المكذبون ، أن يحل بهم ، ما حل بأولئك الأقوام  
المكذبين ، من الهلاك ، والخزى ، والنكال .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ  
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْمَعُ  
عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

\* أى : [ ثم بعثنا من بعده ] أى : من بعد نوح عليه السلام [ رسلا  
إلى قومهم ] المكذبين ، يدعونهم إلى الهدى ، ويحذرونهم من أسباب  
الردى .

[ فجاءهم بالبينات ] أى : كل نبى أيد دعوته ، بالآيات الدالة على صحة  
ما جاء به .

[ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ] يعنى : أن الله تعالى عاقبهم ،  
حيث جاءهم الرسول ، فبادروا بتكذيبه ، فطبع الله على قلوبهم ، وحال بينهم  
وبين الإيمان ، بعد أن كانوا متمكنين منه ، كما قال تعالى : « ونقلب  
أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة » .

ولهذا قال هنا [ كذلك نطمع على قلوب المعتدين ] أى : نطمع عليها ،  
فلا يدخلها خير .

وما ظلمهم الله ، ولكنهم ظلموا أنفسهم ، بردهم الحق ، لما جاءهم ،  
وتكذيبهم الأول .

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ

\* أى : [ ثم بعثنا من بعدهم ] أى : من بعد هؤلاء الرسل ، الذين أرسلهم الله إلى القوم المكذبين المهلكين .

[ موسى ] بن عمران ، كليم الرحمن ، أحد أولى العزم من المرسلين ، وأحد الكبار المقتدى بهم ، المنزل عليهم الشرائع المعظمة الواسعة .

[ و ] جعلنا معه أخاه [ هرون ] وزيراً وبعثناهما [ إلى فرعون وملائه ]

أى : كبار دولته ورؤسائهم ، لأن عامتهم ، تبع للرؤساء .

[ بآياتنا ] الدالة على صدق ما جاء به ، من توحيد الله ، والنهي عن عبادة ماسوى الله تعالى .

[ فاستكبروا ] عنها ، ظالماً وعلوا ، بعد ما استيقنوها .

[ وكانوا قوماً مجرمين ] أى : وصفهم الإجرام والتكذيب :

[ فلما جاءهم الحق من عندنا ] الذى هو أكبر أنواع الحق وأعظمها ، وهو من عند الله ، الذى خضعت لعظمته الرقاب ، وهو رب العالمين ، المربى جميع خلقه بالنعم .

\* فلما جاءهم الحق من عند الله ، على يد موسى ، ردوه فلم يقبلوه .

و [ قالوا : إن هذا لسحر مبين ] لم يكفهم — قبحهم الله — إعراضهم ولا ردهم إياه ، حتى جعلوه أبطل الباطل ، وهو السحر : الذى حقيقته : التمويه ، بل جعلوه سحراً مبيناً ، ظاهراً ، وهو الحق المبين .

أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾  
قَالُوا أَاجْتَنَّا لَتَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا  
الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ

---

ولهذا [قال] لهم [موسى] - موخا لهم عن ردهم الحق ، الذى لا يرده إلا أظلم الناس :-

[أتقولون للحق لما جاءكم] أى : أتقولون إنه سحر مبين .

[أسحر هذا] أى : فانظروا وصفه ، وما اشتمل عليه .

فبمجرد ذلك يجزم بأنه الحق .

[ولا يفلح الساحرون] لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة .

فانظروا لمن تكون العاقبة ، ومن له الفلاح ، وعلى يديه النجاح .

وقد علموا بعد ذلك ، وظهر لكل أحد ، أن موسى عليه السلام ،

هو الذى أفلح ، وفاز بظفر الدنيا والآخرة .

\* [قالوا] لموسى ، رادين لقوله بما لا يرد به : [أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا

عليه آبائنا] أى : أجئتنا لتصدنا عما وجدنا عليه آبائنا ، من الشرك ،

وعبادة غير الله ، وتأمرنا بأن نعبد الله وحده لا شريك له ؟ ففعلوا قول

آبائهم الضالين ، حجة ، يردون بها الحق ، الذى جاءهم به موسى

عليه السلام .

وقوله : [ونسكون لكما الكبرياء فى الأرض] أى : وجئتمونا

لتكونوا أنتم الرؤساء ، ولتخرجونا من أراضينا .

أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ

وهذا تمويه منهم ، وترويج على جهالهم ، وتهيج لعوامهم ، على معاداة موسى ، وعدم الإيمان به .

وهذا لا يحتاج به ، من عرف الحقائق ، وميز بين الأمور ، فإن الحجج لاتدفع ، إلا بالحجج والبراهين .

وأما من جاء بالحق ، فرد قوله بأمثال هذه الأمور ، فإنها تدل على عجز موردها ، عن الإتيان بما يرد القول الذي جاء خصمه ، لأنه لو كان له حجة ، لأوردتها ، ولم يلجأ إلى قوله : قصدك كذا ، أو مرادك كذا ، سواء كان صادقا في قوله وإخباره عن قصد خصمه ، أم كاذبا .

مع أن موسى عليه الصلاة والسلام ، كل من عرف حاله ، وما يدعو إليه ، عرف أنه ليس له قصد في العلو في الأرض .

وإنما قصده ، كقصد إخوانه المرسلين ، هداية الخلق ، وإرشادهم لما فيه نفعهم .

ولكن حقيقة الأمر ، كما نطقوا به بقولهم : [ وما نحن لكما بمؤمنين ] أى : تكبرا وعنادا ، لا لبطلان ما جاء به موسى وهرون ، ولا لاشتباه فيه ، ولا لغير ذلك من المعاني ، سوى الظلم والعدوان ، وإرادة العلو ، الذى رموا به موسى وهرون .

\* [ وقال فرعون ] معارضا للحق ، الذى جاء به موسى ، ومغالبا للملاة وقومه :

[ ائتوني بكل ساحر عليم ] أى : ماهر بالسحر ، مقتن له .

فأرسل فى مدائن مصر ، من أتاه بأنواع السحرة ، على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم .

\* [ فلما جاء السحرة ] للمغالبة لموسى [ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ] .

أَلْقُوا مَا أَنتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ  
السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾  
وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا ءَامَنَ

أى : أى شىء أردتم ، لا أعين لكم شيئا .

وذلك لأنه جازم بغلبته ، غير مبال بهم ، وبما جاءوا به .

\* [ فلما ألقوا ] حبالهم وعصيهم ، إذا هى كأنها حيات تسعى .

[ قال موسى ما جئتم به السحر ] أى : هذا السحر الحقيقى العظيم .

ولكن مع عظمتهم [ إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ] .

فإنهم يريدون بذلك ، نصر الباطل على الحق ، وأى فساد أعظم  
من هذا ؟ !!! .

وهكذا كل مفسد ، عمل عملا ، واحتال كيذا ، أو أتى بمكر ،

فإن عمله سيطل ويضمحل .

وإن حصل لعمله رواج فى وقت ما ، فإن مآله ، الاضمحلال والحق .

وأما المصلحون ، الذين قصدهم بأعمالهم ، وجه الله تعالى ، وهى أعمال

ووسائل نافعة ، مأمور بها ، فإن الله يصلح أعمالهم ويرقيها ، وينميها

على الدوام .

فألقى موسى عصاه ، فتلقفت جميع ما صنعوا ، فبطل سحرهم ، واضمحل

باطلهم .

\* [ ويحق الله الحق بكلماته ، ولو كره المجرمون ] فأذعن السحرة ، حين

تبين لهم الحق .

لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ  
أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾  
وَقَالَ مُوسَىٰ يُقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ

فتوعدهم فرعون بالصلب ، وتقطع الأيدي والأرجل فلم يبالوا بذلك  
وثبتوا على إيمانهم .

وأما فرعون وملائه ، وأتباعهم ، فلم يؤمن منهم أحد ، بل استمروا  
في طغيانهم بعمهون .

\* ولهذا قال : [ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ] أى : شباب من  
بنى إسرائيل ، صبروا على الخوف ، لما ثبت في قلوبهم الإيمان .

[ على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم ] عن دينهم [ وإن  
فرعون لعال في الأرض ] أى : له القهر والغلبة فيها ، فحقق بهم أن يخافوا  
من بطشته .

[ و ] خصوصا [ إنه كان من المسرفين ] أى : المتجاوزين للحد ، في  
البنى والعدوان .

والحكمة - والله أعلم - بكونه ، ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ، أن  
الذرية والشباب ، أقبل للحق ، وأسرع له انقيادا .

بمخلاف الشيوخ ونحوهم ، ممن تربى على الكفر فإنهم - بسبب ما مكث  
في قلوبهم من العقائد الفاسدة - أبعد عن الحق من غيرهم .

\* [ وقال موسى ] موصيا لقومه بالصبر ، ومذكرا لهم ما يستعينون به على  
ذلك فقال : -

مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ  
الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾  
وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَمَا بَمِصْرَ يُثُوتًا  
وَأَجْعَلُوا يُثُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

[ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله ] فقوموا بوظيفة الإيمان بالله .

[ فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ] أى : اعتمدوا عليه ، والجاؤا إليه  
واستنصروه .

\* [ فقالوا ] ممثلين لذلك [ على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم  
الظالمين ] أى : تسلطهم علينا ، فيفتنونا ، أو يغلبونا ، فيفتنونا بذلك ،  
ويقولون : لو كانوا على حق لما غلبوا .

\* [ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ] لنسلم من شرهم ، ولنقيم على  
ديننا ، على وجه نتمكن به ، من إقامة شرائعه ، وإظهاره ، من غير  
معارض ، ولا منازع .

\* [ وأوحينا إلى موسى وأخيه ] حين اشتد الأمر على قومهما ، من  
فرعون وقومه ، وحرصوا على فتنهم عن دينهم .

[ أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتا ] أى : مروهم أن يجعلوا لهم بيوتا ،  
يتمكنون بها من الاستخفاء فيها .

[ واجعلوا بيوتكم قبلة ] أى : اجعلوها محلا ، تصلون فيها ، حيث  
عجزتم عن إقامة الصلاة فى الكنائس ، والبُيُوع العامة .

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا  
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ  
وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوْا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

[ وأقيموا الصلاة ] فإنها معونة على جميع الأمور .

[ وبشر المؤمنين ] بالنصر والتأييد ، وإظهار دينهم ، فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا .

وإذا اشتد الكرب ، وضاق الأمر ، فرّجه الله ، ووسعه .

فلما رأى موسى ، القسوة والإعراض من فرعون وملاه ، دعا عليهم ،  
وأمن هرون على دعائه ، فقال :

[ ربنا إنك آتيت فرعون وملاه زينة ] يتزينون بها من أنواع الحلى  
والثياب ، والبيوت المزخرفة ، والمراكب الفاخرة ، والخدام .

[ وأموالا ] عظيمة [ في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ] .

أى : إن أموالهم ، يستعينون بها على الإضلال فى سبيلك ، فيضلُّون  
ويُضِلُّون .

[ ربنا اطمس على أموالهم ] أى : أطفأها عليهم : إما بالهلاك ، وإما بجعلها  
حجارة ، غير منتفع بها .

[ واشدد على قلوبهم ] أى : قسَّها <sup>(١)</sup> [ فلا يؤمنوا حتى يروا  
العذاب الأليم ] .

(١) قسها . أى : اجعلها قاسية .

قَالَ قَدْ أُجِيتَ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَوِّزْنَا بَيْنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ

قال ذلك ، غضبا عليهم ، حيث تجرأوا على محارم الله ، وأفسدوا عباد الله ، وصدوا عن سبيله .

ولكمال معرفته بربه ، بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا ، بإغلاق باب الإيمان عليهم .

\* [ قال ] الله تعالى [ قد أُجِيتَ دَعْوَتُكُمْ ] .

هذا دليل على أن موسى ، كان يدعو ، وهرون يُؤْمِنُ على دعائه ، وأن الذي يؤمن ، يكون شريكا للداعي في ذلك الدعاء .

[ فاستقيما ] على دينكما ، واستمرا على دعوتكما .

[ ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ] أى : لا تتبعان سبيل الجهال

الضلال ، المنحرفين عن الصراط المستقيم ، المتبعين لطرق الجحيم .

فأمر الله موسى أن يسرى بينى إسرائيل ليلا ، وأخبره أنهم سيتبعونه .

وأرسل فرعون فى المدائن حاشرين .

يقولون « إن هؤلاء » أى : موسى وقومه « لشرذمة قليلون \* وإنهم لنا لفاقلون \* وإنا لجميع حاذرون » .

فجمع جنوده ، قاصيهم ودانيهم ، فأتبعهم بجنوده ، بغيا وعدوا أى : أخرجهم باغين على موسى وقومه ، ومعتدين فى الأرض .

وإذا اشتد البغى ، واستحكم الذنب ، فانتظر العقوبة .

\* [ وجاوزنا بينى إسرائيل البحر ] وذلك أن الله أوحى إلى موسى ،

وَجُنُودُهُ بُغْيًا وَعَدُوا حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ  
لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾  
ءَالَيْنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ

لما وصل البحر ، أن يضربه بعصاه ، فضربه ، فانفلق اثني عشر طريقا ،  
وسلكه بنو إسرائيل .

وساق فرعون وجنوده خلفه داخلين .

فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر ، وفرعون وجنوده  
داخلين فيه ، أمر الله البحر ، فالتطم على فرعون وجنوده ، فأغرقهم ،  
وبنو إسرائيل ينظرون .

حتى إذا أدرك فرعون الفرق ، وجزم بهلاكه [ قال آمنت أنه لا إله  
إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ] وهو الله الإله الحق الذي لا إله إلا هو  
[ وأنا من المسلمين ] أى : المنقادين لدين الله ، ولما جاء به موسى .

قال الله تعالى — مبينا أن هذا الإيمان فى هذه الحالة غير نافع له — :  
[ آلآن ] تؤمن ، وتقر برسول الله [ وقد عصيت قبل ] أى : بارزت  
بالمعاصى ، والكفر والتكذيب [ وكنت من المفسدين ] فلا ينفعك الإيمان  
كما جرت عادة الله ، أن الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية ،  
أنه لا ينفعهم إيمانهم ، لأن إيمانهم ، صار إيمانا مشاهدا كإيمان من ورد  
القيامة ، والذي ينفع ، إنما هو الإيمان بالغيب .

[ فالיום ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية ] .

قال المفسرون : إن بنى إسرائيل لما فى قلوبهم من الرعب العظيم ،  
من فرعون ، كأنهم لم يصدقوا بإغراقه ، وشكوا فى ذلك .

يَبْدَنكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ  
 آيَاتِنَا لَغَفُلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ  
 وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ  
 يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة مرتفعة ببدنه ، ليكون لهم  
 عبرة وآية .

[ وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ] فذلك تمر عليهم وتمكرر  
 فلا ينتفعون بها ، لعدم إقبالهم عليها .

وأما من له عقل وقلب حاضر ، فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر  
 دليل على صحة ما أخبر به الرسل .

\* [ ولقد بوأنا بني إسرائيل مَبُوءًا صدق ] أى : أنزلهم الله وأسكنهم فى  
 مساكن آل فرعون ، وأورثهم أرضهم وديارهم .

[ ورزقناهم من الطيبات ] من المطاعم والمشارب وغيرها [ فما اختلفوا ]  
 فى الحق [ حتى جاءهم العلم ] الموجب لاجتماعهم واتئلافهم .

ولكن بنى بعضهم على بعض ، وصار لكثير منهم أهوية وأغراض  
 تخالف الحق ، فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير .

[ إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ] بحكمة العدل  
 الناشئة على علمه التام ، وقدرته الشاملة .

وهذا هو الداء ، الذى يعرض لأهل الدين الصحيح .

وهو : أن الشيطان إذا أعجزه أن يطيعوه في ترك الدين بالكلية ،  
سعى في التحريش بينهم ، وإلقاء العداوة والبغضاء ، فحصل من الاختلاف  
ما هو موجب ذلك .

ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض ، وعداوة بعضهم لبعض ، ما هو  
قرة عين اللعين .

وإلا فإذا كان ربهم واحدا ، ورسولهم واحدا ، ودينهم واحدا ،  
ومصالحهم العامة متفقة ، فلا شيء يختلفون اختلافا ، يفرق شملهم ، ويشتت  
أمرهم ، ويحل رابطتهم ونظامهم ، فيفوت من مصالحهم الدينية والدنيوية  
ما يفوت ، ويموت من دينهم ، بسبب ذلك ما يموت ؟ .

فنسألك اللهم ، لطفا بعبادك المؤمنين ، يجمع شملهم ويرأب صدعهم ،  
ويرد قاصيهم على دانيهم ، يا ذا الجلال والإكرام .

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾

\* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك] هل هو صحيح ، أم غير صحيح ؟ .

[ فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ] أى : اسأل أهل الكتب المنصفين ، والعلماء الراشخين ، فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به ، وموافقته لما معهم .

فإن قيل : إن كثيرا من أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى ، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم ، كذبوا رسول الله ، وعاندوه ، وردوا عليه دعوته .

والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم ، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به ، وبرهاناً على صدقه ، فكيف يكون ذلك ؟  
فالجواب عن هذا ، من عدة أوجه .

منها : أن الشهادة ، إذا أضيفت إلى طائفة ، أو أهل مذهب ، أو بلد ونحوهم ، فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم .

وأما من عداهم ، فلو كانوا أكثر من غيرهم ، فلا عبرة فيهم ، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق ، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين ، كـ « عبد الله بن سلام » وأصحابه ، وكثير ممن أسلم في وقت النبي صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه ، ومن بعدهم .

ومنها : أن شهادة أهل الكتاب للرسول ، مبنية على كتابهم التوراة الذى ينتسبون إليه .

فإذا كان موجوداً في التوراة ، ما يوافق القرآن ويصدق ، ويشهد له بالصحة ، فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم ، على إنكار ذلك ، لم يقدح بما جاء به الرسول .

ومنها : أن الله تعالى أمر رسوله ، أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه ، وظهر ذلك ، وأعلنه على رؤوس الأشهاد .  
ومن المعلوم أن كثيراً منهم ، من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول ، محمد صلى الله عليه وسلم .

فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله ، لأبدوه ، وأظهروه وبينوه .  
فلما لم يكن شيء من ذلك ، كان عدم رد المعادى ، وإقرار المستجيب ، من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه .

ومنها : أنه ليس أكثر أهل الكتاب ، رد دعوة الرسول ، بل أكثرهم استجاب لها ، وانقاد طوعاً واختياراً ، فإن الرسول بعث ، وأكثر أهل الأرض المتدينين ، أهل الكتاب .

فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة ، حتى انقاد للإسلام ، أكثر أهل الشام ، ومصر ، والعراق ، وما جاورها من البلدان ، التي هي مقر دين أهل الكتاب .

فلم يبق إلا أهل الرياسات ، الذين آثروا ریاساتهم على الحق ، ومن تبعهم من العوام الجهلة ، ومن تدين بدينهم اسماً لا معنى ، كالإفرنج ، الذين حقيقة أمرهم ، أنهم دهرية ، منحلون عن جميع أديان الرسل .

وإنما انتسبوا للدين المسيحي ، ترويحاً للسكر ، وتمويهاً لباطلهم ، كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البيئة الظاهرة .

فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا  
بَيَّاتٍ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾

وقوله : [ لقد جاءك الحق ] أى : الذى لاشك فيه بوجه من الوجوه  
[ من ربك فلا تكونن من المتمرين ] كقوله تعالى « كتاب أنزلناه إليك  
فلا يكن فى صدرك حرج منه » .

\* [ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله ، فتكونن من  
الخاصرين ] .

وحاصل هذا : أن الله نهى عن شيئين : الشك فى هذا القرآن  
والامتراء منه .

وأشد من ذلك ، التكذيب به ، وهو آيات الله البينات ، التى لاتقبل  
التكذيب بوجه ، ورتب على هذا الخسار وهو : عدم الربح أصلاً ،  
وذلك بفوات الثواب ، فى الدنيا والآخرة ، وحصول العقاب ، فى  
الدنيا والآخرة .

والنهى عن الشئ أمر بضده ، فيكون أمراً بالتصديق التام بالقرآن ،  
وطمأنينة القلب إليه ، والإقبال عليه ، علماً وعملاً .

فبذلك يكون العبد من الراجحين ، الذين أدرکوا أجل الطالب ،  
وأفضل الرغائب ، وأتم المناقب ، وانتفى عنهم الخسار .

﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ  
وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

\* يقول تعالى : [ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك ] .

أى : إنهم من الضالين الغاوين أهل النار ، لابد أن يصيروا إلى ما قدره الله وقضاه ، فلا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية ، فلا تزيدهم الآيات إلا طغيانا ، وغيا إلى غيرهم .

وما ظلمهم الله ، ولكن ظلّموا أنفسهم ، بردهم للحق ، لما جاءهم أول مرة ، فعاقبهم الله ، بأن طبع على قلوبهم وأسماعهم ، وأبصارهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، الذى وعدوا به .

فحينئذ يعلمون حق اليقين ، أن ما هم عليه هو الضلال ، وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق .

ولكن فى وقت لا يجدى عليهم إيمانهم شيئا .

فيومئذ لا ينفع الذين ظلّموا معذرتهم ، ولا هم يستعتبون .

وأما الآيات ، فإنها تنفع من له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ  
يُونُسَ لَمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٩٨)

\* يقول تعالى : [ فلولا كانت قرية ] من القرى المكذبين [ آمنت ]  
حين رأيت العذاب [ فنفعها إيمانها ] أى : لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه ،  
حين رأى العذاب ، كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريبا ، لما قال :  
« آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت بنو إسرائيل وأنا من المسلمين »  
ف قيل له « آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » .  
وكما قال تعالى « فلما جاءهم بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ، وكفرنا  
بما كنا به مشركين \* فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى  
خلت فى عباده » .

وقال تعالى « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل  
صالحاً فيما تركت ، كلا » .  
والحكمة فى هذا ظاهرة ، فإن الإيمان الاضطرارى ، ليس بإيمان  
حقيقة ، ولو صرف عنه العذاب ، والأمر الذى اضطره إلى الإيمان ، لرجع  
إلى الكفران .

وقوله [ إلا قوم يونس لما آمنوا بعد ما رأوا العذاب ، كشفنا عنهم  
عذاب الخزي فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ] فهم مستثنون من  
العموم السابق .

ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة ، لم تصل إلينا ، ولم  
تدرکها أفهامنا .

﴿٩٩﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا  
أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ  
لِنَفْسٍ أَنْ تُوْثِقَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ  
لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴿١٠٠﴾

قال الله تعالى « وإن يونس لمن المرسلين » إلى قوله « فأرسلناه إلى مائة  
ألف أو يزيدون فآمنوا ففتعنهم إلى حين » .  
ولعل الحكمة في ذلك ، أن غيرهم من المهلكين ، لوردوا لعادوا  
لما نهوا عنه .

وأما قوم يونس ، فإن الله أعلم أن إيمانهم سيستمر ، بل قد استمر فعلا  
وثبتوا عليه ، والله أعلم .

\* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [ ولو شاء ربك لآمن من في  
الأرض كلهم جميعاً ] بأن يلهمهم الإيمان ، ويوزع قلوبهم للتقوى ، فقدرته  
صالحة لذلك .

ولكنه اقتضت حكمته ، أن كان بعضهم مؤمنين ، وبعضهم كافرين .  
[ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ] أى : لاتقدر على ذلك ،  
وليس في إمكانك ، ولا قدرة لغير الله على شئ من ذلك .

\* [ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ] بإرادته ومشيئته ، وإذنه  
القدرى الشرعى .

فمن كان من الخلق قابلاً لذلك ، ويزكو عنده الإيمان ، وفقه وهداه .  
[ ويجعل الرجس ] أى : الشر والضلال [ على الذين لا يعقلون ] عن  
الله أو امره ونواهيه ، ولا يلقوا بالاً لنصائحه ومواعظه :

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُنْفِي  
الْآيَاتِ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ  
إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ  
مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا

\* يدعو تعالى عباده ، إلى النظر لما في السموات والأرض .  
والمراد بذلك : نظر الفكر والاعتبار والتأمل ، لما فيها ، وما تحتوى  
عليه ، والاستبصار .

فإن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ، وَعِبْرًا لقوم يوقنون ، تدل على  
أن الله وحده ، المعبود الحمود ، ذو الجلال والإكرام ، والأسماء  
والصفات العظام .

[ وما تنفي الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ] فإنهم لا ينتفعون بالآيات  
لإعراضهم وعنادهم .

[ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ] أى : فهل  
ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله ، بعد وضوحها ، [ إلا مثل أيام  
الذين خلوا من قبلهم ] أى : من الهلاك والعقاب ، فإنهم صنعوا كصنيعهم  
وسنة الله جارية في الأولين والآخرين .

[ قل فانظروا إني معكم من المنتظرين ] فستعلمون من تكون له  
العاقبة الحسنة ، والنجاة في الدنيا والآخرة ، وليست إلا للرسل وأتباعهم .

\* ولهذا قال : [ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا ] من مكاره الدنيا  
والآخرة ، وشدايدها .

عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

﴿١٠٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم وَأُمِرْتُ أَنَّ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنَّ أَقِمَّ

[ كذلك حقا علينا ] أوجبناه على أنفسنا [ ننجي المؤمنين ] فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، فإنه — بحسب ما مع العبد من الإيمان — تحصل له النجاة من المكروه .

\* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، سيد المرسلين ، وإمام المتقين وخير الموقنين :

[ قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني ] أى : في ريب واشتباه فإنى لست في شك منه ، بل لدى العلم اليقين أنه الحق ، وأن ماتدعون من دون الله باطل ، ولى على ذلك ، الأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة .

ولهذا قال : [ فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ] من الأنداد ، والأصنام وغيرها ، لأنها لا تخلق ولا ترزق ، ولا تدبر شيئا من الأمور ، وإنما هى مخلوقة مسخرة ، ليس فيها ما يقتضى عبادتها .

[ ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم ] أى : هو الله الذى خلقكم ، وهو الذى يمتكم ، ثم يبعثكم ، ليجازيكم بأعمالكم .

فهو الذى يستحق أن يعبد ، ويصلى له ويسجد .

[ وأمرت أن أكون من المؤمنين \* وأن أقم وجهك للدين حنيفا ]

وَجَهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ  
مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ  
الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾

أى : أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله ، وأقم جميع شرائع الدين حنيفا ،  
أى : مقبلا على الله ، معرضاً عما سواه .

[ ولا تكونن من المشركين ] لا فى حالهم ، ولا تكن معهم .

[ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ] وهذا وصف لكل  
مخلوق ، أنه لا ينفع ولا يضر ، وإنما النافع الضار ، هو الله تعالى .

[ فإن فعلت ] أى : دعوت من دون الله ، ما لا ينفعك ولا يضرك  
[ فإنك إذا من الظالمين ] أى : الضارين أنفسهم بإهلاكها .

وهذا الظلم هو الشرك كما قال تعالى « إن الشرك لظلم عظيم » .

فإذا كان خير الخلق ، لو دعا مع الله غيره ، لكان من الظالمين المشركين  
فكيف بغيره ؟ !!

وَأِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ  
وَأِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ  
وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

\* هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده ، المستحق للعبادة ، فإنه : النافع الضار ، المعطى ، المانع ، الذى إذا مس بضر ، كفقير ومرض ، ونحوها [ فلا كاشف له إلا هو ] لأن الخلق ، لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء ، لم ينفعوا إلا بما كتبه الله ، ولو اجتمعوا على أن يضرُوا أحداً ، لم يقدرُوا على شيء من ضرره ، إذا لم يردّه .

ولهذا قال : [ وإن يردك بخير فلا راد لفضله ] أى : لا يقدر أحد من الخلق ، أن يرد فضله وإحسانه كما قال تعالى « ما يفتح الله للناس من رحمة ، فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده » .

[ يصيب به من يشاء من عباده ] أى : يختص برحمته من شاء من خلقه ، والله ذو الفضل العظيم .  
[ وهو الغفور ] لجميع الزلات ، الذى يوفق عبده ، لأسباب مغفرته .

ثم إذا فعلها العبد ، غفر الله ذنوبه ، كبارها ، وصغارها .  
[ الرحيم ] الذى وسعت رحمته كل شيء ، ووصل جوده إلى جميع الموجودات ، بحيث لا تستغنى عن إحسانه ، طرفة عين .  
فإذا عرف العبد بالدليل القاطع ، أن الله ، هو المنفرد بالنعم ، وكشف .

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْخُلُقُ مِنْ رَبِّكُمْ  
فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا

النعم ، وإعطاء الحسنات ، وكشف السيئات والكربات ، وأن أحداً من  
الخلق ، ليس بيده من هذا شيء ، إلا ما أجراه الله على يده ، جزم بأن الله  
هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه ، هو الباطل .

ولهذا — لما بين الدليل الواضح قال بعده : -

\* أى : [ قل ] يا أيها الرسول ، لما تبين البرهان [ يا أيها الناس قد  
جاءكم الحق من ربكم ] أى : الخبر الصادق المؤيد بالبراهين ، الذى لاشك  
فيه ، بوجه من الوجوه ، وهو واصل إليكم من ربكم ، الذى من أعظم  
تربيته لكم ، أن أنزل إليكم هذا القرآن ، الذى فيه تبيان لكل شيء ،  
وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلهية ، والأخلاق المرضية ، ما فيه  
أعظم تربية لكم ، وإحسان منه إليكم ، فقد تبين الرشد من الغي ، ولم  
يبق لأحد شبهة .

[ فمن اهتدى ] بهدى الله بأن علم الحق وتفهمه ، وآثره على غيره  
[ فإنما يهتدى لنفسه ] والله تعالى غنى عن عباده ، وإمامة أفعالمه ،  
راجعة إليهم .

[ ومن ضل ] عن الهدى بأن أعرض عن العلم بالحق ، أو عن  
العمل به .

[ فإنما يضل عليها ] ولا يضر الله شيئاً ، فلا يضر إلا لنفسه .

وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ  
حَتَّىٰ يَخُصِمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

[ وما أنا عليكم بوكيل ] فأحفظ أعمالكم وأحاسبكم عليها ، وإنما  
أنا لكم نذير مبين ، والله عليكم وكيل .  
فانظروا لأنفسكم ، مادمتم في مدة الإمهال .

\* [ واتبع ] أيها الرسول [ ما يوحى إليك ] علما ، وعملا ، وحالا ،  
ودعوة إليه .

[ واصبر ] على ذلك ، فإن هذا ، أعلى أنواع الصبر ، وأن عاقبته  
حميدة ، فلا تسكل ، ولا تنضجر ، بل دم على ذلك ، واثبت .

[ حتى يحكم الله ] بينك وبين من كذبك [ وهو خير الحاكمين ]  
فإن حكمه ، مشتمل على العدل التام ، والقسط الذي يحمد عليه .

وقد امتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه ، وثبت على الصراط المستقيم ،  
حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان ، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان  
بعد ما نصره الله عليهم ، بالحجة والبرهان .

فله الحمد ، والثناء الحسن ، كما ينبغي لجلاله ، وعظمته ، وكأله ،  
وسعة إحسانه .

تم تفسير سورة يونس - والحمد لله رب العالمين

تفسير

# سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ أَلَمْ يَكُتَبْ أَهْكِمْتَ ءَايَتَهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ  
حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ

\* بقول تعالى : هذا [ كتاب ] عظيم ، ونزل كريم .  
[ أحكمت آياته ] أى : أتقنت وأحسنمت ، صادقة أخبارها ، عادلة  
أوامرها ونواهيها ، فصيحة ألفاظه بهية معانيه .  
[ ثم فصلت ] أى : ميزت ، وبينت بيانا ، فى أعلى أنواع البيان .  
[ من لدن حكيم ] يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها .  
لا يأمر ، ولا ينهى ، إلا بما تقتضيه حكمته .  
[ خبير ] مطلع على الظواهر والبواطن .  
فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير ، فلا تسأل  
بعد هذا ، عن عظمته وجلالته ، واشتماله على كمال الحكمة ، وسعة الرحمة .  
وإنما أنزل الله كتابه لأجل [ أن لا تعبدوا إلا الله ] أى : لأجل  
إخلاص الدين كله لله ، وأن لا يشرك به أحد من خلقه .  
[ إني لكم ] أيها الناس [ منه ] أى : من الله ربكم [ نذير ] لمن تجرأ  
على المعاصى ، بعقاب الدنيا والآخرة .

وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا  
حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا  
فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ  
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

[وبشير] للمطيعين لله ، بثواب الدنيا والآخرة .

\* [وأن استغفروا ربكم] عن ما صدر منكم من الذنوب [ثم توبوا  
إليه] فيما تستقبلون من أعماركم ، بالرجوع إليه ، بالإنيابة والرجوع ، عما  
يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه .

ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال : [يمتعكم متاعا حسنا]  
أى : يعطيكم من رزقه ، ما تتمتعون به ، وتنتفعون .

[إلى أجل مسمى] أى : إلى وقت وفاتكم [ويؤت] منكم [كل ذي  
فضل فضله] أى : يعطى أهل الإحسان والبر ، من فضله وبره ، ما هو  
حزاء لإحسانهم ، من حصول ما يحبون ، ودفع ما يكرهون .

[وإن تولوا] عن ما دعوتكم إليه ، بل أعرضتم عنه ، وربما كذبتم  
به [فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير] وهو يوم القيامة ، الذى يجمع  
الله فيه الأولين والآخرين .

\* [إلى الله مرجعكم] ليجازيهم بأعمالهم ، إن خيرا نجيها ، وإن شرا فشر .  
وفى قوله : [وهو على كل شيء قدير] كالدليل على إحياء الله الموتى ،  
فإنه على كل شيء قدير ، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى ، وقد أخبر بذلك  
وهو أصدق القائلين ، فيجب وقوع ذلك عقلا ونقلا .

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٥)

✽ يخبر تعالى عن جهل المشركين ، وشدة ضلالهم أنهم [ يثنون صدورهم ] أى : يميلونها [ ليستخفوا منه ] أى : من الله ، فتقع صدورهم حافية لعلم الله ، بأحوالهم ، وبصره لهيئاتهم .

قال تعالى — مبيناً خطأهم فى هذا الظن — [ ألا حين يستغشون ثيابهم ] أى يتغطون بها ، يعلمهم فى تلك الحال ، التى هى من أخفى الأشياء .  
بل [ يعلم ما يسرون ] من الأقوال والأفعال [ وما يعلنون ] منها .  
بل ما هو أبلغ من ذلك وهو [ أنه عليم بذات الصدور ] أى : بما فيها من الإرادات ، والوساوس ، والأفكار ، التى لم ينطقوا بها ، سرّاً ولا جهرّاً .

فكيف تخفى عليه حالكم ، إذا ثنيت صدوركم لتستخفوا منه .  
ويحتمل أن المعنى فى هذا ، أن الله يذكر إعراض المكذبين للرسول ، الغافلين عن دعوته ، أنهم — من شدة إعراضهم — يثنون صدورهم ، أى : يحدوذبون ، حين يرون الرسول ، لثلايراهم ، ويسمعهم دعوته ، ويعظمهم بما ينفعهم .

فهل فوق هذا الإعراض شئ ؟!!

ثم توعدهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم ، وأنهم لا يخفون عليه ، وسيجازيهم بصنيعهم .

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٦)

\* أى : جميع ما دب على وجه الأرض ، من آدمى ، وحيوان ، برى ، أو بحرى ، فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم ، فرزقهم على الله .

[ ويعلم مستقرها ومستودعها ] أى : يعلم مستقر هذه الدواب ، وهو : المكان الذى تقيم فيه ، وتستقر فيه ، وتأوى إليه ، ومستودعها : المكان الذى تنتقل إليه فى ذهابها ومجيئها ، وعوارض أحوالها .

[ كل ] من تفاصيل أحوالها [ فى كتاب مبين ] أى : فى اللوح المحفوظ المحتوى على جميع الحوادث الواقعة ، والتى تقع فى السموات والأرض .

الجميع قد أحاط بها علم الله ، وجرى بها قلمه ، ونفذت فيها مشيئته ، ووسعها رزقه .

فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علماً بذواتها، وصفاتها

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ  
وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ

\* يخبر تعالى ، أنه [ خلق السموات والأرض في ستة أيام ] أولها : يوم  
الأحد ، وآخرها يوم الجمعة .

[ و ] حين خلق السموات والأرض [ كان عرشه على الماء ] فوق  
السماء السابعة .

فبعد أن خلق السموات والأرض ، استوى على عرشه ، يدبر الأمور ،  
ويصرفها كيف شاء ، من الأحكام القدريّة ، والأحكام الشرعيّة .

ولهذا قال [ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ] أى : ليمتحانكم ، إذ خلق لكم  
ما فى السموات والأرض ، بأمره ونهيه ، فينظر أيكم أحسن عملا .

قال الفضيل بن عباس رحمه الله « دين الله أخلصه وأصوبه » .

قيل ، يا أبا على « ما أخلصه وأصوبه » ؟ .

فقال : إن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صواباً ، لم يقبل .

وإذا كان صواباً ، ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً .

والخالص : أن يكون لوجه الله ، والصواب : أن يكون متبعاً فيه  
الشرع والسنة<sup>(١)</sup> .

(١) قوله : متبعاً فيه الشرع والسنة . أى : تكون العبادات جارية على

الصورة الواردة بالكتاب والسنة ، غير مخالفة لها ، لا بزيادة ولا نقصان ، =

إِنَّكُمْ مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا

---

وهذا كما قال تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

وقال تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن  
ينزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط  
بكل شيء علماً » .

فإن الله تعالى خلق الخلق لعبادته ، ومعرفة بأسماؤه وصفاته ،  
وأمرهم بذلك .

فمن انقاد ، وأدى ما أمر به ، فهو من المفلحين ، ومن أعرض عن ذلك ،  
فأولئك هم الخاسرون .

ولا بد أن يجمعهم فى دار ، يجازيهم فيها على ما أمرهم به ونهاهم .

ولهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزاء ، فقال : [ ولئن قلت إنكم  
مبعوثون من بعد الموت ، ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ] .

---

= ولا وضع شيء من الأذكار فى غير مواضعها ، التى لم يرد بها كتاب ولا سنة ،  
فلا يزاد فى الأذان ، الصلاة على النبى ، ولا يقرأ قرآن فى سجود ولا ركوع ،  
لأن ابتداء شيء فى العبادات وفى صورها استدراك على الشارع الحكيم ،  
وتجهيل له ، حيث لم يعرف الشارع الأكل والأحسن ، وهذا معنى قبيح  
جداً ، لا يرضى به مؤمن ، ولا يقبله مسلم على نفسه .

إِلَّا سِحْرٌ مُّثِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ  
لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم  
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

أي : ولئن قلت لهؤلاء ، وأخبرتهم بالبعث بعد الموت ، لم يصدقوك ،  
بل كذبوك أشد التكذيب ، وقدحوا فيما جئت به ، وقالوا : [ إن هذا إلا  
سحر مبين ] ألا وهو الحق المبين .

\* [ ولئن أخّرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ] أي : إلى وقت مقدر  
فاستبطاؤه ، لقاولوا من جهلهم وظلمهم [ ما يحبس ] .

ومضمون هذا ، تكذيبهم به ، فإنهم يستدلون بعدم وقوعه  
بهم عاجلا ، على كذب الرسول ، الخبر بوقوع العذاب ، فما أبعد  
هذا الاستدلال !! .

[ ألا يوم يأتيهم العذاب ليس مصروفا عنهم ] فيتمكنون من النظر  
في أمرهم .

[ وحق بهم ] أي : أحاط بهم ونزل [ ما كانوا به يستهزئون ]  
من العذاب ، حيث تهاونوا به ، حتى جزموا بكذب من جاء به .

وَلَيْنِ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنكُمْ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَيْنِ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضُرٍّ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

\* يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان ، أنه جاهل ظالم ، بأن الله إذا أذاقه منه رحمة ، كالصحة ، والرزق ، والأولاد ، ونحو ذلك ، ثم نزعها منه ، فإنه يستسلم لليأس ، وينقاد للتسوط ، فلا يرجو ثواب الله ، ولا يخطر بباله أن الله سيردها ، أو مثلها ، أو خيرا منها . عليه .

وأنه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته ، أنه يفرح ويبطر ، ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير ويقول : [ ذهب السيئات عني ، إنه لفرح نفور ] أى : يفرح بما أوتى مما يوافق هوى نفسه ، نفور بنعم الله على عباد الله . وذلك يحمله على الأشر والبطر والإعجاب بالنفس ، والتكبر على الخلق ، واحتقارهم ، وازدراؤهم . وأى عيب أشد من هذا ؟ !!

وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو ، إلا من وفقه الله ، وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده ، وهم الذين صبروا أنفسهم عند الضراء ، فلم ييأسوا ، وعند السراء ، فلم يبטروا ، وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات .

[ أولئك لهم مغفرة ] لذنوبهم ، يزول بها عنهم كل محذور .  
[ وأجر كبير ] وهو : الفوز بجنت النعيم ، التى فيها ، ما تشتهيہ الأنفس ، وتلد الأعين .

﴿ فَلَمَّا تَرَكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ  
صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ  
إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ

\* يقول تعالى — مسلماً لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، عن تكذيب  
المكذبين: [ فلما ترك بعض ما يوحى إليك ، وضائق به صدرك أن يقولوا  
لولا أنزل عليه كنز ] .

أى: لا ينبغي هذا المثلث ، أن قولهم يؤثر فيك ، ويصدق عما أنت عليه ،  
فتترك بعض ما يوحى إليك ، ويضيق صدرك ، لتعنتهم بقولهم: [ لولا أنزل  
عليه كنز أو جاء معه ملك ] .

فإن هذا القول ، ناشئ من تعنت ، وظلم ، وعناد ، وضلال ، وجهل  
بمواقع الحجج والأدلة .

فامض على أمرك ، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة ، التي لا تصدر  
إلا من سفيه ولا يضق لذلك صدرك .

فهل أوردوا عليك حجة ، لا تستطيع حلها ؟ أم قدحوا ببعض ما جئت  
به قدحاً ، يؤثر فيه ، وينقص قدره ، فيضيق صدرك لذلك ؟ ! .

أم عليك حسابهم ، ومطالب بهدايتهم جبراً ؟ .

و [ إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ] فهو الوكيل عليهم ،  
يحفظ أعمالهم ، ويمجازيهم بها أتم الجزاء .

\* [ أم يقولون افتراه ] أى : افترى محمد هذا القرآن ؟ .

أَفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ  
مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّامُ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ

فأجابهم بقوله : [ قل ] لهم [ فأتوا بعشر سور مثله مفتریات وادعوا  
من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقین ] .

أى : إن كان قد افتراه ، فإنه لا فرق بينكم وبينه فى الفصاحة والبلاغة ،  
وأنتم الأعداء حقاً ، الحريصون بغاية ما يمكنكم ، على إبطال دعوته .  
فإن كنتم صادقین ، فأتوا بعشر سور مثله مفتریات .

[ فإن لم يستجيبوا لكم ] على شىء من ذلكم [ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ]  
من عند الله ، لقيام الدليل والمنتضى ، وانتفاء المعارض .  
[ وأن لا إله إلا هو ] أى : واعلموا [ أنه لا إله إلا هو ] أى : هو  
المستحق للالوهية والعبادة .

[ فهل أنتم مسلمون ] أى : منقادون لألوهيته ، مستسلمون لعبوديته .  
وفى هذه الآيات ، إرشاد إلى أنه لا ينبغى للداعى إلى الله ، أن يصده  
اعتراض المعارضين ، ولا قدح القادحين .

خصوصاً ، إذا كان القدح لا مستند له ، ولا يقدر فيما دعا إليه ، وأنه  
لا يضيق صدره ، بل يطمئن بذلك ، ماضياً على أمره ، مقبلاً على شأنه .  
وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين ، للأدلة التى يختارونها .

بل يكفى إقامة الدليل ، السالم عن المعارض ، على جميع المسائل والمطالب .

فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَتَمُّ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ

وفيها أن هذا القرآن ، معجز بنفسه ، لا يقدر أحد من البشر ، أن يأتي بمثله ، ولا بمشر سور مثله ، بل ولا سورة من مثله .

لأن الأعداء البلقاء الفصحاء ، تحداهم الله بذلك ، فلم يعارضوه ، لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك .

وفيها : أن مما يطلب فيه العلم ، ولا يكتفى غلبة الظن ، علم القرآن ، وعلم التوحيد .

لقوله تعالى : [ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو ] .

\* يقول تعالى [ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها .

أى : كل إرادته ، مقصورة على الحياة الدنيا ، وعلى زينتها ، من النساء ، والبنين ، والقناطير المقنطرة ، من الذهب ، والفضة ، والخليل المسومة ، والأنعام والحرث .

قد صرف رغبته ، وسعيه ، وعمله ، فى هذه الأشياء ، ولم يجعل لدار القرار من إرادته ، شيئاً .

فهذا لا يكون إلا كافراً ، لأنه لو كان مؤمناً ، لكان ما معه من الإيمان ، ما يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا .

بل نفس إيمانه وما تيسر له من الأعمال ، أثر من آثار إرادته الدار الآخرة .

أَعْمَلْتُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَتِيَّةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ

ولكن هذا الشقي ، الذى كأنه خلق للدنيا وحدها [ نوف إليهم أعمالهم فيها ] أى : نعطيتهم ما قسم لهم ، فى أم الكتاب من ثواب الدنيا .

[ وهم فيها لا يبخسون ] أى : لا ينقصون شيئاً ، مما قدر لهم ، ولكن هذا انتهى نعيمهم .

\* [ أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ] خالدين فيها أبداً ، لا يُقَتَّرُ عنهم العذاب ، وقد حرموا جزيل الثواب .

[ وحبط ما صنعوا فيها ] أى : فى الدنيا ، أى ، بطل واضمحل ما عملوه مما يكيدون به الحق وأهله ، وما عملوه من أعمال الخير ، التى لا أساس لها ، ولا وجود لشرطها ، وهو الإيمان .

\* يذكر تعالى ، حال رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن قام مقامه ، من ورثته القائمين بدينه ، وحججه الموقنين بذلك ، وأنهم لا يوصف بهم غيرهم ولا يكون أحد مثلهم فقال :

[ أفمن كان على بينة من ربه ] بالوحى الذى أنزل الله فيه المسائل المهمة ، ودلائلها الظاهرة ، فتيقن تلك البينة .

[ ويتلوه ] أى : يتلو هذه البينة والبرهان ، برهان آخر [ شاهد منه ]

وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ  
وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ  
إِنَّهُ أَلْحَقَ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

وهو شاهد الفطرة المستقيمة ، والعقل الصحيح حين شهد حقيقة ، ما أوحاه الله  
وشرعه ، وعلم بعقله حسنه ، فازداد بذلك ، إيماننا إلى إيمانه .

[ و ] نَمَّ شاهد ثالث [ من قبله ] وهو [ كتاب موسى ] التوراة ،  
التي جعلها الله [ إماما ] للناس [ ورحمة ] لهم ، يشهد لهذا القرآن بالصدق ،  
ويوافقه فيما جاء به من الحق .

أى : أفمن كان بهذا الوصف ، قد تواردت عليه شواهد الإيمان ،  
وقامت لديه ، أدلة اليقين ، كمن هو في الظلمات والجهالات ، ليس بمخارج  
منها ؟ ! .

لا يستوون عند الله ، ولا عند عباد الله .

[ أولئك ] أى : الذين وقفوا لقيام الأدلة عندهم .

[ يؤمنون به ] أى : بالقرآن حقيقة ، فيثمر لهم إيمانهم ، كل خير  
في الدنيا والآخرة .

[ ومن يكفر به من الأحزاب ] أى : سائر طوائف أهل الأرض ،  
لمتحزبة على رد الحق .

[ فالنار موعده ] لا بد ، من وروده إليها [ فلا تك في مرية ] .

أى : فى أدنى شك [ منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر  
الناس لا يؤمنون ] .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ

إما جهلا منهم ، وضلالا . وإما ظلما وعنادا ، وبغيا .  
وإلا ، فمن كان قصده حسنا ، وفهمه مستقيما ، فلا بد أن يؤمن به ،  
لأنه يرى ، ما يدعو به إلى الإيمان من كل وجه .  
\* يخبر تعالى ، أنه لا أحد [ أظلم ممن افترى على الله كذبا ] ويدخل  
في هذا ، كل من كذب على الله ، بنسبة شريك له ، أو وصفه بما لا يليق  
بجلاله ، أو الإخبار عنه ، بما لم يقل ، أو ادعاء النبوة ، أو غير ذلك ،  
من الكذب على الله .

فهؤلاء أعظم الناس ظلما [ أولئك يعرضون على ربهم ] ليجازيهم  
بظلمهم .

فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد [ يقول الأشهاد ] أي : الذين شهدوا  
عليهم بافترائهم وكذبهم :

[ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين ] .  
أي : لعنة لا تنقطع ، لأن ظلمهم صار وصفا لهم ملازما ، لا يقبل التخفيف .  
ثم وصف ظلمهم فقال [ الذين يصدون عن سبيل الله ] فصدوا بأنفسهم  
عن سبيل الله ، وهى سبيل الرسل ، التى دعوا الناس إليها ، وصدوا غيرهم  
عنها ، فصاروا أئمة يدعون إلى النار .

وَيَنْبُغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ  
يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ  
يُضَعِّفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا

---

[ويبغونها] أى : سبيل الله [عوجا] أى : يجتهدون فى ميلها ،  
وتشينها ، وتهجينها ، لتصير عند الناس ، غير مستقيمة ، فيحسنون الباطل  
ويقبحون الحق ، قبحهم الله [ وهم بالآخرة هم كافرون ] .

[ أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض ] أى : ليسوا فائزين الله ،  
لأنهم تحت قبضته ، وفى سلطانه .

[ وما كان لهم من دون الله من أولياء ] فيدفعوا عنهم المكروه ،  
أو يحصلوا لهم ما ينفعهم ، بل تقطعت بهم الأسباب .

[ يضاعف لهم العذاب ] أى : يغلظ ويزداد ، لأنهم ضلوا بأنفسهم ،  
وأضلوا غيرهم .

[ ما كانوا يستطيعون السمع ] أى : من بغضهم للحق ، ونفورهم عنه ،  
ما كانوا يستطيعون ، أن يسمعوا آيات الله ، سماعا ينتفعون به « فما لهم  
عن التذكرة معرضين \* كأنهم حمر مستنفرة \* فرت من قسورة » .

[ وما كانوا يبصرون ] أى : ينظرون نظر عبدة وتفكر ، فيما ينفعهم .  
وإنما هم كالصم البكم ، الذين لا يعقلون .

يُنِصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ  
مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ  
الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

\* [ أولئك الذين خسروا أنفسهم ] حيث فوتوها ، أعظم الثواب ،  
واستحقوا أشد العذاب .

[ وضل عنهم ما كانوا يفترون ] أى : اضمحل دينهم ، الذى يدعون  
إليه ويمحسنونه ، ولم تقن عنهم آلتهم ، التى يعبدون من دون الله ، لما  
جاء أمر ربك .

[ لا جرم ] أى : حقا وصدقا [ أنهم فى الآخرة هم الأخسرون ] .

حصرا لخسار فيهم ، بل جعل لهم منه أشده ، لشدة حسرتهم وحرمانهم  
وما يعانون من المشقة والعذاب . فنتجبر بالله من حالهم .

ولما ذكر حال الأشقياء ، ذكر أوصاف السعداء ، وما لهم عند الله  
من الثواب .

فقال : ( إن الذين آمنوا ) إلى قوله ( أفلا تذكرون ) .

﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ  
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ  
كَالْأَنْعَمِ وَالْأَضْمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا  
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

\* يقول تعالى : [ إن الذين آمنوا ] بقلوبهم ، أى : صدقوا واعترفوا ،  
لما أمر الله بالإيمان به ، من أصول الدين وقواعده .

[ وعملوا الصالحات ] المشتملة على أعمال القلوب والجوارح ،  
وأقوال اللسان .

[ وأخبتوا إلى ربهم ] أى : خضعوا له ، واستكانوا لعظمته ، وذلوا  
لسلطانه ، وأنابوا إليه بمحبته ، وخوفه ، ورجائه ، والتضرع إليه .

[ أولئك ] الذين جمعوا تلك الصفات [ أصحاب الجنة هم فيها خالدون ] .

لأنهم لم يتركوا من الخير مطلباً ، إلا أدركوه ، ولا خيراً ، إلا سبقوا إليه .

[ مثل الفريقين ] أى : فريق الأشقياء ، وفريق السعداء .

[ كالأنعم والأضم ] هؤلاء الأشقياء .

[ والبصير والسميع ] مثل السعداء .

[ هل يستويان مثلاً ] لا يستويان مثلاً ، بل بينهما من الفرق ، ما لا

يأتى عليه الوصف .

[ أفلا تذكرون ] الأعمال ، التى تنفعكم ، فتفعلونها ، والأعمال التى

تضركم ، فتتركونها .

﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ

أى : [ولقد أرسلنا نوحاً] أول المرسلين [إلى قومه] يدعوهم إلى الله وينهاهم عن الشرك فقال : [إنى لكم نذير مبين] أى : بينت لكم ما أنذرتكم به ، بيانا زال به الإشكال .

[أن لا تعبدوا إلا الله] أى : أخلصوا العبادة لله وحده ، واتركوا كل ما يعبد من دون الله .

[إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم] إن لم تقوموا بتوحيد الله ، وتطيعونى .

[فقال للملأ الذين كفروا من قومه] أى : الأشراف والرؤساء ، رادين لدعوة نوح عليه السلام ، كما جرت العادة لأمثالهم ، أنهم أول من رد دعوة المرسلين :

[ما نراك إلا بشراً مثلاً] وهذا مانع — يزعمهم — عن اتباعه ، مع أنه — فى نفس الأمر — هو الصواب ، الذى لا ينبغى غيره ، لأن البشر ، يتمكن البشر ، أن يتلقوا عنه ، ويراجعوه فى كل أمر ، بخلاف الملائكة .

[وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا] أى : ما نرى اتبعك منا ، إلا الأراذل والسفلة ، يزعمهم .

وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾  
قَالَ يَقُومِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ يَمِينَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً

وهم — في الحقيقة — الأشراف ، وأهل العقول ، الذين انتقادوا للحق ،  
ولم يكونوا كالأراذل ، الذين يقال لهم الملاء ، الذين اتبعوا كل شيطان  
مريد ، واتخذوا آلهة من الحجر والشجر ، يتقربون إليها ويسجدون .  
فهل ترى أردل من هؤلاء وأخس ؟ .

وقولهم : [ بادى الرأي ] أى . إنما اتبعوك من غير تفكر وروية ،  
بل بمجرد ما دعوتهم ، اتبعوك .

يعنون بذلك ، أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم ، ولم يعلموا أن الحق  
المبين ، تدعو إليه بداهة العقول ، وبمجرد ما يصل إلى أولى الأبواب ، يعرفونه  
ويتحققونه .

لا كالأمر الخفية ، التى تحتاج إلى تأمل ، وفكر طويل .  
[ وما نرى لكم علينا من فضل ] أى : لستم أفضل منا فننقاد لكم .  
[ بل نظنكم كاذبين ] وكذبوا فى قولهم هذا ، فإنهم رأوا من الآيات ،  
التي جعلها الله مؤيدة لنوح ، ما يوجب لهم الجزم القام على صدقه .

ولهذا [ قال ] لهم نوح مجابوا [ يا قوم إن كنت على يمينه من ربى ]  
أى : على يقين وجزم ، يعنى ، وهو الرسول الكامل القدوة ، الذى ينقاد  
له أولو الأبواب ، وتضمحل فى جنب عقله ، عقول الفحول من الرجال ،  
وهو الصادق حقاً .

فإذا قال : إني على يمينه من ربى ، فحسبك بهذا القول ، شهادة له  
وتصديقا .

مَنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْ نُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾  
وَيَقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا  
بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُثْلَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا

[وَأَنَا رَحِمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ] أَى: أَوْحَى إِلَى وَأَرْسَلَنِي ، وَمَنْ عَلَى بِالْهُدَايَةِ .

[فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ] أَى : خَفَيْتُ عَلَيْكُمْ ، وَبِهَا تَنَاقَلْتُمْ .

[أَنْ لَزِمُكُمْوهَا] أَى : أَنْ كَرِهْتُمْ عَلَى مَا تَحْتَقِنَاهُ ، وَشَكَسْتُمْ أَنْتُمْ فِيهِ ؟

[وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ] حَتَّى حَرَصْتُمْ عَلَى رَدِّ مَا جُنْتُ بِهِ ، لَيْسَ ذَلِكَ

ضَارِنًا ، وَلَيْسَ بِقَادِحٍ مِنْ يَقِينِنَا فِيهِ ، وَلَا قَوْلُكُمْ وَافْتِرَاؤُكُمْ عَلَيْنَا ، صَادًّا  
لَنَا عَمَّا كُنَّا عَلَيْهِ .

وإِنَّمَا غَايَتُهُ ، أَنْ يَكُونَ صَادًّا لَكُمْ أَنْتُمْ ، وَمَوْجِبًا لَعْدِمِ اتِّقْيَادِكُمْ لِلْحَقِّ ،  
تَزْعُمُونَ أَنَّهُ بَاطِلٌ .

فَإِذَا وَصَلْتَ الْحَالَ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ ، فَلَا تَقْدِرُ عَلَى إِكْرَاهِهِمْ ، عَلَى  
مَا أَمَرَ اللَّهُ ، وَلَا إِزْمَامِهِمْ ، مَا نَفَرْتُمْ عَنْهُ ، وَلِهَذَا قَالَ :

[أَنْ لَزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ] .

[وَيَقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ] أَى : عَلَى دَعْوَتِي إِيَّاكُمْ [مَالًا]  
فَسَتَسْتَقِلُّونَ النَّفَرَمُ .

[إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ] وَكَأَنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْهُ طَرْدَ الْمُؤْمِنِينَ الضَّعْفَاءِ .

فَقَالَ لَهُمْ [وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا] أَى : مَا يَنْبَغِي لِي ، وَلَا يَلِيْقُ

تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمٍ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتَهُمْ  
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ  
الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ

ذلك ، بل ألتقاهم بالرحب والإكرام ، والإعزاز والإعظام [إنهم ملاقون  
رهبهم] فثيبهم على إيمانهم وتقواهم بجنات النعيم .  
[ولكنني أراكم قوما تجهلون] حيث تأمروني ، بطرد أولياء الله ،  
وإبعادهم عني .

وحيث رددتهم الحق ، لأنهم أتباعه ، وحيث استدلتهم على بطلان  
الحق بقولكم « إني على بشر مثلكم » وإلنه ليس لنا عليكم من فضل .

[وياقوم من ينصرني من الله إن طردتهم] أي : من يمنعني من عذابه ،  
فإن طردهم ، موجب للعذاب والنكال ، الذي لا يمنعني من دون الله مانع .  
[أفلا تذكرون] ما هو الأنفع لكم والأصلح ، وتدبرون الأمور .  
[ولا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إني  
ملك] أي : غاييتي أني رسول الله إليكم ، أبشركم ، وأنذركم ، وما عدا  
ذلك ، فليس بيدي من الأمر شيء .

فليست خزائن الله عندي ، أدبرها أنا ، وأعطى من أشاء ، وأحرم  
من أشاء .

[ولا أعلم الغيب] فأخبركم بسر أئركم وبواطنكم [ولا أقول إني ملك] .  
والمعنى : أني لا أدعي رتبة فوق رتبتي ، ولا منزلة سوى المنزلة ، التي  
أنزلني الله بها ، ولا أحكم على الناس ، بظني .

لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنَّي إِذَا لَمِنَ  
الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثُرْتَ جِدْلَانَا فَأْتِنَا بِمَا  
تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ

[ ولا أقول للذين تزددى أعينكم ] أى : الضعفاء المؤمنين ، الذى  
يحتقرهم الملأ الذين كفروا [ لن يؤتيهم الله خيراً ، الله أعلم بما فى أنفسهم ] .  
فإن كانوا صادقين فى إيمانهم ، فلهم الخير الكثير ، وإن كانوا غير  
ذلك ، فحسابهم على الله .

[ إني إذاً ] أى : إن قلت لكم شيئاً مما تقدم [ لمن الظالمين ] .  
وهذا تأييس منه ، عليه الصلاة والسلام لقومه ، أن ينبذ قراء المؤمنين ،  
أو يفتنهم ، وإقناع لقومه ، بالطرق المقتنة للمنصف .  
فلما رأوه ، لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم ، ولم يدركوا منه  
مطلوبهم [ قالوا يانوح قد جادلنا فاكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت  
من الصادقين ] .

فما أجهلهم وأضلهم ، حيث قالوا هذه المقالة ، لنبيهم الناصح .  
فهلا قالوا : إن كانوا صادقين : يانوح قد نصحتنا ، وأشفقت علينا ،  
ودعوتنا إلى أمر ، لم يتبين لنا ، فتريد منك أن تبينه لنا . لننقاد لك ، وإلا  
فأنت مشكور فى نصحك .

لكان هذا الجواب المنصف ، للذى قد دعا إلى أمر خفى عليه .

ولكنهم فى قولهم ، كاذبون ، وعلى نبيهم متجربون .  
ولم يردوا ما قاله بأدنى شبهة ، فضلاً عن أن يردوه بحجة .

إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي

ولهذا عدلوا — من جهلهم وظلمهم — إلى الاستعجال بالعذاب ، وتعجز الله .

ولهذا أجابهم نوح عليه السلام بقوله [ إنا يا أيكم به الله إن شاء ]  
 أى : إن اقتضت مشيئته وحكمته ، أن ينزله بكم ، فعل ذلك .  
 [ وما أنتم بمعجزين ] لله ، وأنا ليس بيدي من الأمر شيء .  
 [ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ] .

أى : إن إرادة الله غالبة ، فإنه إذا أراد أن يغويكم ، لمردكم الحق .  
 فلو حرصت غاية مجهودى ، ونصحت لكم أتم النصح — وهو قد فعل عليه السلام — فليس ذلك بنافع لكم شيئاً .

[ وهو ربكم ] يفعل بكم ما يشاء ، ويحكم فيكم ، بما يريد [ وإليه ترجعون ] فيجازيكم بأعمالكم .

[ أم يقولون افتراه ] هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح ، كما كان السياق في قصته مع قومه ، وأن المعنى : أن قومه يقولون : افتري على الله كذباً ، وكذب بالوحي الذى يزعم أنه من الله ، وأن الله أمره أن يقول [ قل إن افتريته فعلى إجرامي وأنا بريء مما تجرمون ] أى : كلُّ عليه وزره « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ  
مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

ويحتمل أن يكون عائداً إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وتكون  
هذه الآية معترضة ، في أثناء قصة نوح وقومه ، لأنها من الأمور التي  
لا يعلمها إلا الأنبياء .

فلما شرع الله في قصها على رسوله ، وكانت من جملة الآيات الدالة على  
صدقه ورسالته ، ذكر تكذيب قومه مع البيان التام فقال :

[ أم يقولون افتراء ] أى . هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه .  
أى : فهذا من أعجب الأقوال وأبطلها ، فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ  
ولم يكتب ، ولم يرحل عنهم لدراسة على أهل الكتاب ، فجاء بهذا الكتاب ،  
الذى تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله .

فإذا زعموا — مع هذا — أنه افتراء ، علم أنهم معاندون ، ولم يبق  
فائدة في حجاجهم .

بل اللائق في هذه الحال ، الإعراض عنهم ، ولهذا قال :

[ قل إن افتريته فعل إجرامى ] أى ذنبى وكذبنى .

[ وأنا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ] أى : فلم تستلجوني في تكذيبى .

وقوله : [ وأوحى إلى نوح ، أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ]  
أى : قد قسوا .

[ فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ] أى : فلا تحزن ، ولا تبال بهم ،  
وبأفعالهم .

وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ

فإن الله ، قد مقّمهم ، وأحقّ عليهم عذابه الذى لا یرد .  
[ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ] أى : بحفظنا ، ومراى منا ،  
وعلى مرضاتنا .

[ ولا تخاطبني في الذين ظلموا ] أى : لا تراجعنى فى إهلاكم .  
[ إنهم مغرقون ] أى : قد حق القول ، ونفذ فيهم القدر .  
فامتثل أمر ربه ، وجعل يصنع الفلك [ وكلاما مرّ عليه ملاء من قومه ]  
ورأوا ما يصنع [ سخروا منه ، قال إن تسخروا منا ] الآن [ فإننا نسخر  
منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه  
عذاب مقيم ] نحن ، أم أنتم . وقد علموا ذلك ، حين حل بهم العقاب .  
[ حتى إذا جاء أمرنا ] أى قدرنا بوقت نزول العذاب بهم [ وفار  
التنور ] أى : أنزل الله السماء بالماء النهر ، وفجر الأرض كلها عيونا حتى  
القنابر ، التى هى محل النار فى العادة ، وأبعد ما يكون عن الماء ، تفجرت  
فالتقى الماء على أمر ، قد قدر .

[ وقلنا ] لنوح : [ احمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ اثْنين ] أى : من كل  
صنف من أصناف المخلوقات ، ذكر وأنثى ، لتبقى مادة سائر الأجناس

زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ  
وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا  
وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ  
كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا

وأما بقية الأصناف الزائدة عن الزوجين ، فإن السفينة لا تطيق حملها  
[وأهلك إلا من سبق عليه القول] ممن كنن كافراً ، كابنه الذي غرق .

[ومن آعن ، و [ الحال أنه [ ما آمن معه إلا قليل ] .

[ وقال [ نوح لمن أمره الله أن يحملهم : [ اركبوا فيها بسم الله مجراها  
ومرساها ] أى . تجرى على اسم الله ، وترسى بتسخيره وأمره .

[ إن ربى لغفور رحيم ] حيث غفر لنا ، ورحمنا ، ونجانا من القوم  
الظالمين .

ثم وصف جريانها كأننا نشاهدها فقال :

[ وهى تجرى بهم ] أى : بنوح ، ومن ركب معه [ فى موج كالجبال ]  
والله حافظها وحافظ أهلها .

[ ونادى نوح ابنه ] لما ركب ، ليركب معه [ وكان ] ابنه [ فى معزل ]  
عنهم ، حين ركبوا ، أى : مبتعداً وأراد منه ، أن يقرب ليركب .

فقال له : [ يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ] فيصيبك  
ما يصيبهم .

[ وقال ] ابنه ، مكذباً لأبيه ، أنه لا ينجو إلا من ركب السفينة .

وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي  
مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ يَنْهَمَا  
الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُنْقَرِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ  
وَلِسَمَاءَ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودَىٰ  
وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ

[سأوى إلى جبل يعصمني من الماء] أى : سأرتقى جبلا ، أمتنع به  
من الماء .

[قال] نوح : [ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ] فلا يعصم  
أحداً ، جبل ولا غيره ، ولو تسبب بغاية ما يمكنه من الأسباب ، لما نجا  
إن لم ينجه الله .

[و حال بينهما الموج فكان] الابن [من المفرقين] .

[و] لما أغرقهم الله ، ونجى نوحا ومن معه [ قيل يا أرض ابلى  
ماءك ] الذى خرج منك ، والذى نزل إليك ، ابلى الماء ، الذى على  
وجهك [ وياضماء أقلى ] فامتثلنا لأمر الله ، فابتلعت الأرض ماءها ،  
وأقلت السماء .

[وغيض الماء] أى : غضب من الأرض .

[وقضى الأمر] بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين .

[واستوت] السفينة [على الجودى] أى : أرسى على ذلك الجبل  
المعروف فى أرض الموصل .

[وقيل بعداً للقوم الظالمين] أى : أتبعوا بهلاكهم لعنة وبعداً ،  
وسحقاً ، لا يزال معهم .

إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ أَلْحَقٌ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾  
 قَالَ يَنْوَحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي  
 مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾

[ونادى نوح ربه فقال رب : إن ابني من أهلي ، وإن وعدك الحق] .  
 وقد قلت لي « فاحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك » ولن تخلف  
 ما وعدتني به .

لعله عليه الصلاة والسلام ، لما حملته الشفقة ، وأن الله وعده بنجاة  
 أهله ، ظن أن الوعد لعمومهم ، من آمن ، ومن لم يؤمن ، فلذلك دعا ربه  
 بذلك الدعاء .

ومع هذا ، فقوض الأمر لحكمة الله البالغة ، حيث قال : [ وأنت  
 أحكم الحاكمين ] .

[ قال ] الله له : [ إنه ليس من أهلك ] الذين وعدتك بإنجائهم  
 [ إنه عمل غير صالح ] أي : هذا الدعاء الذي دعوت به ، لنجاة كافر ،  
 لا يؤمن بالله ولا رسوله .

[ فلا تسألن ما ليس لك به علم ] أي : ما لا تعلم عاقبته ، ومآله ، وهل  
 يكون خيراً ، أو غير خير .

[ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ] أي : أني أعظك وعظاً ،  
 تكون به من الكاملين ، وتنجو به من صفات الجاهلين .

فحينئذ ندب نوح ، عليه السلام ، ندامة شديدة ، على ما صدر منه ،

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي  
وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنْوُحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا  
وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ

[قال ربى إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى  
وترحنى أكن من الخاسرين ] .

فبالمغفرة والرحمة ينجو العبد من أن يكون من الخاسرين .  
ودل هذا ، على أن نوحاً ، عليه السلام ، لم يكن عنده علم ، بأن سؤاله  
لربه ، فى نجات ابنه ، محرم .

داخل فى قوله [ ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ] بل ،  
تعارض عنده الأمران ، وظن دخوله فى قوله : [ وأهلك ] .

وبعد هذا ، تبين له أنه داخل فى المنهى عن الدعاء لهم ، والمراجعة فيهم .  
[ قيل : يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أُمم ممن معك ]  
من الآدميين وغيرهم من الأزواج التى حملها معه .

فبارك الله فى الجميع ، حتى ملأوا أقطار الأرض ونواحيها .  
[ وأُمم سَنُمَتِّعُهُمْ ] فى الدنيا [ ثم يمسهم منا عذاب أليم ] أى : هذا  
الإنجاء ، ليس بمانع لنا من أن من كفر بعد ذلك ، أحللتنا به العقاب ، وإن  
متعوا قليلا ، فسيؤخذون بعد ذلك .

قال الله لنبىه ، محمد صلى الله عليه وسلم . بعد ما قص عليه هذه القصة  
المبسوطة ، التى لا يعلمها إلا من الله عليه برسالته .

مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعُقُوبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

وَأِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ

[ تلك من أنباء الغيب نوحيا إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ] فيقولوا : إنه كان يعلمها .

فاحمد الله ، واشكره ، واصبر على ما أنت عليه ، من الدين القويم ، والصراط المستقيم ، والدعوة إلى الله .

[ إن العاقبة للمتقين ] الذين يتقون الشرك وسائر المعاصي .

فستكون لك العاقبة على قومك ، كما كانت لنوح على قومه .

أى [ و ] أرسلنا [ إلى عاد ] وهم القبيلة المعروفة فى الأحتاف ، من أرض اليمن .

[ أخاهم ] فى النسب [ هوداً ] ليتمكنوا من الأخذ عنه والعلم بصدقه .

[ قال ] لهم [ يا قوم اعبدوا الله ، ما لكم . من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترون ] أى : أمرهم بعبادة الله وحده ، ونهاهم عما هم عليه ، من عبادة غير الله ، وأخبرهم أنهم قد افتروا على الله الكذب فى عبادتهم لغيره ، وتجويزهم لذلك ، وأوضح لهم وجوب عبادة الله ، وفساد عبادة ما سواه .

عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾  
وَيَقُومِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ  
مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

ثم ذكر عدم المانع لهم من الاقياد فقال [يا قوم لا أسألكم عليه أجراً] .  
أى: غرامة من أموالكم ، على ما دعوتكم إليه ، فتقولوا : هذا يريد  
أن يأخذ أموالنا ، وإنما أدعوك وأعلمكم بحانا .

[إن أجرى إلا على الذى فطرني أفلا تعقلون] ما أدعوك إليه ، وأنه  
موجب لقبوله ، منتفى المانع عن رده .

[ويا قوم استغفروا ربكم] عما مضى منكم [ثم توبوا إليه] فيما  
تستقبلونه ، بالتوبة النصوح ، والإنابة إلى الله تعالى .

فإنكم إذا فعلتم ذلك [يرسل السماء عليكم مدراراً] بكثرة الأمطار ،  
التي تخصب بها الأرض ، ويكثر خيرها .

[ويزدكم قوة إلى قوتكم] فإنهم كانوا من أقوى الناس ، ولهذا  
قالوا : « من أشد منا قوة » ؟ .

فوعدهم أنهم إن آمنوا ، زادم قوة إلى قوتهم .

[ولا تتولوا] عنه ، أى : عن ربكم [مجرمين] أى : مستكبرين عن  
عبادته ، متجرئين على محارمه .

قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ  
وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ تَقُولُ إِلَّا أُعْتِرِكَ بِمَعْزُومَاتِنَا

[ قالوا ] رادين لقوله : [ يا هود ما جئتنا ببينة ] إن كان قصدهم بالبينة  
البينة التي يقرحونها ، فهذه غير لازمة للحق ، بل اللازم أن يأتي النبي بآية ،  
تدل على صحة ما جاء به .

وإن كان قصدهم أنه لم يأتهم ببينة ، تشهد لما قاله بالصحة ، فقد  
كذبوا في ذلك .

فإنه ما جاء نبي لقومه ، إلا وبعث الله على يديه ، من الآيات ،  
ما يؤمن على مثله البشر .

ولو لم تكن له آية ، إلا دعوته إياهم لإخلاص الدين لله ، وحده لاشريك  
له ، والأمر بكل عمل صالح ، وخلق جميل ، والنهي عن كل خلق ذميم ،  
من الشرك بالله ، والفواحش ، والظلم ، وأنواع المنكرات ، مع ما هو  
مشتمل عليه هود ، عليه السلام ، من الصفات ، التي لا تكون إلا لخيار  
الخلق وأصدقهم ، لكفى بها آيات وأدلة ، على صدقه .

بل أهل العقول ، وأولو الألباب ، يرون أن هذه الآية ، أكبر من  
مجرد الخوارق ، التي يراها بعض الناس ، هي المعجزات فقط .

ومن آياته ، وبياناته الدالة على صدقه ، أنه شخص واحد ، ليس له  
أنصار ولا أعوان .

وهو يصرخ في قومه ، ويناديهم ، ويمعجزهم ، ويقول لهم :  
« إني توكلت على الله ربي وربكم » .

بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾  
مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ

[إني أشهد الله وأشهدوا ، أنى برىء مما تشركون من دونه ،  
فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون] .

وهم الأعداء ، الذين لهم السطوة والغلبة ، ويريدون إطفاء ما معه من  
النور ، بأى طريق كان ، وهو غير مكترث ، ولا مبال بهم ، وهم عاجزون  
لا يقدر أن ينالوه بشيء من السوء ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .

وقولهم [وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك] أى : لانترك عبادة آلهتنا  
لمجرد قولك ، الذى ما أقت عليه بينة بزعمهم .

[وما نحن لك بمؤمنين] وهذا تأييس منهم لنبيهم ، هود عليه السلام ،  
فى إيمانهم ، وأنهم لا يزالون فى كفرهم بعمهون .

[إن نقول] فيك [إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء] أى : أصابتك  
بخبال وجنون ، فصرت تهذى بما لا يعقل .

فسبحان من طبع على قلوب الظالمين ، كيف جعلوا أصدق الخلق ،  
الذى جاء بأحق الحق ، بهذه المرتبة ، التى يستحق العاقل من حكايتها عنهم  
لولا أن الله حكاهما عنهم .

ولهذا بين هود ، عليه الصلاة والسلام ، أنه واثق غاية الوثوق ، أنه  
لا يصيبه منهم ، ولا من آلهتهم أذى ، فقال :

[إنى أشهد الله وأشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه  
فكيدونى جميعا] .

عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي  
عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ  
إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي

أى : اطلبوا إلى الضرر كلكم ، بكل طريق تتمكنون بها منى  
[ ثم لا تنظرون ] أى : لا تهملون .

[ إني توكلت على الله ] أى : اعتمدت فى أمرى كله على الله  
[ ربى وربكم ] أى : هو خالق الجميع ، ومدبرنا وإياكم ، وهو الذى ربانا .  
[ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ] فلا تتحرك ولا تسكن  
إلا بإذنه .

فلو اجتمعتم جميعا على الإيقاع بى ، والله لم يسلطكم علىّ ، لم تقدروا  
على ذلك ، فإن سلطكم ، فاحكمه أرادها .

[ إن ربى على صراط مستقيم ] أى : على عدل ، وقسط ، وحكمة ،  
وحد فى قضائه وقدره ، وشرعه وأمره ، وفى جزائه وثوابه ، وعقابه .

لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم ، التى يحمد ، ويشنى عليه بها .  
[ فإن تولوا ] عما دعوتكم إليه [ فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ]  
فلم يبق علىّ تبعة من شأنكم .

[ ويستخلف ربى قوماً غيركم ] يقومون بعبادته ، ولا يشركون  
به شيئاً .

[ ولا تضرونه شيئاً ] فإن ضرركم ، إنما يعود إليكم ، فالله لا تضره

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ  
آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ  
جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ

معصية العاصين . ولا تمنعه طاعة الطائعين « من عمل صالحا فلنفسه ومن  
أساء فعليها » .

[ إن ربى على كل شيء حفيظ ] .

\* [ ولما جاء أمرنا ] أى : عذابنا بإرسال الريح العقيم ، التى « ما تذر  
من شيء أتت عليه ، إلا جعلته كالرميم » .

[ نجينا هودا ، والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب  
غليظ ] أى : عظيم شديد ، أحله الله بـ « عاد » ، فأصبحوا لا يرى  
إلا مساكنهم .

\* [ وتلك عاد ] الذين أوقع الله بهم ما أوقع ، بظلم منهم لأنهم  
[ جحدوا بآيات ربهم ] ولهذا قالوا : « ما جئنا ببينة » .

فتبين بهذا ، أنهم متيقنون لدعوته ، وإنما عاندوا وجحدوا  
[ وعصوا رسله ] .

لأن من عصى رسولا ، فقد عصى جميع المرسلين ، لأن دعوتهم واحدة .  
[ واتبعوا أمر كل جبار ] أى : متسلط على عباد الله بالجبروت .

عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا  
كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ لَّعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

[عَنِيد] أى : معاند لآيات الله .

فَعَصُوا كُلَّ نَاصِحٍ وَمَشَقُّ عَلَيْهِمْ ، وَاتَّبَعُوا كُلَّ غَاشٍ لَهُمْ ، يَرِيدُ  
إِهْلَآكَهُمْ لِأَجْرٍ أَهْلَكَ بِهِمُ اللَّهُ .

[وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً] فَمَا مِنْ وَقْتٍ وَجِيلٍ ، إِلَّا وَلَانِبَائِهِمُ  
الْقَبِيحَةُ ، وَأَخْبَارُهُمُ الشَّنِيعَةُ ، ذَكَرَ يَذْكُرُونَ بِهِ ، وَذَمَّ يَلْحَقُهُمْ [وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ]  
هُمْ أَيْضًا لَعْنَةً .

[أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ] أى : جَعَدُوا مِنْ خَلْقِهِمْ وَرَزَقِهِمْ  
وَرَبَاهُمْ .

[أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ] أى : أَيْعِدُهُمُ اللَّهُ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ وَقَرِيبِهِمْ  
مِنْ كُلِّ شَرٍّ .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَصْلِحْ

\* أى [ و ] أرسلنا [ إلى ثمود ] وهم : عاد الثانية ، المعروفون ، الذين يسكنون الحجر ، ووادى القرى .

[ أخاهم ] فى النسب [ صالحا ] عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده .

[ قال يا قوم اعبدوا الله ] أى : وحدوه ، وأخلصوا له الدين [ ما لكم من إله غيره ] لا من أهل السماء ، ولا من أهل الأرض .

[ هو أنشأكم من الأرض ] أى : خلقكم منها [ واستعمركم فيها ] أى : استخلفكم فيها ، وأنعم عليكم بالنعم ، الظاهرة والباطنة ، ومكنكم فى الأرض ، تبنون ، وتغرسون ، وتزرعون ، وتحرقون ماشيتهم ، وتنفعون بمنافعها ، وتستغلون مصالحها .

فكما أنه لا شريك له فى جميع ذلك ، فلا تشرکوا به فى عبادته .  
[ فاستغفروه ] مما صدر منكم ، من الكفر ، والشرك ، والمعاصي ، وأقلعوا عنها .

[ ثم توبوا إليه ] أى : ارجعوا إليه بالتوبة النصوح ، والإنابة .  
[ إن ربى قريب مجيب ] أى : قريب ممن دعاه دعاء مسألة ، أو دعاء عبادة .

قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا

يحببه بإعطائه سؤاله ، وقبول عبادته ، وإثابته عليها ، أجل الثواب .  
واعلم أن قربه تعالى نوعان : عام ، وخاص .  
فالقرب العام ، قربه بعلمه ، من جميع الخلق ، وهو المذكور في قوله تعالى : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .  
والقرب الخاص ، قربه من عابديه ، وسائليه ، ومحبيه ، وهو المذكور في قوله تعالى « فاسجد واقترب » .

وفي هذه الآية ، وفي قوله : « وإذا سألك عبادى عنى فأنى قريب أجيب دعوة الداعى » .

وهذا النوع ، قرب يقتضى إطفافه تعالى ، وإجابته لدعواتهم ، وتحقيقه لمرادتهم ، ولهذا يقرن ، باسمه « القريب » اسمه « المجيب » .  
فلما أسرم نبيهم صالح عليه السلام ، ورغبهم فى الإخلاص لله وحده ، ردوا عليه دعوته ، وقابلوه أشنع المقابلة .

[ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ] أى : قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع .

وهذا شهادة منهم ، لنبيهم صالح ، أنه مازال معروفا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، وأنه من خيار قومه .

ولكنه ، لما جاءهم بهذا الأمر ، الذى لا يوافق أهواءهم الفاسدة ، قالوا هذه المقالة ، التى مضمونها ، أنك قد كنت كاملا ، والآن أخلفت ظننا فيك ، وصرت بحالة لا يرجى منك خير .

وذنبه ، ما قالوه عنه : [ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ] وبزعمهم أن

وَإِنَّا لَنِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ  
 إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ  
 إِن عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ

هذا ، من أعظم القدح في صالح ، كيف قدح في عقولهم ، وعقول آبائهم  
 الضالين ، وكيف ينهام عن عبادة ، من لا ينفع ولا يضر ، ولا يغني شيئاً  
 من الأحجار ، والأشجار ونحوها .

وأمرهم بإخلاص الدين لله ربهم ، الذي لم تزل نعمه عليهم تترى ،  
 وإحسانه عليهم دائماً ينزل ، الذي ، ما بهم من نعمة ، إلا منه ، ولا يدفع  
 عنهم السيئات إلا هو .

[ وإِنَّا لَنِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ] أى : ما زلنا شاكين فيما  
 دعوتنا إليه ، شكاً مؤثراً في قلوبنا الريب .

وبزعمهم أنهم لو علموا ، صحة ما دعاهم إليه ، لاتبعوه ، وهم كذبة  
 في ذلك ، ولهذا بين كذبهم في قوله :

[ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ] أى : برهان ويقين  
 منى [ وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ] أى : منَّ علىَّ برسالته ووحيه .

أى : أفأنا بكم على ما أنتم عليه ، وما تدعوننى إليه ؟ .

[ فَمَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ ، فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ] أى : غير  
 خسارة وتباب ، وضرر .

[ وَيَاقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ] لها شرب من البئر يوماً ، ثم يشربون  
 كلهم من ضرعها ، ولهم شرب يوم معلوم .

لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ  
فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ  
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا  
صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ  
هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا  
فِي دِيَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا إِنَّا شَمُودًا كَفَرُوا

[ فذروها تأكل في أرض الله ] أى : ليس عليكم من مؤنتها  
وعلفها شيء .

[ ولا تمسوها بسوء ] أى : بعقر [ فياخذكم عذاب قريب . فعقروها  
فقال ] لهم صالح : [ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب ]  
بل لا بد من وقوعه .

[ فلما جاء أمرنا ] بوقوع العذاب [ نجينا صالحا والذين آمنوا معه  
برحمة منا ومن خزي يومئذ ] أى : نجيناهم من العذاب والخزي  
والفضيحة .

[ إن ربك هو القوى العزيز ] ومن قوته وعزته ، أن أهلك الأمم  
الطاغية ، وبعث الرسل وأتباعهم .

[ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ] فقطعت قلوبهم .

[ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ] أى : خامدين لا حراك لهم .

[ كأن لم يغنوا فيها ] أى : كأنهم — لما جاءهم العذاب — ما تمتعوا

رَبِّهِمْ أَلَا بُعْدًا لِّلثَمُودَ ﴿٦٨﴾

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا  
قَالَ سَلَامٌ قَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَآ أَيْدِيَهُمْ

في ديارهم ، ولا أنسوا فيها ، ولا تنعموا بها يوماً من الدهر  
قد فارقهم النعيم ، وتناولهم العذاب السرمدي ، الذي ينقطع ، والذي  
كأنه لم يزل .

[ ألا إن ثمودا كفروا ربهم ] أى : جحدوه بعد أن جاءتهم  
الآية المبصرة .

[ ألا بعدا لثمود ] فما أشقاهم وأذلهم ، نستجير بالله من عذاب الدنيا  
وخزيها .

\* أى : [ ولقد جاءت رسلنا ] من الملائكة الكرام ، رسولنا [ إبراهيم ]  
الخليل [ بالبشرى ] أى : بالبشارة بالولد ، حين أرسلهم الله لإهلاك قوم  
لوط ، وأمرهم أن يمشوا على إبراهيم ، فيبشروه بإسحق .  
فلما دخلوا عليه [ قالوا سلاما ، قال سلام ] أى : سلموا عليه ، ورد  
عليهم السلام .

ففي هذا مشروعية السلام ، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام  
وأن السلام قبل الكلام ، وأنه ينبغي أن يكون الرد ، أبلغ من الابتداء ،  
لأن سلامهم بالجملة الفعلية ، الدالة على التجدد ، وردده بالجملة الاسمية ، الدالة  
على الثبوت والاستمرار ، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية .

[ فما لبث ] إبراهيم لما دخلوا عليه [ أن جاء بعجل حنيد ] أى : بادر

لَا تَصِلْ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَتَخَفْ إِنَّا

لبيتة ، فاستحضر لأضيافه عجلاً مستويا<sup>(١)</sup> على الرضف سمينا ، فقربه إليهم فقال : ألا تأكلون ؟ .

[ فلما رأى أيديهم لاتصل إليه ] أى : إلى تلك الضيافة<sup>(٢)</sup> [ نكرم وأوجس منهم خيفة ] وظن أنهم أتوه بشر ومكروه ، وذلك قبل أن يعرف أمرهم .

[ قالوا : لاتخف ، إنا أرسلنا إلى قوم لوط ] أى : إنا رسل الله ، أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط .

(١) مستويا أى : مشويا على الحجارة المحماة بالنار كالقرن فى عصرنا .

(٢) قوله ( إلى تلك الضيافة ) الأوضح أن يقال ( إلى العجل الخنيز ) لأن الضمير لا يرجع إلا إلى مذكور . وكلمة ( الضيافة ) غير مذكورة : ولا يصح أيضاً حمل ( الضيافة ) على الطعام الذى يقدم للضيف لمخالفته لنصوص اللغة .

قال فى القاموس وضفته أضيفه ضيفا وضيافة نزلت عليه ضيفا . اهـ وفى « المختار من الصحاح » أضاف الرجل وضيفه تضييفاً أنزله به ضيفا وضافه ضيافة ، إذا نزل عليه ضيفا وكذا تضييفه . اهـ .

وبما ذكرنا يعلم أن ( الضيافة ) مصدر لفعل ( ضيافة ) .

فلا يصح إطلاق المصدر على طعام الضيف بوجه من الوجوه ، لا حقيقة ولا مجازاً .

أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ رَهًا  
بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَوَيْلَتِي ۖ أَلِدُ وَأَنَا  
عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ  
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ

[ وامرأته ] أى : وامرأة إبراهيم [ قائمة ] تخدم أضيافه [ فضحكت ]  
حين سمعت بحالهم ، وما أرسلوا به ، تعجباً .

[ فبشرناها بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ] فتعجبت من ذلك  
و [ قالت يا ويلتى ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ] فهذان ما نعان من  
وجود الولد [ إن هذا لشيء عجيب ] .

[ قالوا أتعجبين من أمر الله ] فإن أمره لا عجب فيه ، لنفوذ مشيئته  
التامة فى كل شيء ، فلا يستغرب على قدرته شيء ، وخصوصاً فيما يدبره  
ويعضيه ، لأهل هذا البيت المبارك .

[ رحمة الله وبركاته ] أى : لاتزال رحمته ، وإحسانه ، وبركاته ،  
وهى : الزيادة من خيره وإحسانه ، وحلول الخير الإلهى [ عليكم أهل البيت  
إنه حميد مجيد ] .

أى : حميد الصفات ، لأن صفاته ، صفات كمال .

حميد الأفعال ، لأن أفعاله ، إحسان ، وجود ، وبر ، وحكمة ،  
وعدل ، وقسط .

تَجِدُ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى  
يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾  
يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ  
عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئًا بِهِمْ وَضَاقَ

مجيد ، والمحد : هو عظمة الصفات وسعتها ، فله صفات الكمال ؛  
وله من كل صفة كمال ، أكلها ، وأتمها ، وأعمها .

[ فلما ذهب عن إبراهيم الروع ] الذى أصابه من خيفة أضيفه  
[ وجاءته البشرى ] بالولد ، التفت حينئذ ، إلى مجادلة الرسل فى إهلاك  
قوم لوط .

وقال لهم : « إن فيها لوطا ، قالوا نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله ،  
إلا امرأته » .

[ إن إبراهيم حلیم ] أى : ذو خلق وسعة صدر ، وعدم غضب ، عند  
جهل الجاهلين .

[ أواه ] أى : متضرع إلى الله فى جميع الأوقات .

[ منيب ] أى : رجّاع إلى الله ، بمعرفته ومحبه ، والإقبال عليه ،  
والإعراض عن سواه ، فلذلك كان يجادل عن من حتم الله بهلاكهم .

ف قيل له : [ يا إبراهيم أعرض عن هذا ] الجدال [ إنه قد جاء أمر ربك ]  
بهلاكهم [ وإنهم آتيتهم عذاب غير مردود ] فلا فائدة فى جدالك .

[ ولما جاءت رسلنا ] أى : الملائكة الذين صدروا من إبراهيم لما أتوا .

بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ  
وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَقُومِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ  
أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ  
رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ

[لوطا سىء بهم] أى : شق عليه مجيئهم .

[وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب] أى : شديد حرج .

لأنه علم أن قومه لا يتركونهم ، لأنهم فى صور شباب ، جرد ، مرد ،  
فى غاية الكمال والجمال ، ولهذا وقع ما خطر بباله .

[وجاء قومه يهرعون إليه] أى : يسرعون ويبادرون ، يريدون  
أضيافه بالفاحشة ، التى ما سبقهم إليها أحد من العالمين .

[قال : يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم] من أضيافى ، وهذا كما  
عرض سليمان صلى الله عليه وسلم ، على المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه ،  
لاستخراج الحق .

ولعلمه أن بناته ممتنع مناهن ، ولا حق لهم فيهن .

والمقصود الأعظم ، دفع هذه الفاحشة الكبرى .

[فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى] أى : إما أن تراعوا تقوى الله ،  
وإما أن تراعونى فى ضيفى ، ولا تخزونى عندهم .

[أليس منكم رجل رشيد] فيها كم ، ويزجر كم .

وهذا دليل على مروجهم وإحلالهم ، من الخير والروءة .

[قالوا] له : [لقد علمت مالنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم

مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾  
قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ  
مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا

ما نريد [ أى : لا نريد إلا الرجال ، ولا لنا رغبة فى النساء .

فاشدد قلق لوط عليه الصلاة والسلام ، و [ قال : لو أن لى بكم قوة ،  
أو آوى إلى ركن شديد ] كقبيلة مانعة ، لمنعتكم .

وهذا بحسب الأسباب المحسوسة ، وإلا ، فإنه يأوى إلى أقوى الأركان  
وهو الله ، الذى لا يقوم لقوته أحد ، ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه ،  
واشدد الكرب .

[ قالوا ] له : [ يالوط إننا رسل ربك ] أى : أخبروه بحالمهم ،  
ليطمئن قلبه .

[ لن يصلوا إليك ] بسوء .

ثم قال جبريل بجناحه ، فطمس أعينهم ، فانطلقوا يتوعدون لوطا  
بمجيء الصبح .

وأمر الملائكة لوطا ، أن يسرى بأهله [ بقطع من الليل ] أى : بجانب  
منه قبل الفجر بكثير ، ليتمكنوا من البعد عن قريتهم .

[ ولا يلتفت منكم أحد ] أى : بادروا بالخروج ، وليكن همكم النجاة  
ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم .

[ إلا امرأتك إنه مصيبها ] من العذاب [ ما أصابهم ] لأنها تشارك  
قومها فى الإثم ، فتدلم على أضياف لوط ، إذا نزل به أضياف .

مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾  
فَلَمَّا جَاءَ أَمَرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً  
مِّن سَجِيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ  
بَبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

---

[ إن موعدهم الصبح ] فكان لوطا ، استعجل ذلك ، فقيل له : [ أليس  
الصبح بقريب ] .

[ فلما جاء أمرنا ] بنزول العذاب ، وإحلاله فيهم [ جعلنا ] ديارهم  
[ عاليها سافلها ] أى . قلبناها عليهم [ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ]  
أى : من حجارة النار الشديدة الحرارة [ منضود ] أى . متتابعة ، تتبع  
من شد عن القرية .

[ مسومة عند ربك ] أى : معامة ، عليها علامة العذاب والغضب .

[ وما هي من الظالمين ] الذين يشابهون لفعل قوم لوط [ ببعيد ] .

فليحذر العباد ، أن يفعلوا كفعالهم ، لئلا يصيبهم ما أصابهم .

﴿١٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿١٨٤﴾ وَيَتَقَوْمِ أَوْفُوا

\* أى (و) أرسلنا [ إلى مدين ] القبيلة المعروفة ، الذين يسكنون مدين ، فى أدنى فلسطين .

[ أخاهم ] فى النسب [ شعيبا ] لأنهم يعرفونه ، ويتمكنون من الأخذ عنه .

[ قال ] لهم : [ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ] أى : أخلصوا له العبادة .

فإنهم كانوا يشركون .

وكانوا — مع شركهم — يبخسون المكيال والميزان ، ولهذا نهاهم عن ذلك فقال :

[ ولا تنقصوا المكيال والميزان ] بل أوفوا السكيل والميزان بالقسط .

[ إني أراكم بخير ] أى بنعمة كثيرة ، وصحة ، وكثرة أموال وبنين ،

فاشكروا الله على ما أعطاكم ، ولا تكفروا بنعمة الله ، فيزيلها عنكم .

[ وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ] أى : عذاباً يحيط بكم ،

ولا يبقى منكم باقية .

[ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ] أى : بالعدل الذى ترضون

أن تعطوه .

الْمَكِيلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا  
فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ  
وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ

[ولا تبخسوا الناس أشياءهم] أي : لا تنقصوا من أشياء الناس ،  
ففسد قواها بأخذها ، بنقص المكيال والميزان .

[ولا تعتوا في الأرض مفسدين] فإن الاستمرار على المعاصي ، يفسد  
الأديان ، والعقائد ، والدين ، والدنيا ، ويهلك الحرث ، والنسل .

[بقية الله خير لكم] أي : يكفيكم ما أبقى الله لكم من الخير ،  
وما هو لكم .

فلا تطمعوا في أمر لكم عنه غنية ، وهو ضار لكم جداً .

[إن كنتم مؤمنين] فاعملوا بمقتضى الإيمان .

[وما أنا عليكم بحفيظ] أي : لست بحافظ لأعمالكم ، ووكيل عليها .

وإنما الذى يحفظها ، الله تعالى ، وأما أنا ، فأبلغكم ما أرسلت به .

[قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا] أي : قالوا

ذلك على وجه التهكم بنبيهم ، والاستبعاد لإجابتهم له .

ومعنى كلامهم : أنه لا موجب لتهيك لنا ، إلا أنك تصلى لله ،

وتتعبد له .

فإن كنت كذلك ، أفوجب لنا أن نترك ما يعبد آباؤنا ، لقول ليس

عليه دليل ، إلا أنه موافق لك ، فكيف نتبعك ، ونترك آباؤنا الأقدمين ،

أولى العقول والألباب ؟ !

أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ  
لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ  
مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ

وكذلك لا يوجب قولك لنا : «أن نفعل في أموالنا» ما قلت لنا ، من  
وفاء الكيل ، والميزان ، وأداء الحقوق الواجة فيها ، بل لانزال نفعل فيها  
ما شئنا ، لأنها أموالنا ، فليس لك فيها تصرف .

ولهذا قالوا في تهكمهم : [ إنك لأنت الحليم الرشيد ] أى : إنك  
أنت الذى ، الحلم والوقار ، لك خلق ، والرشد لك سجية ، فلا يصدر عنك  
إلا رشد ، ولا تأمر إلا برشد ، ولا تنهى إلا عن غى ، أى : ليس  
الأمر كذلك .

وقصدهم ، أنه موصوف بعكس هذين الوصفين : بالسفه والغواية .  
أى : أن المعنى : كيف تكون أنت الحليم الرشيد ، وآباؤنا هم  
السفهاء الغاوين ؟ !!

وهذا القول الذى أخرجوه بصيغة التهكم ، وأن الأمر بعكسه ،  
ليس كما ظنوه .

بل الأمر كما قالوه . إن صلاته تأمره أن ينهاهم ، عما كان يعبد آباؤهم  
الضالون ، وأن يفعلوا في أموالهم ما يشاءون ، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء  
والمنكر ، وأى فحشاء ومنكر ، أكبر من عبادة غير الله ، ومن منع حقوق  
عباد الله ، أو سرقها ، بالمكاييل ، والموازين ، وهو ، عليه الصلاة والسلام  
الحليم الرشيد .

مَا أَنَّهُكُمْ عَنْهُ إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي  
إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَقُومُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ

[ قال ] لهم شعيب : [ يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ]  
أي : يقين وطمأنينة ، في صحة ما جئت به .  
[ ورزقني منه رزقاً حسناً ] أي . أعطاني الله من أصناف المال ،  
ما أعطاني .

[ و ] أنا [ ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ] فليست أريد أن  
أنهاكم عن البخس ، في المكيال ، والميزان ، وأفعله أنا ، حتى تنطرق إليّ  
التهمة في ذلك .  
بل ما أنهاكم عن أمر ، إلا وأنا ، أول مبتدئ<sup>(١)</sup> لتركه .

[ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ] أي : ليس لي من المقاصد ،  
إلا أن تصلح أحوالكم ، وتستقيم منافعكم ، وليس لي من المقاصد الخاصة  
لي وحدي ، شيء . بحسب استطاعتي .

ولما كان هذا ، فيه نوع تزكية للنفس ، دفع هذا بقوله : [ وما توفيقِي  
إلا بالله ] أي : ما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير ، والانفكاك عن الشر  
إلا بالله تعالى ، لا بحولي ، ولا بقوتي .

[ عليه توكلت ] أي : اعتمدت في أموري ، ووقت في كفايته .

[ وإليه أُنِيبُ ] في أداء ما أمرني به ، من أنواع العبادات .

وفي هذا التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات .

(١) مبتدئ . أي : مسارع إليه .

شِقَاقٍ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ  
صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ  
تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا

وبهذين الأمرين ، تستقيم أحوال العبد ، وهما الاستعانة بربه ، والإنابة  
إليه ، كما قال تعالى « فاعبدوه وتوكل عليه » وقال : « إياك نعبد وإياك  
نستعين » .

[ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى ] أى : لاتحملنكم مخالفتى ومشاقتى  
[ أن يصيبكم ] من العقوبات [ مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم  
صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد ] لا فى الدار ، ولا فى الزمان  
[ واستغفروا ربكم ] عما اقترعتم من الذنوب [ ثم توبوا إليه ] فيما  
يستقبل من أعماركم ، بالتوبة النصوح ، والإنابة إليه بطاعته ، وترك  
مخالفته .

[ إن ربى رحيم ودود ] لمن تاب وأناب ، يرحمه ، فيغفر له ، ويتقبل  
توبته ، ويحبه .

ومعنى الودود ، من أسمائه تعالى ، أنه يحب عباده المؤمنين ، ويحبونه ،  
فهو « فعول » بمعنى « فاعل » ومعنى « مفعول » .

[ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ] أى : تضجروا من نصائحه  
ومواعظه لهم ، فقالوا : « ما نفقه كثيرا مما تقول » وذلك لبغضهم لما يقول ،  
ونفرتهم عنه .

مَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَجْنَاكَ  
وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ ﴿٩١﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ  
مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾  
وَيَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْمَلُونَ مِمَّنْ يَأْتِيهِ

[ وإنا لنراك فينا ضعيفا ] أى : فى نفسك ، لست من الكبار والرؤساء  
بل من المستضعفين .

[ ولولا رهطك ] أى : جماعتك وقبيلتك [ لرجناك ، وما أنت  
علينا بعيز ] .

أى : ليس لك قدر فى صدورنا ، ولا احترام فى أنفسنا ، وإنما احترمنا  
قبيلتك ، بتركنا إياك .

[ قال ] لهم مترقا لهم ، [ يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله ] .

أى : كيف تراعوننى لأجل رهطى ، ولا تراعوننى الله ، فصار رهطى  
أعز عليكم من الله .

[ واتخذتموه وراءكم ظهريا ] أى : نبذتم أمر الله ، وراء ظهوركم ، ولم  
تبالوا به ، ولا خفتم منه .

[ إن ربى بما تعملون محيط ] لا يخفى عليه من أعمالكم ، مثقال ذرة ،  
فى الأرض ، ولا فى السماء ، فسيجازيكم على ما عملتم أتم الجزاء .

[ و ] لما أعيوه وعجز عنهم قال : [ يا قوم اعملوا على مكاتكم ]  
أى . على حالتكم ودينكم .

عَذَابٌ يَخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾  
وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ  
الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٩٤﴾ كَانَ لَمْ  
يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّلْمَدِينِ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

[إني عامل ، سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ] ويحل عليه عذاب  
مقيم [ ومن هو كاذب ] أنا أم أنتم ، وقد علموا بذلك ذلك حين وقع  
عليهم العذاب .

[ وارتقبوا ] ما يحل بي [ إني معكم رقيب ] ما يحل بكم .  
[ ولما جاء أمرنا ] بإهلاك قوم شعيب [ نجينا شعيبا والذين آمنوا معه  
برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ] لا تسمع  
لهم صوتا ، ولا ترى منهم حركة [ كأن لم يغنوا فيها ] أى : كأنهم ما أقاموا  
في ديارهم ، ولا تنعموا فيها حين أتاهم العذاب .

[ ألا بعداً لمدین ] إذ أهلكها الله وأخزاها [ كما بعدت ثمود ]  
أى : قد اشتركت هاتان القبيلتان ، في السحق ، والبعد ، والهلاك .  
وشعيب عليه السلام ، كان يسمى خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته  
لقومه .

وفي قصته من الفوائد والعبر ، شيء كثير .  
منها : أن الكفار ، كما يعاقبون ، ويخاطبون ، بأصل الإسلام ،  
فكذلك بشرائعه وفروعه ، لأن شعيبا دعا قومه إلى التوحيد ، وإلى إيفاء  
المكيال والميزان ، وجعل الوعيد ، مرتبا على مجموع ذلك .

ومنها : أن نقص الكايل والموازين ، من كبائر الذنوب ،  
وتخشى العقوبة العاجلة ، على من تعاطى ذلك ، وأن ذلك ، من سرقة  
أموال الناس .

وإذا كان سرقته في الكايل والموازين ، موجبة للوعيد ، فسرقته  
— على وجه القهر والغلبة — من باب أولى ، وأخرى .

ومنها : أن الجزاء عن جنس العمل .

فمن بخش أموال الناس ، يريد زيادة ماله ، عوقب بنقيض ذلك ،  
وكان سببا لزوال الخير ، الذي عنده ، من الرزق لقوله :

[ إني أراكم بخير ] أى : فلا تنسبوا إلى زواله بفعلكم .

ومنها : أن على العبد ، أن يقنع بما آتاه الله ، ويقنع بالخلال عن الحرام  
وبالمكاسب المباحة ، عن المكاسب المحرمة ، وأن ذلك خير له لقوله :  
[ بقية الله خير لكم ] .

ففي ذلك ، من البركة ، وزيادة الرزق ، ما ليس في التكاليف على  
الأسباب المحرمة ، من الحق ، وضد البركة .

ومنها : أن ذلك ، من لوازم الإيمان ، وآثاره ، فإنه رتب العمل به ،  
على وجود الإيمان .

فدل ، على أنه إذا لم يوجد العمل ، فالإيمان ناقص ، أو معدوم .

ومنها : أن الصلاة ، لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدمين ، وأنها من  
أفضل الأعمال .

حتى إنه متقرر عند الكفار فضلها ، وتقديمها على سائر الأعمال ،  
وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى ميزان للإيمان وشرائعه .  
فبإقامتها على وجهها ، تكمل أحوال العبد ، وبعدم إقامتها ، تختل  
أحواله الدينية .

ومنها : أن المال الذى يرزقه الله الإنسان — وإن كان الله قد خوله  
إياه — فليس له أن يصنع فيه ما يشاء ، فإنه أمانة عنده ، عليه أن يقيم  
حق الله فيه ، بأداء ما فيه ، من الحقوق ، والامتناع من المكاسب ، التى  
حرمها الله ورسوله .

لا كما يزعمه الكفار ، ومن أشبههم ، أن أموالهم ، لهم أن يصنعوا  
فيها ما يشاءون ويختارون ، ، سواء وافق حكم الله ، أو خالفه .  
ومنها : أن من تكلمة دعوة الداعى وتاممها ، أن يكون أول مبادر  
لما يأمر غيره به .

وأول منته ، عما ينهى غيره عنه ، كما قال شعيب عليه السلام :

[ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ] ولقوله تعالى :  
« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون » .

ومنها : أن وظيفة الرسل ، وستهم ، وملتهم ، إرادة الإصلاح ،  
بحسب القدرة والإمكان ، بتحصيل المصالح وتكميلها ، أو بتحصيل ما يقدر  
عليه منها ، وبدفع المفسد وتقليلها ، ويراعون المصالح الخاصة .

وحقيقة المصلحة ، هى التى تصلح بها أحوال العباد ، وتستقيم بها أمورهم  
الدينية والدينية .

ومنها : أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح ، لم يكن ملوماً ولا مذموماً ، في عدم فعله ، ما لا يقدر عليه .

فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه ، وفي غيره ، ما يقدر عليه .

ومنها : أن العبد ، ينبغي له أن لا يتكسل على نفسه طرفة عين .

بل لا يزال مستعينا بربه ، متوكلاً عليه ، سائلاً له التوفيق .

وإذا حصل له شيء من التوفيق ، فلينسبه لموليه ومسديه ، ولا يعجب

بنفسه لقوله : [ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ] .

ومنها : الترهيب بأخذات الأمم ، وما جرى عليهم ، وأنه ينبغي أن

تذكر القصص ، التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين ، في سياق الوعظ والزجر .

كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى ، عند الترغيب ، والحث على التقوى .

ومنها : أن التائب من الذنب كما يسمح له<sup>(١)</sup> عن ذنبه ، ويعفى عنه فإن الله تعالى يحبه ويوده .

ولا عيرة بقول من يقول « إن التائب إذا تاب ، فحسبه أن يغفر له ، ويعود عليه بالعفو ، وأما عود الود الحب فإنه لا يعود .

فإن الله قال : « واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود » .

---

(١) قوله ( كما يسمح ) الأولى أن يقال : ( كما يتجاوز له عن ذنبه )

ومنها : أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة ، قد يعلمون بعضها ، وقد لا يعلمون شيئاً منها .

وربما دفع عنهم ، بسبب قبيلتهم ، وأهل وطنهم الكفار ، كما دفع الله عن شعيب ، رجم قومه ، بسبب رهطه . وأن هذه الروابط ، التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين ، لا بأس بالسعى فيها ، بل ربما تعين ذلك . لأن الإصلاح مطلوب ، على حسب القدرة والإمكان .

فعلى هذا ، لو سعى المسلمون الذين تحت ولاية الكفار ، وعملوا على جعل الولاية جمهورية ، يتمكن فيها الأفراد والشعوب ، من حقوقهم الدينية والدنيوية ، لكان أولى ، من استسلامهم لدولة تقضى على حقوقهم ، الدينية والدنيوية ، وتحرص على إبادةها ، وجعلهم عَمَلَةً وَخَدَمًا لهم .

نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين ، وهم الحكام ، فهو المتعين . ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة ، فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا ، مقدمة . والله أعلم .

﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ  
فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾  
يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾

✽ يقول تعالى : [ ولقد أرسلنا موسى ] بن عمران [ بآياتنا ] الدالة على صدق ما جاء به ، كالعصا ، واليد ونحوها ، من الآيات التي أجراها الله على يدى موسى عليه السلام .

[ وسلطان مبين ] أى : حجة ظاهرة بينة ، ظهرت ظهور الشمس .

[ إلى فرعون وملاه ] أى : أشراف قومه ، لأنهم المتبعون ، وغيرهم تبع لهم ، فلم ينتادوا لما مع موسى من الآيات ، التي أراهم إياها ، كما تقدم سطها في سورة الأعراف

[ فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ] بل هو ضال غاير ، لا يأمر إلا بما هو ضرر محض .

لا جرم — لما اتبعه قومه — أرداهم وأهلكهم .

[ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود ] \* وأتبعوا في هذه [ أى : في الدنيا ] لعنة ويوم القيامة [ أى : يلعنهم الله وملائكته ، والناس أجمعون في الدنيا والآخرة .

[ بئس الرفد المرفود ] أى : بئس ما اجتمع لهم ، وترادف عليهم ، من عذاب الله ، ولعنة الدنيا والآخرة .

ولما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم ، قال الله تعالى لرسوله :

وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ بِنَسِ الرَّفْدِ أَلَمْزُقُودُ ﴿٩٩﴾  
 ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾  
 وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي  
 يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ  
 غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

[ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ] لتنذر به ، ويكون آية على  
 رسالتك ، وموعظة وذكرى للمؤمنين .

[ منها قائم ] لم يتلف ، بل بقي من آثار ديارهم ، ما يدل عليهم .

[ و ] منها [ حصيد ] قد تهدمت مساكنهم ، واضمحلت منازلهم ، فلم  
 يبق لها أثر .

[ وما ظلمناهم ] بأخذهم بأنواع العقوبات [ ولكن ظلموا أنفسهم ]  
 بالشرك والكفر ، والعناد .

[ فما أغنت عنهم آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ  
 أَمْرُ رَبِّكَ ] وهكذا كل من التجأ إلى غير الله ، لم ينفعه ذلك ، عند  
 نزول الشدائد .

[ وما زادوهم غير تتيب ] أى . خسار ودمار ، بالضد مما خطر ببالهم .

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ  
إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢)

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ  
يَوْمٌ مُّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ (١٠٣) وَمَا تُؤَخِّرُهُ

\* أى : يقصمهم بالعذاب ويبيد هم ، ولا ينفعهم ، ما كانوا يدعون ،  
من دون الله من شئ .

\* [إن في ذلك] المذكور ، من أخذه للظالمين ، بأنواع العقوبات .

[آية لمن خاف عذاب الآخرة] أى : لعبرة ودليلا ، على أن أهل  
الظلم والإجرام ، لهم العقوبة الدنيوية ، والعقوبة الآخروية .  
ثم انتقل من هذا ، إلى وصف الآخرة فقال : [ ذلك يوم مجموع  
له الناس ] .

أى : جمعوا لأجل ذلك اليوم ، للمجازاة ، وليظهر لهم ، من عظمة الله  
وعدله العظيم ، ما به يعرفونه حق المعرفة .

[وذلك يوم مشهود] أى : يشهده الله وملائكته ، وجميع المخلوقين .

﴿وما تؤخره﴾ [ أى : إتيان يوم القيامة ] [إلا لأجل معدود] إذا  
انقضى أجل الدنيا وما قدر الله فيها من الخلق ، فحينئذ ينقلهم إلى الدار  
الآخرة ، ويجرى عليهم أحكامه الجزائية ، كما أجرى عليهم في الدنيا ،  
أحكامه الشرعية .

إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ  
فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ  
وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا  
مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا

[يوم يأت] ذلك اليوم ، ويجتمع الخلق [لا تكلم نفس إلا بإذنه]  
حتى الأنبياء ، والملائكة الكرام ، لا يشفعون إلا بإذنه .  
[فمنهم] أى : الخلق [شقى وسعيد] .

فالأشقياء ، هم الذين كفروا بالله ، وكذبوا رسله ، وعصوا أمره .  
والسعداء ، هم : المؤمنون المتقون .  
وأما جزاؤهم [فأما الذين شقوا] أى : حصلت لهم الشقاوة ، وانخرى  
والفضيحة .

[ففى النار] منغمسون فى عذابها ، مشد على عقابها .  
[لهم فيها] من شدة ما هم فيه [زفير وشهيق] وهو أشنع الأصوات  
وأقبحها .

[خالدين فيها] أى : فى النار ، التى هذا عذابها [ما دامت السموات  
والأرض إلا ما شاء ربك] أى : خالدين فيها أبداً ، إلا المدة التى شاء الله ،  
أن لا يكونوا فيها ، كما قاله جمهور المفسرين .

فلاستثناء على هذا ، راجع إلى ما قبل دخولها ، فهم خالدون فيها جميع  
الأزمان ، سوى الزمن الذى قبل الدخول فيها .  
[إن ربك فعال لما يريد] فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته ،

فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُودٍ ﴿١٠٨﴾  
 ﴿١٠٩﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَمْبُدُونَ

فعنه ، تبارك وتعالى ، لا يرده أحد عن مراده .  
 [ وأما الذين سعدوا ] أى : حصلت لهم السعادة ، والفلاح ، والفوز  
 [ ففي الجنة خالدون فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ]  
 ثم أكد ذلك بقوله .

[ عطاء غير مجذوذ ] أى : ما أعطاهم الله من النعيم المقيم ، واللذة  
 العالية ، فإنه دائم مستمر ، غير منقطع بوقت من الأوقات .  
 نسأل الله الكريم من فضله أن يجعلنا منهم .

\* يقول الله تعالى ، لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : [ فلا تك في مرية مما  
 يعبد هؤلاء ] المشركون ، أى : لا تشك في حالهم ، وأن ما هم عليه باطل ،  
 فليس لهم ، دليل شرعى ولا عقلى .  
 وإنما دليلهم وشبهتهم ، أنهم [ ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم  
 من قبل ] .

ومن المعلوم أن هذا ، ليس بشبهة ، فضلا عن أن يكون دليلا ، لأن  
 أقوال ما عدا الأنبياء ، يحتاج بها .  
 خصوصا أمثال هؤلاء الضالين ، الذين كثر خطأهم وفساد أقوالهم ،  
 في أصول الدين .

إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ  
مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا  
كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ

فإن أقوالهم ، وإن اتفقوا عليها ، فإنها خطأ وضلال .

[ وإنا لموفون نصيبهم غير منقوص ] أى : لا بد أن ينالهم نصيب  
من الدنيا ، مما كتب لهم ، وإن كثّر ذلك النصيب ، أو راق في عينك ،  
فإنه لا يدل على صلاح حالهم .

فإن الله يعطى الدنيا ، من يحب ، ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان  
والدين الصحيح ، إلا من يحب .

والحاصل أنه لا يفتر باتفاق الضالين ، على قول الضالين من آبائهم  
الأقدمين .

ولا على ما خولهم الله ، وآتاهم من الدنيا .

\* [ يخبر تعالى ، أنه آتى موسى الكتاب ، الذى هو التوراة ، الموجب  
للاتفاق على أوامره ونواهيه ، والاجتماع ، ولكن ، مع هذا ، فإن المنتسبين  
إليه ، اختلفوا فيه اختلافا ، أضر بعقائدهم ، وبجامعتهم الدينية .

[ ولولا كلمة سبقت من ربك ] بتأخيرهم ، وعدم معاجلتهم بالعذاب  
[ لقضى بينهم ] بإحلال العقوبة بالظالم ، ولكنه تعالى ، اقتضت حكمته ، أن  
آخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة ، وبقوا في شك مريب .

مُرِيبٌ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كَلَّا لَمَّا لِيُوقِنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا  
يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ  
وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ

وإذا كانت هذه حالهم ، مع كتابهم ، فمع القرآن الذى أوحاه الله  
إليك ، غير مستغرب ، من طائفة اليهود ، أن لا يؤمنوا به ، وأن يكونوا  
فى شك منه مرِيب .

[وإن كلاً لما ليوقينهم ربك أعمالهم] أى : لا بد أن يقضى الله بينهم  
يوم القيامة ، بحكمه العدل ، فيجازى كلاً بما يستحق .

[إنه بما يعملون] من خير وشر [خبير] فلا يخفى عليه شيء من  
أعمالهم ، دقيقها وجليلها .

ثم لما أخبر بعدم استقامتهم ، التى أوجبت اختلافهم وافتراقهم ،  
أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، ومن معه ، من المؤمنين ، أن يستقيموا  
كما أمروا ، فيسلكوا ما شرعه الله ، من الشرائع ، ويعتقدوا ، ما أخبر الله  
من العقائد الصحيحة ، ولا يزيغوا عن ذلك ، يمناً ، ولا يسرة ، ويدوموا  
على ذلك ، ولا يطفوا ، بأن يتجاوزوا ما حده الله لهم من الاستقامة .

وقوله [إنه بما تعملون بصير] أى : لا يخفى عليه من أعمالكم شيء ،  
وسيجازيكم عليها .

ففيه ترغيب لسلوك الاستقامة ، وترهيب من ضدها ، ولهذا حذرهم  
عن الميل إلى من تعدى الاستقامة فقال :

[ولا تركنوا إلى الذين ظلموا] فإنكم ، إذا ملتم إليهم ، ووافقتموهم

ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ  
لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

على ظلمهم ، أو رضىتم ما هم عليه من الظلم [ فتمسكم النار ] إن : فعلتم ذلك  
[ وما لكم من دون الله من أولياء ] يمنعونكم من عذاب الله ، ولا يحصلون  
لكم شيئاً ، من ثواب الله .

[ ثم لا تنصرون ] أى : لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم .

ففى هذه الآية : التحذير من الركون إلى كل ظالم .

والمراد بالركون ، الميل والانضمام إليه بظلمه ، وموافقته ، على ذلك ،  
والرضا بما هو عليه من الظلم .

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ

\* وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة ، فكيف حال الظلمة ؟!!  
نسأل الله العافية من الظلم .

يأمر تعالى : بإقامة الصلاة كاملة [ طرفي النهار ] أى : أوله وآخره .  
ويدخل في هذا ، صلاة الفجر ، وصلاتا الظهر والعصر .

[ وزلفا من الليل ] ويدخل في ذلك ، صلاة المغرب والعشاء .

ويتناول ذلك قيام الليل ، فإنها مما تزلف العبد ، وتقربه إلى الله تعالى .  
[ إن الحسنات يذهبن السيئات ] أى : فهذه الصلوات الخمس ، وما  
الحق بها من القطوعات ، من أكبر الحسنات .

وهى — مع أنها حسنات — تقرب إلى الله ، وتوجب الثواب ، فإنها  
تذهب السيئات وتمحوها .

والمراد بذلك : الصغائر ، كما قيدتها الأحاديث الصحيحة ، عن النبي  
صلى الله عليه وسلم ، مثل قوله :

« والصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ،  
مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر »

بل كما قيدتها الآية التي في سورة النساء ، وهى قوله عز وجل .

« إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم  
مدخلا كريماً » .

ذلك ولعل الإشارة ، اسكل ما تقدم ، من لزوم الاستقامة على الصراط  
المستقيم ، وعدم مجاوزته وتعديه ، وعدم الركون إلى الذين ظلموا .

أَلْحَسَنَتِ يَذْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلَّذِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَصْبِرْ  
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

والأمر بإقامة الصلاة ، وبيان أن الحسنات يذهبن السيئات ، الجميع [ ذكرى للذاكرين ] يفهمون بها ما أمرهم الله به ، ونهاهم عنه ، ويمثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة للخيرات ، الدافعة للشرور والسيئات .

ولكن تلك الأمور ، تحتاج إلى مجاهدة النفس ، والصبر عليها ، ولهذا قال :

[ واصبر ] أى : احبس نفسك على طاعة الله ، وعن معصيته ، وإلزامها لذلك ، واستمر ولا تضجر .

[ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ] بل يتقبل الله عنهم أحسن الذى عملوا ، ويمجزهم أجرهم ، بأحسن ما كانوا يعملون .

وفى هذا ترغيب عظيم ، للزوم الصبر ، بتشويق النفس الضعيفة ، إلى ثواب الله ، كلما وثقت وقوت .

﴿قُلْ لَّوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَهُوَنَ  
عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ  
ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (١١٦)

\* لما ذكر تعالى ، إهلاك الأمم المكذبة للرسل ، وأن أكثرهم منحرفون  
عن أهل الكتب الإلهية ، وذلك كله يقضى على الأديان بالذهاب  
والاضمحلال ، ذكر أنه ، لولا أنه جعل في القرون الماضية بقايا ، من أهل  
الخير ، يدعون إلى الهدى ، وينهون عن الفساد والردى ، فحصل من نفعهم ،  
وأبقيت به الأديان ، ولكنهم قليلون جداً .

وغاية الأمر ، أنهم نجوا ، باتباعهم الرسائل ، وقيامهم بما قاموا به  
من دينهم ، ويكون حجة الله أجراها على أيديهم ، ليهلك من هلك عن بينة  
ويحيى من حى عن بينة .

[و] لكن [ اتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ] أى : اتبعوا ما هم فيه  
من النعيم والترف ، ولم يبتغوا به بدلا .

[ وكانوا مجرمين ] أى : ظالمين ، باتباعهم ما أترفوا فيه ، فلذلك حق  
عليهم العقاب ، واستأصلهم العذاب .

وفى هذا ، حث لهذه الأمة ، أن يكون فيهم بقايا مصلحون ، لما أفسد

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا  
مُصْلِحُونَ﴾ (١١٧)

الناس ، قائمون بدين الله ، يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم ،  
على الأذى ، ويبصرونهم من العمى .

وفي هذه الحالة ، أعلى حالة يرغب فيها الراغبون ، وصاحبها يكون ،  
إماما في الدين ، إذ جعل عمله خالصاً لرب العالمين .

\* أى : وما كان الله ليهلك القرى بظلم منه لهم ، والحال أنهم مصلحون ،  
أى : مقيمون على الصلاح ، مستمرون عليه .

لما كان الله ليهلكهم ، إلا إذا ظلموا ، وقامت عليهم حجة الله .

ويحتمل ، أن المعنى : وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق ، إذا  
رجعوا وأصلحوا عملهم ، فإن الله يعفو عنهم ، ويمحوا ما تقدم  
من ظلمهم .

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

\* يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن مشيئته غير قاصرة ، ولا يمتنع عليه شيء .

ولكنه اقتضت حكمته ، أن لا يزالوا مختلفين ، مخالفين للصرائط المستقيم ، متبعين للسبل الموصلة إلى النار ، كل يرى الحق ، فيما قاله ، والضلال في قول غيره .

[إلا من رحم ربك] فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به ، والاتفاق عليه .  
فهؤلاء سبقت لهم ، سابقة السعادة ، وتداركتهم العناية الربانية ، والتوفيق الإلهي .

وأما من عداهم ، فهم مخذولون موكولون إلى أنفسهم .  
وقوله : [ولذلك خلقهم] أي : اقتضت حكمته ، أنه خلقهم ، ليكون منهم السعداء والأشقياء ، والمتفقون والمختلفون ، والفريق الذي هدى الله ، والفريق الذي حقت عليهم الضلالة .

ليتبين للعباد ، عدله ، وحكمته ، وليظهر ، ما كن في الطباع البشرية ، من الخير والشر ، ولتقوم سوق الجهاد والعبادات ، التي لا تتم ولا تستقيم ، إلا بالامتحان والابتلاء .

[و] لأنه [تمت كلمة ربك لأملأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ] .  
فلا بد أن ييسر للنار أهلاً ، يعملون بأعمالها الموصلة إليها .

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ  
فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٠)  
﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ (١٢١)

\* لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء ، ما ذكر ، ذكر الحكمة  
في ذكر ذلك ، فقال :

[ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ] أى ، قلبك  
ليطمئن ، ويثبت ، وتصبر ، كما صبر أولى العزم من الرسل .

فإن النفوس تأنس بالاعتداء وتنشط على الأعمال ، وتريد المنافسة لغيرها ،  
ويتأيد الحق بذكر شواهد ، وكثرة من قام به .

[ وجاءك في هذه ] السورة [ الحق ] اليقين ، فلا شك فيه ، بوجه  
من الوجوه .

فالعلم بذلك ، من العلم بالحق ، الذى هو أكبر فضائل النفوس .

[ وموعظة وذكور للمؤمنين ] أى : يتعظون به ، فيرتدعون عن  
الأمر المسكروهة ، ويتذكرون الأمور المحبوبة لله ، فيفعلونها .

وأما من ليس من أهل الإيمان ، فلا تنفعهم المواعظ ، وأنواع  
التذكير ، ولهذا قال :

[ وقول للذين لا يؤمنون ] بعد ما قامت عليهم الآيات .

[ اعملوا على مكانتكم ] أى : حالكم التى أنتم عليها [ إنا عاملون ] على

وَأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَالْإِنِّهِ يُرْجِعُ الْأَمْرَ كُلَّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ  
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

ما كنا عليه [وانتظروا] ما يحل بنا [إنا منتظرون] ما يحل بكم .  
وقد فصل الله بين الفريقين ، وأرى عباده ، نصره لعباده المؤمنين ،  
وقعه لأعداء الله المكذبين .  
[ولله غيب السموات والأرض] أى : ما غاب فيهما ، من الخفايا ،  
والأمور الغيبية .  
[وإليه يرجع الأمر كله] من الأعمال والعمال ، فيميز الخبيث  
من الطيب .  
[فاعبده وتوكل عليه] أى : قم بعبادته ، وهى جميع ما أمر الله به  
مما تقدر عليه ، وتوكل على الله فى ذلك .  
[وما ربك بغافل عما تعملون] من الخير والشر ، بل قد أحاط علمه  
بذلك ، وجرى به قلمه ، وسيجرى عليه حكمه ، وجزاؤه .

تم تفسير سورة هود

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وسلم

وكان الفراغ من نسخه فى يوم السبت فى ٢١ من شهر ربيع

الآخر سنة ١٣٤٧

إتقى بعون الله وفضله وكرمه « الجزء الثالث » من كتاب :

﴿ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ﴾

بإتهاء تفسير سورة ( هود )

ويليه — إن شاء الله — « الجزء الرابع »

وأوله تفسير سورة ( يوسف )



# فهرس

## الجزء الثالث

صفحة

|     |                      |
|-----|----------------------|
| ٣   | تفسير سورة الأعراف . |
| ١٤١ | تفسير سورة الأنفال . |
| ١٩٧ | تفسير سورة التوبة .  |
| ٣٢١ | تفسير سورة يونس .    |
| ٤٠٠ | تفسير سورة هود .     |



تم طبع كتاب

﴿ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ﴾

تأليف علامة القاصم الأستاذ الجليل الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رقم الإيداع ١٩٧٧/٢٣٩٢